والفاتيكان في المقدمة ، بينما يتبعهما أسطولا إسبانيا وجنوة. وكانت الرياح تهب من خلف الأسطول الصليبي ، ما منع الأسطول العثماني من التقدم. وقد قام أسطول التحالف بسد مدخل ميناء بروزة لمنع خروج الأسطول العثماني ، وتقدموا باتجاه الجزيرة تساندهم الرياح القوية التي تهب من الخلف. وإلى جانب الرياح المعاكسة ، فقد كان الضباب الكثيف يحجب الرؤية ، وكان من الواضح أن استمرار الطقس على هذا النحو سيتسبب في هلاك الأسطول العثماني.

قام بربروس خير الدين باشا بكتابة آيات قرآنية على قصاصات من الورق ونثرها على سطح الموج ، ما رفع من معنويات محاربيه. ولم يمضِ وقت طويل حتى تغير اتجاه الرياح لصالح العثمانيين ومع انقشاع الضباب وجد الأسطول الصليبي نفسه في مواجهة الأتراك. وقد سرّ الفاتحون سروراً عظيماً ودخلوا المعركة متوكلين على الله وعلى رسوله الكريم336.

بدأ البحر بالغليان

سار جيشا الطرفين العائمان فوق الأمواج كبحر على سطح بحر ، لمواجهة بعضهما ، حيث بدأ غليون337 ضخم من أسطول العدو بالتقدم ورمي نيران مدافعه ، ولكن نيران المدافع العثمانية الكثيفة حولته إلى حطام وقتلت العديد من أفراد طاقمه.

وقد غطى دخان نيران المدافع الكثيفة صفحة السماء التي بدت وكأنها تزيّت بالسواد ، ولم يعد من الممكن التمييز بين سطح البحر وحدود اليابسة ، فيما أصداء المدافع الهادرة كانت ترج العالم في دوي صاخب ، وكأن قبة السماء قد غرقت في بحر من الظلام والسواد. وانهمرت النيران المتبادلة بين الطرفين بغزارة قلّ نظيرها ، جعلت البحر يبدأ بالغليان لفرط تأججها ، فأخذ من في جوفه من حيوانات وأسماك يتقد بهذه النيران ويُشوى في عويل بلغ عنان السماء.

وكانت النتيجة أنّ النيران التي انطلقت من مدافع الطرفين قد خلقت حولهما سحابة من الدخان ، حتى بات من المحال على الأسطولين أن يتمكن أحدهما من رؤية الآخر. ولكن هذه النيران تحولت إلى ما يشبه المشاعل التي اهتدوا بها وسط هذا الظلام.

شنّ خير الدين باشا في البداية هجوماً على ميمنة العدو ، وحين رأى العدو ذلك حاولت ميسرته الالتفاف حوله ومفاجأة الباشا من الخلف ، ليحاصروه من الجهتين ويقضوا عليه بنيران مدافعهم. ولكن بربروس خمن على الفور خطتهم وما يرمون إليه ، فتراجع في مناورة سريعة ليشن هجوماً جديداً على سفن العدو.

وإزاء هذا الهجوم فرّت سفن العدو للاحتماء بالبوارج ، ولكن الباشا لم يقم بملاحقتهم بل توجه لشن هجوم على ميسرة الأسطول هذه المرة ، فالتفت سفن الميمنة نحوه يغذيها الأمل في تطويق الباشا ، فما كان منه إلا أن قام بالهجوم عليهم مرة أخرى ، ليعيد هؤلاء الكرة في الاختباء خلف البوارج. وتكرر الأمر لثلاث مرات متوالية ، فحين كان

الباشا يشن هجوماً على الميمنة تلتف عليه الميسرة والعكس يحدث مع الميسرة في محاولة منها للالتفاف عليه وتطويقه بين نيرانها من الجهتين.

لذا أدرك بربروس صعوبة تحقيق النصر دون إبعاد سفن العدو الشراعية والكادرغة عن البوارج الضخمة ، فرفع يديه نحو السماء مبتهلاً وهو يقول» يا رب! اقضِ على القوم الكافرين وأنعم على عبادك المسلمين ، ومدّهم بالعزة والنصر» ، ووسط هتافات «الله الله» شنّ هجوماً على بوارج العدو ، فتمكن من إحراق العديد منها مع مدافعها ، وشق طريق وسطها ليسير نحو بقية سفن الكادرغة.

وما إن رأت سفن الكادرغة ، الباشا وقد بات وسط بوارجهم ، ظنوا بأنّ جنوده سينشغلون بالسلب والنهب ، وبالتالي ستسهل عليهم مهمة الهجوم على بربروس والقضاء عليه ، ولكن الأمر لم يسر وفق ما كانوا يشتهون ، فلم يلتفت العثمانيون إلى الأموال والمغانم ، بل كانوا يسيرون نحوهم بتصميم بالغ ، ما حطم آمالهم بالنصر ، وزرع الرعب في قلوبهم[338].

قبل البدء بالهجوم ، قام بربروس خير الدين باشا بتحذير قادته وشدد عليهم بالقول:

«بإذن الله سنشنّ هجوماً على سفن العدو ، فإياكم ثم إياكم الانشغال بالغنائم والأسرى أثناء خوضنا القتال ، وليكن هدفكم الأساسي هو سفن الكادرغة. وإن قدّر لكم الحق تعالى شيئاً ، فلن يذهب إلى سواكم. فما قدّره لكم من مال ورزق سيجد طريقه إليكم»

وهذا ما جعل المجاهدين يعرضون عن المال والغنائم ، بل ساروا بثبات خلف الباشا محطمين كل السفن التي تعترض طريقهم ، فيما الجنود الناجون من السفن الغارقة كانوا يتوجهون نحو قوارب النجاة ، فمنهم من يجد سبيله للفرار مبتعداً عن ساحة القتال ، والبعض يحتمون بسفنهم ، بينما كان قسم منهم يتجه نحو السفن العثمانية خوفاً من الهلاك ، فيتوسلون أن يأخذوهم أسرى ، ولكن المجاهدين وامتثالاً لأوامر الباشا لم يلقوا بالاً إليهم339.

وحين شاهدت قوات التحالف بوارجهم وقد تحطم بعضها وغرق القسم الآخر منها في قاع البحر ، وأنّ المجاهدين لم يلقوا إليها بالاً ، بل كان يغذّون الإبحار نحوهم ، أمر أندريا دوريا قواته بالتراجع فيما الوقت يقترب من المساء.

وفي هذه الأثناء بادرت قوات الاحتياط تحت قيادة الريّس تورغوت بالتحرك على الفور ، وبدؤوا بإغراق سفن العدو المنسحبة ، من خلال نيران مدافعهم. ما جعل الذعر يسيطر على أسطول العدو برمته.

وحين شاهدهم خير الدين باشا يلوذون بالفرار ، رفع يديه بالدعاء يحمد الله ويشكره ، ومن ثم انطلق في إثرهم ، واستطاع الاستيلاء على سفينتين من سفنهم. ولكن

الوقت كان قد تجاوز العشاء ، وبات الظلام يخيم على كل مكان ، وأصبح من الصعب تمييز العدو من الصديق ، والبحر من البر ، وتعذر على السفينة أن ترى سفينة أخرى. كما أنّ أندريا دوريا قد أمر كل سفنه بإطفاء مصابيحها ، الأمر الذي كان يعتبر بحسب قواعد ذلك العصر الحربية ، أقصى درجات الإذلال في المعارك البحرية340.

وهذا ما دفع خير الدين إلى التراجع عن ملاحقة العدو ، والعودة إلى الموقع الذي جرى فيه القتال ليرسو فيه. وقد اجتمع بقية القادة كلهم حول بربروس وأرسوا سفنهم هناك ، ومن ثم أضرموا النيران في سفن العدو وبوارجه التي خلّفها ، والتي فاق عددها كل حدٍّ وحساب ، حتى كان يبدو للناظر من بعيد أن البحر يحترق.

خسر الصليبيون نصف أسطولهم في بروزة ، حيث غرقت مائة وثمانية وعشرون سفينة حربية بالإضافة إلى الكثير من سفن النقل بنيران العثمانيين ، الذين تمكنوا من الاستيلاء على الكثير من السفن أيضاً. أما السفن الهاربة فقد أصاب الخراب معظمها ، ما يعني أنّ ما من سفينة صليبية في هذه المعركة ، نجت من الإصابة والتدمير.

أما الخسائر العثمانية فلم تكد تذكر ، حيث أنها لم تتجاوز أربع أو خمس سفن. ومقابل آلاف القتلى من العدو وأسر ثلاثة آلاف منهم ، كانت خسائر الجانب العثماني أربعمائة شهيد ، وثمانمائة جريح341.

لقد كان أندريا دوريا موقناً بأن العثمانيين لن يتجرؤوا على مهاجمة قوة بحرية تتفوق عليهم بشكل بالغ الوضوح ، وحتى مع انتقال بربروس إلى وضعية الهجوم ، فقد أراد فرض مساره الخاص على سير الوقائع معتمداً على ميزة تفوقه الكمي ، ولكن الأميرال العثماني كان يطبق مساراً جديداً تمام الجدة ، مفوتاً الفرصة على عدوه في الإمساك بزمام المبادرة. فحتى ذلك الوقت كان المعارك البحرية تعتمد على إطلاق النيران المتبادل بين الأسطولين المتواجهين ، ليتم بعد ذلك الانتقال إلى المواجهة المباشرة باقتراب السفن من بعضها وإنزال الجند على سفن العدو. ولكن الاستراتيجية التي اتبعها بربروس كانت بداية عصر جديد في خطط المعارك البحرية ، حيث بدأ استخدامها في الحروب البحرية والاعتماد

عليها اعتباراً من ذلك التاريخ.

ولإعلام السلطان سليمان القانوني بأخبار هذا النصر العظيم ، قام بربروس خير الدين باشا بإرسال ابنه حسن بيك ، وقد كان السلطان حينها يتجه نحو إدرنة عائداً من حملته الهمايونية على البغدان. فبلغ حسن معسكر السلطان بينما كان في مدينة يامبل.

وقد مثل بين يدي السلطان بعد مضي سبعة عشر يوماً على تحقيق هذا النصر العظيم ، وقبّل يديه. حيث أبلغه بأنباء النصر وتحيات بربروس ، كما قدّم إليه اثنين من كبار أميرالات العدو الذين تم أسرهم.

وعلى إثر ذلك أمر السلطان بعقد ديوان استثنائي ، قرأ فيه حسن بيك الظفر نامه التي كتبها بربروس ، بينما كان السلطان ورجاله يستمعون وقوفاً وهم يحمدون جناب الحق على هذا النصر المبين ، والذي أعلنه السلطان باعتباره الجهاد الأكبر.

كما أمر بمنح بربروس خير الدين باشا مائة ألف أكجة ، إلى جانب إرسال الفتح نامات إلى كل أرجاء البلاد ، وإقامة الاحتفالات في كل أنحاء الدولة العليّة[342]. وقد عمت الاحتفالات أراضي الدولة العالمية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الهندي ومن أواسط أفريقيا حتى جنوب موسكو.

دخل بربروس خير الدين باشا إلى إسطنبول وسط استقبال حاشد ومهيب ، وقد مكث فيها ليومين ، ومن ثم انطلق إلى إدرنة للقاء السلطان ، والتي وصلها في الثالث والعشرين من تشرين الأول ، حيث قبّل يد السلطان ، واجتمع به في لقاءات خاصة ومطولة أطلعه فيها على كل تفاصيل النصر الذي حققه.

بعد نصر بروزة غدا البحر المتوسط بحيرة عثمانية ، وعندما باتت البحار تضيق على مطامح البحارة العثمانيين فتحوا أشرعتهم صوب المحيطات. وقد تصدوا للقراصنة الذين كانوا يتلقون الدعم من ملوك أوروبا ، موفرين بذلك الأمان للتجارة والنقل البحري ، والاستقرار والأمن لسكان السواحل. وقاموا بحماية دول شمال أفريقيا الإسلامية من

اعتداءات الدول الأوروبية ، وبسطوا حمايتهم على طرق الحج البحرية ، حيث بات في وسع الحجاج السفر بحراً لأداء فريضة الحج دون التعرض لهجمات القراصنة.

حملة الهند (1538)

بعد اعتلاء بهادير شاه (1527-1537) عرش كوجارات بعدة سنوات ، أصبح واحداً من أقوى الحكام المسلمين في تلك الحقبة بمساعدة قوات المدفعية العثمانية ، وقد لجأ إليه العديد من أمراء الهند لتقديم المساعدة ضد أعدائهم. ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل باتت كوجارات ملجأً لكل من يضعه بهادير تحت حمايته. ومن جانب آخر فقد قام بهادير شاه وفي الحقبة الأكثر تألقاً من حكمه ، بارتكاب خطأ سياسي سيساهم مستقبلاً في سيطرة البرتغاليين على غرب الهند.

فقد نجح محمد الزمان ميرزا وهو أحد العصاة ، في الهرب من دلهي والتوجه إلى كوجارات ، حيث حصل على حماية بهادير. وعلى إثر ذلك أرسل هُمايون شاه وفداً أرفقه برسالة يطالب فيها بتسليم محمد الزمان ميرزا ، فردّ عليه الشاه بهادير برسالة سخرية ، ذكر فيها أنه سيقوم بحل المشكلة بالطرق الديبلوماسية ، ما أثار سخط همايون من هذه الإهانة ، وقرر من لحظته التوجه على رأس حملة نحو بهادير شاه من أجل معاقبته.

وبينما كان بهادير شاه مشغولاً بمحاصرة جيتور ، وصل هُمايون على رأس جيش كبير إلى غفاليور منتظراً بهادير لينتهي من غزوته. وبعد أن تمكن الأخير من السيطرة على جيتور ، وكسب غنائم هائلة ، تحرك نحو قلعة مانداسور ومن هناك توجه لملاقاة همايون.

استمرت مواجهة الجيشين الإسلاميين لمدة شهرين متواصلين ، ذلك أنّ جنود كلا الطرفين كانوا يتهربون من إصابة بعضهم بنيران المدافع والبنادق ، وقد اتخذ همايون تدابير مشددة من أجل حجز المؤن المتجهة لجيش بهادير والاستيلاء عليها ، وبذلك بدأ شح الموارد الغذائية يزداد في معسكر بهادير مع مرور الوقت ، فأدرك بأنّ تمرد الجنود بات وشيكاً وخارت شجاعته ، ليهرب خلسة من ساحة القتال تاركاً قيادة الجنود لقادة الجيش. وبعد شيوع نبأ فراره ، تشرذمت قوات كوجارات في حال يُرثى لها.

بعد الهزيمة التي لحقت ببهادير شاه ، أمام همايون شاه انسحب إلى قلعة بندر ديو لكنه لم يشعر بالأمان هناك. ما دفعه لمراسلة حاكم غوا البرتغالي من جهة ، ومن جهة أخرى قام بالتواصل مع السلطان العثماني حاكم مصر والبحر الأحمر ، وأشهر الحكّام في ممالك الشرق والمحيط الهندي. ولتوخي المزيد من الحذر فقد أرسل خزينته إلى الحجاز تحسباً للالتجاء إليها إن اقتضت الحاجة.

وبدوره فقد أكرم السلطان سليمان القانوني مبعوث الشاه بهادير الذي استقبله في إدرنة العام ألف وخمسمائة وستة وثلاثين ، واحتفى به احتفاءً بالغا ، كما أبلغه بأنه سيقدم المساعدة اللازمة لهم.

أما بهادير شاه فقد دفع غالياً ثمن التحالف مع البرتغال ، فبعد خلاف وقع بين الطرفين قام البرتغاليون بقتله في شباط العام ألف وخمسمائة وسبعة وثلاثين في ديو. وقد بلغ الخبر السلطان العثماني في شباط من العام الذي تلاه.

وبالطبع فلن يتغاضى حاكم أقوى دولة إسلامية في العالم ، عن جرأة المسيحيين على قتل حاكم مسلم في استهتار واضح. وبالتالي فلم يعد الهدف الذي وضعه نصب عينيه هو مناصرة الشاه بهادير على عدوه همايون شاه ، بل الجهاد ضد البرتغاليين الذين قطعوا طرق الحجاز البحرية ، وقاموا بقتل حاكم مسلم.

وقد عيّن على رأس هذه الحملة هاديم سليمان باشا أمير أمراء مصر الذي يحكمها حكماً عادلاً وبكفاءة عالية منذ عشر سنوات ، كما عين مكانه على حكم مصر ، داوود باشا الذي ترعرع في القصر ، وكان يشغل منصب الخزندار ، والذي وصل مصر في أيار من العام ألف وخمسمائة وثمانية وثلاثين. أما سليمان هاديم باشا فبعد أن سلّم منصب أمير أمراء مصر لخليفته ، انطلق نحو قناة السويس ليقود الحملة الموجهة ضد البرتغاليين[343].

وهكذا فبالتزامن مع خروج السلطان سليمان القانوني على رأس الحملة المتجهة إلى البغدان ، وقائد الأسطول بربروس خير الدين باشا إلى حملة بروزة ، كان أسطول عثماني

آخر بقيادة هاديم سليمان باشا يبحر في عباب المحيط الهندي. وما قدرة الإمبراطورية العثمانية على تسيير ثلاث حملات عسكرية في الآن ذاته لمواجهة أقوى دول العالم ، سوى دليل آخر على مدى عظمتها.

وصل سليمان باشا في الخامس من حزيران العام ألف وخمسمائة وثمانية وثلاثين إلى قناة السويس ، ومكث فيها ثمانية أيام للراحة. وكان أسطوله يضم سبع عشرة كادرغة ، سبعة وعشرين سفينة مجذافية خفيفة ، وثلاثة من سفن الغليون ، وأربع بوارج بالإضافة إلى العديد من السفن الصغيرة ، ليصل عددها جميعاً إلى ستة وسبعين قطعة. كما تم تزويد السفن الكبيرة منها بمدافع بالغة القوة ، أما القوة العسكرية فبلغ تعدادها تسعة آلاف جندي بمن فيهم ألفان من الإنكشارية ، ومع فرقة المدفعية وطواقم البحارة ، كان عدد المشتركين في الحملة يناهز العشرين ألفاً.

وفي الثالث عشر من حزيران ، فتح الأسطول العثماني الجبّار أشرعته للرياح ، وغادر قناة السويس بهدف الانتقام من البرتغاليين[344]. ومروا بسواحل كل من طور المصرية وجدة لاستكمال احتياجاتهم ، ومن ثم توجه الأسطول نحو مدينة عدن ، وكان سليمان هاديم باشا قد بعث سابقاً وفداً بقيادة وكيله الخاص المدعو فرهاد إلى كل من حاكم عدن الشيخ أمير بن داوود والسلطان بدر حاكم الشحر ، يعرض عليهما إطاعة السلطان وذكر اسمه في الخطبة.

وقد استقبل بدر سلطان الشحر وأهالي المدينة الوفد العثماني بحفاوة بالغة ، واجتمعوا في الجامع للاطلاع على الفرمان القادم من لدن العثمانيين ، وأظهروا الاحترام الواجب بالاستماع إلى أوامر السلطان باعتبارها الحكم الشريف وقوفاً بمن فيهم السلطان بدر ، الذي ارتدى خلال هذا الاجتماع أحد القفطانين اللذين أهداهما إليه الباشا باسم السلطان العثماني. وقد غادر الوفد المدينة برفقة العديد من الهدايا ورسالة إلى السلطان سليمان القانوني تقر فيها المدينة بولائها له.

وبالمقابل فإنّ حاكم عدن لم يمنح العثمانيين الجواب الذي يأملون ، وعلى إثر

ذلك أمر سليمان باشا قوات الإنكشارية بتنفيذ عملية إنزال على ساحل عدن في الخامس من آب العام ألف وخمسمائة وثمانية وثلاثين. كما بعث برسله إلى أمير بن داوود يحملون نصائح يتخللها الإقناع والتهديد على حد سواء من أجل التوجه إليه ومقابلته. فوافق الأخير حين أدرك جدية سليمان باشا وإصراره ، ومع وصوله كان الجنود العثمانيون يدخلون عدن ، ومنعاً لحدوث أي اضطرابات مستقبلاً ، قام سليمان باشا بإعدام الشيخ أمير بن داوود ووزيره وثلاثة من رجاله المقربين345.

في التاسع من آب ذكر اسم السلطان سليمان على كل المنابر في خطبة الجمعة ، وقد اتخذ سليمان باشا كافة التدابير الضامنة لحماية عدن واستقرارها ، كما ترك ثلاث سفن كادرغة في ميناء عدن بالإضافة لحامية عسكرية قوامها خمسمائة جندي عثماني في القلعة. ومن ثم أمر الأسطول بالتحرك مجدداً.

دخل الأسطول العثماني المهيب مياه المحيط الهندي ، بمؤازرة من الرياح المواتية وبعد إبحار دام سبعة عشر يوماً ، بلغ سواحل كوجارات في الرابع من أيلول. وقد تمكن من السيطرة بسهولة على قلعة غوكالا التي يسميها المؤرخون المسلمون بندر ترك والبرتغاليون فيلا دي رومس وعلى قلعة كات أيضاً ، ومن ثم توجه لمحاصرة القلعة التي بناها البرتغاليون في ديو.

ومن جهة أخرى وبعد قتل بهادير شاه على يد البرتغاليين ، شهدت كوجارات سلسلة نزاعات حول العرش ، أسفرت عن صراعات طويلة الأمد بين محمد الزمان ميرزا من سلالة الهاندش الذي قام بتحريض بهادير شاه ضد همايون شاه ما فتح الطريق لوقوع المنطقة تحت حكم الاحتلال البرتغالي ، وبين الشاه محمود الثالث بن لطفي خان ابن أخي بهادير شاه ، والذي كان لا يزال في الثانية عشرة من العمر ، وقد أسفر هذا الصراع في النهاية عن وصول محمود الثالث إلى العرش.

وقد أرسل سليمان باشا رسالة إلى سلطان كوجارات الجديد الشاه محمود الثالث ، طالباً تقديم العون والذخيرة. ولكن خوفاً من العثمانيين ومن المصير الذي لاقاه حاكم

عدن ، وبتأثير من البرتغاليين ، امتنع محمود الثالث الذي كان لا يزال طفلاً يخاف أن تضيع منه سلطنته ، امتنع عن تقديم المساعدة.

وطوال شهر تشرين الأول نفذ سليمان باشا هجمات بالغة الشدة على ديو ، وفي الوقت الذي كانت فيه القلعة آيلة للسقوط بيدهم ، قام الكوجاراتيون باختلاق أخبار عن قرب وصول أسطول برتغالي ضخم لتقديم العون لهم ، وبذلك فقد رفع سليمان باشا الحصار عن المدينة وغادر مع أسطوله الذي أنهك أثناء الحصار وفقد ألفاً ومائتين من جنوده ، دون أن يتمكن من القضاء على النفوذ البرتغالي في مياه الهندي346. على الرغم من الأسطول البرتغالي القابع في ميناء غوا بقيادة غارسيا دا نورونها ، لم يكن يجرأ على الاقتراب من الأسطول العثماني.

وصل سليمان باشا في الثالث عشر من آذار العام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين إلى ميناء جدة ، بعد أن استغرقت حملته ثلاثة أشهر ، وقد قام في طريق عودته باتخاذ بعض التدابير الإدارية في كل من اليمن وعدن ، وبعث برسله إلى السلطان ليعلمه بفتوحاته ويطلعه على تفاصيل رحلته. وقد توجه من هناك إلى الحج ، بينما أرسل الأسطول إلى قناة السويس. ومن ثم عاد إلى مصر عن طريق البر ، ومن هناك توجه إلى إسطنبول إثر الفرمان الهمايوني الذي تلقاه. وتقديراً لانتصاراته وجهوده ، عيّنه السلطان سليمان في منصب وزير قبة347 مكافأه له348.

مراسم الاحتفال والصلح مع البندقية

بعد وفاة الصدر الأعظم أياس باشا في الثالث عشر من تموز العام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين ، قام السلطان القانوني بتعيين لطفي باشا في مكانه ، ومن ثم توجه في شهر أيلول نحو بورصة من أجل الصيد ، ولكنه لم يمكث سوى ثمانية أيام ليعود ، وأثناء مروره من مضيق الدردنيل (جاناق قلعة) أمر بتحصين المضيق وفق أساليب الدفاع الحديثة.

وما إن وصل إسطنبول حتى أمر بإقامة حفل ختان كل من الأميرين بيازيد وجيهانغير ، وقد استمرت الاحتفالات التي بدأت في السادس والعشرين من تشرين الثاني من العام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين ، خمسة عشر يوماً متواصلاً ، حيث توجه السلطان القانوني في اليوم الأول إلى آت ميداني ، فاستقبله الوزراء وبقية أعيان الدولة وولاتها وقادتها ، وقدموا له التهاني. كما أقيمت وليمة فاخرة للإنكشارية وجنود الخاص ، كما أقيم عرض ضخم للعامة ، ضم مختلف أنواع الحيوانات كالأسود النمور ، الفهود ، الذئاب ، الطيور الجارحة والزرافات. .

وفي اليوم التالي أقبل قضاة العسكر والدفترداري وبقية أركان الدولة ، ليقدموا بدورهم التهاني والهدايا للسلطان الجالس على عرشه.

كما وصل سفراء كل من فرنسا ، البندقية ، أرشيدوق النمسا فرديناند وملك المجر زابوليا ، وألقوا التحية على السلطان وقدموا له الكثير من الهدايا.

وفي سائر أيام الاحتفال كانت تقام الولائم الضخمة إلى جانب عروض المصارعة والمبارزة والرماية ، والتي كان الشعب يتابعها بشغف كبير ، وكان البهلوانات والمصارعون ولاعبو مسرح الظل والمهرجون يقدمون عروضاً مبهجة للأطفال ، كما نصب اليهود في الميدان تنيناً بسبعة رؤوس.

وقد تنعّم الوزراء والولاة والعلماء والمشايخ بعطايا السلطان وكرمه الذي لا حدود له ، فحصلوا على الخلع وما لا يحصى من الهدايا والنفائس ، وارتوى الأغنياء والفقراء على حد سواء من سبيل السعادة349.

وبالتزامن مع حفلة الختان ، فقد أقام السلطان سليمان القانوني حفل زواج ابنته السلطانة ميهريماه من رستم باشا.

وفي هذه الأثناء كان النزاعات مستمرة مع البندقية منذ حصار كورفو ، وقد تعرضت بعض القلاع على سواحل دالماسيا إلى هجمات من كلا الطرفين ، حيث تناقل الطرفان ملكية قسم منها لعدة مرات ، كما استسلم بعضها الآخر. ولعل الحادثة الأهم هي سيطرة البنادقة على قلعة نوفي كاستل350 ، ونجاح بربروس خير الدين باشا لاحقاً في استعادتها. وكان كل اعتداء من قبل البنادقة يقابله هجوم مضاد وانتقام من قبل الغازي خسروف بيك والي سنجق البوسنة ، ومراد بيك والي سنجق كليس.

وفي الفترة التي كانت فيها الدولة العثمانية تستعد لاستعادة نوفي كاستل ، بدأت حكومة البندقية التباحث حول عقد اتفاقية أو هدنة عامة ، ذلك أنّ تحالفها مع الإمبراطور كان يضر بمصالحها ، ما دفع مجلس الشيوخ للبحث عن سبل التخلص من هذا المأزق. ولمعرفة نوايا السلطان وبالتالي الديوان الهمايوني حول هذا الشأن ، قامت بإرسال أحد عملائها سراً إلى إسطنبول.

ومع حصولها على ردٍّ إيجابي ، فقد أرسلت في نيسان العام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين ، بييترو زين للمثول بين يدي القانوني ، ولكن وفاته في الطريق جعلت هذه المهمة تنتقل إلى توماسو كونتاريني. ولكن كونتاريني الذي يمتلك من الصلاحيات ما يكفي ، رغم أنه حظي بلقاء السلطان ، لكنه إضافة إلى عدم تلقيه معاملة جيدة ، لم يحصل من السلطان على شيء يمكن التعويل عليه. وقد أوضح له الصدر الأعظم لطفي باشا أنّ توقيع اتفاقية يستلزم تمتعه بصلاحيات واسعة ، ونفوذ كافٍ. وطلب منه التوجه إلى البندقية ، والعودة مجدداً في شهر أيلول لحضور حفل ختان الأمراء وزواج السلطانة

ميهريماه.

كانت البندقية مدركة أنّ تحقيق السلام مع السلطان ستكون حركة ذكية في ضوء الوضع السياسي لأوروبا ، وقرار عقد مؤتمر بين ملك فرنسا والإمبراطور ، وكانت تسعى لإبرام الصلح حتى لو تطلب ذلك تقديم العديد من التضحيات. وبناء عليه فقد أرسلت في ربيع العام ألف وخمسمائة وأربعين عضو مجلس الشيوخ لويجي بادورو إلى إسطنبول لمواصلة مباحثات السلام مع السلطان سليمان.

وقد منح المجلس مبعوثه صلاحيات تخوله أثناء المباحثات تقديم عرض بإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل نقض المعاهدة بين الطرفين ، بالإضافة إلى دفع تعويضات للحملات التي قام بها السلطان تصل حتى ثلاثمائة ألف دوقة ، مع شرط عدم التخلي مطلقاً عن قلعتي مونيمفاسيا ونافبليو351. ولكن مجلس العشرة البندقي الذي كان يميل لمنح المبعوث صلاحيات أكبر عند الضرورة ، أعطاه تعليمات سرية تقضي بالتخلي عن القلعتين إن شكّل التمسك بهما عقبة أمام عقد الصلح مع السلطنة352.

ولكن هذه التعليمات السرية أفشيت عن طريق كاتب السفارة الذي أطلع السفير الفرنسي عليها ، والذي قام بدوره بإخبار وزراء الديوان الهمايوني353. وبذلك فقد قام وزراء القانوني خلال المباحثات بممارسة ضغوطات كبيرة على المبعوث أجبرته على تقديم آخر ما بحوزته من تنازلات.

وبعد مفاوضات استمرت لثلاثة أشهر ، أبرمت معاهدة السلام في العشرين من تشرين الأول العام ألف وخمسمائة وأربعين. والتي نصت على تخلي البندقية عن القلعتين سابقتي الذكر بالإضافة إلى قلعتي نادين وأورانا على سواحل دالماسيا ، وأيضاً ترك الجزر التي تمكن بربروس من السيطرة عليها للسلطان وهي سيروس ، بطمس ، أستيبباليا354 ، إيجينا ، نيو ، باروس وأنتيباروس. ودفع تعويض مالي عن الحملات مقداره ثلاثمائة ألف دوقة. ومقابل ذلك تمكنت دولة البندقية من تحقيق حاجتها للسلام والاستقرار ، أما السلطنة فستواصل حملاتها ضد أوروبا والمجر بعد الانقطاع الذي سادها مؤخراً355.

موت زابوليا والاضطرابات في المجر

بالتزامن مع صراع السلطنة مع البندقية ، كانت جملة من الوقائع والتطورات تحصل في المجر ، فقد أشيع عن قيام زابوليا الذي نصبه السلطان القانوني ملكاً على قسم من أراضي المجر بعقد اتفاق مع فرديناند أرشيدوق النمسا في مدينة أورادياً356 ، والتي نصت على عدم قيام زابوليا بالتحالف مع القانوني ضد فرديناند والإمبراطور (شارلكان) ، والتعهد بترك أراضيه بعد وفاته لفرديناند ، بسبب عدم إنجابه لوريث.

وبعد مضي عام واحد على هذا الاتفاق ، قام زابوليا بالزواج من إيزابيلا ابنة ملك بولندا الذي كان يتبع سياسية معادية للهابسبورغيين ، وقد منح جزءاً من قلاع ومدن المجر إلى الملك البولندي كهدية العرس. ما دفع فرديناند- الحانق من انتقال ملكية قسم من الأراضي والقلاع الممنوحة له بحسب الاتفاق السابق ، إلى ملكية طرف آخر- لإرسال مبعوث إلى إسطنبول من أجل الإفشاء عن المعاهدة السرية بين الطرفين ، وذلك في العام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين.

وعلى إثر هذه المعلومات خاطب السلطان سليمان القانوني الصدر الأعظم لطفي باشا بالقول:

«هذان الملكان لا يستحقان التاج الذي يعتلي رأسيهما ، فهما لا يلتزمان بالوعود. . فلا خشية الله ولا شعور الخجل منعهما من نكث المعاهدة التي أقسما على الالتزام بها». وقد أرسل القانوني رسالة تهديد شديدة اللهجة إلى زابوليا. 357 أما زابوليا الذي كان عليه أن يحارب ملك ترانسلفانيا ، ومن جهة أخرى أن يسعى لكسب رضا السلطان مجدداً بكل السبل ، فقد توفي بشكل مفاجئ في ترانسلفانيا في الثاني والعشرين من العام ألف وخمسمائة وأربعين. وقبيل وفاته بعدة أيام تلقى أخباراً من قصره ببودين تعلمه بأنه رزق بمولود ذكر ، وبذلك تخلى عن الالتزام بمعاهدة أورادیا ، وأوصى بأن يتولى ابنه عرش المجر بعد وفاته. ومن أجل الحصول على مساعدة السلطان القانوني فقد أوفد أحد رجاله إلى

إسطنبول.

وبدور ، فقد أرسل فرديناند الذي بلغه خبر موت زابوليا مبعوثاً أخر هو ترانكيلوس إلى إسطنبول على وجه السرعة ، والذي تلقى تعليمات لبذل كل التضحيات من أجل كسب كل من الصدر الأعظم لطفي باشا ، ورستم باشا بالإضافة إلى ترجمان الديوان الهمايوني يونس بيك إلى جانبه. فقد كان فرديناند عازماً على السيطرة على عرش المجر في هذه الفترة المضطربة ، مهما كلفه الثمن. ولم يتورع عن إشاعة بعض التقولات التي تشكك في شرعية الطفل الذي أنجبته إيزابيلا ، والتي زرعت الشكوك في نفوس الجميع.

ومن أجل التحقق من صحة إنجاب الملكة إيزابيلاً ابنا من زابوليا ، فقد قام السلطان القانوني بإرسال أحد رجاله إلى بودين على وجه السرعة ، حيث تبينت صحة نسب الطفل358.

وبناء عليه قبل استقبال الرسول فيربوجي الذي أرسلته الملكة إيزابيلا إلى إسطنبول لدفع الجزية ، وطلب المساعدة بالمقابل ، وذلك في تشرين الأول من العام ألف وخمسمائة وأربعين. وقد منحه القانوني قراراً رسمياً ينص على أنّ أراضي المجر التي تعد ملكاً له بعد أن فتحها بحد سيفه ، والتي تركها حتى الآن تحت حكم زابوليا ستؤول إلى ابنه وذلك مقابل دفع الجزية الواجبة. كما وافق على أن تقوم الملكة الأم بإدارة شؤون البلاد بوصفها نائبة الملك ، لحين بلوغ ابنها السن المناسبة للحكم.

أما فرديناند فقد كان يحاول عن طريق مبعوثيه أن يكسب تأييد رجال الدولة في إسطنبول من جهة ، بالإضافة لتلبيته دعوة بعض النبلاء المجريين الذي مالوا إلى صفه مستغلين فرصة موت زابوليا وما نجم عنها من اضطراب ، ليرسل قواته إلى بودين. وكان ينوي من هذه الحركة السيطرة عليها وما يجاورها قبل أن يتدخل السلطان ويقرر لها نظاماً جديداً ، وبالتالي سيتمكن من الجلوس معه على طاولة المفاوضات لعقد اتفاقية بشروط أفضل من ذي قبل ، وكان قد حصل على تأييد شاركان أيضاً في هذا الشأن.

ومن جهته فقد تمكن مبعوثه الديبلوماسي المخضرم جيروم لاشكي بعد مباحثات طويلة وبفضل طراوة لسانه من إقناع الصدر الأعظم وبقية الوزراء ، وحصل على الموافقة للمثول بين يدي السلطان. ولكنه ما إن دخل حتى وبّخه السلطان بحدة:

«ألم تخبر سيدك فرديناند بأن المجر هي ملك لي ؟ إذاً ما الذي أتى بك إلى هنا ؟»[359] ، وأنهى المقابلة بحيث تمّ إخراجه على الفور من قاعة العرض[360].

وبعد مباحثات بين السلطان سليمان والوزراء استمرت لثلاث ساعات ، تقرر إعلان الحرب على فرديناند. ومن أجل تخليص بودين من الحصار تم إرسال الوزير الثالث محمد باشا برفقة خسروف باشا أمير أمراء روميلي على رأس قوات كبيرة إلى تلك المنطقة.

كانت رغبة نبلاء المجر الموالين لفرديناند ، هي أن يقوم بالسيطرة على بودين بأسرع ما يمكن ، قبل وصول مساعدة من السلطان. ما دفع فرديناند لإرسال جيش قوي إلى المنطقة من أجل هذه الغاية.

وحين وصلت إلى إسطنبول أخبار حصار بودين من قبل هذه القوات ، قام السلطان في بادئ الأمر بإرسال وزيره الثالث حاجي محمد باشا361 ، إلى جانب خسروف باشا أمير أمراء روميلي ، كما قرر أن يسير بنفسه على رأس حملة أخرى إلى المجر.

ولكن الأخبار المؤسفة أخذت تصل من بلاد المجر بعد فترة قصيرة ، حيث كانت قوات فرديناند تشن هجمات على القلاع من جهة ، وتقوم بتحريض الموالين للدولة العثمانية من جهة أخرى. وبالتزامن مع ذلك كان يواصل مباحثاته مع الملكة إيزابيلا ، ويطلب منها أن تترك له بودين مقابل ترانسلفانيا. وقد تمكن النمساويون من الاستيلاء على قلعتي فيسيغراد وفاك 362 التي مكنتا العثمانيين من السيطرة على بودين. كما استطاعوا كسب مسيحيي مدينة سيكشفهيرفار363 إلى جانبهم ، ومن السيطرة على بِست ، وانتقلوا لمحاصرة بودين.

ومن جهة أخرى فإنّ وجهة نظر السلطان القانوني والديوان الهمايوني حول مسألة المجر قد تغيرت بشكل جذري ، فقد أدرك القانوني بأنّ المجر لن تستطيع الحفاظ على استقلالها ضد آل هابسبورغ ، وتتمكن من الدفاع عن نفسها مع المساعدة العثمانية كما في السابق. فقد بات من الواضح أنّ شارلكان الذي يرمي إلى ضم مملكة المجر ، يريد أن يصل بحدود إمبراطوريته جنوباً إلى نهر الدانوب ، وبالتالي سيمتلك إمكانات أكبر للتعرض للأراضي العثمانية في البلقان والهجوم عليها. وإن أصبحت السلطنة العثمانية جارة مباشرة لإمبراطورية هابسبورغ ، فمن الضروري أن تبلغ حدودها ليس نهر الدانوب فحسب ، بل يتوجب أن تمتد على مناطق شمال وغربي بودين.

وإزاء فعاليات فرديناند فقد كان السلطان متمسكاً بوعده المتمثل في الانتظار حتى انتهاء الشتاء ، وحلول الربيع والصيف ليقوم بإنزال أقسى العقوبات فيمن قام بنقض السلام364.

وبناء على هذه القناعات والأوضاع السياسية قام السلطان القانوني بمغادرة إسطنبول في الثالث والعشرين من حزيران برفقة ابنيه الأميرين سليم وبيازيد. أما الصدر الأعظم لطفي باشا فقد تم عزله من منصبه في الخامس من أيار العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، بعد مشادة بينه وبين زوجته السلطانة شاه ، والتي بلغت مسامع السلطان فأثرت عليه كثيراً ، ما دفعه إلى فسخ عقد زواجهما ، وبالتالي عزله من منصبه. ومن ثم كلف هاديم سليمان باشا الذي عُيّن مكانه بالحفاظ على حدود الدولة الشرقية ، لذا تقرر بقاؤه في إسطنبول.

ومع وصول السلطان إلى فيليبة ، تلقى أخباراً بتوجه أسطول إسباني نحو الجزائر ، فأمر بربروس خير الدين باشا بالتوجه إليها على رأس أسطول مكون من ثمانين كادرغة ، من أجل حمايتها. وبعد اجتياز صوفيا وبيروت365 وصلوا إلى نيش. وهناك تم استقبال مبعوثي فلورنسا المحملين بالهدايا الثمينة وسط احتفال رسمي في معسكر الجيش. وبدوره أرسل السلطان رسالة يعبر فيها عن مشاعر الصداقة اتجاه الدوق كوزيمو دي ميدتشي ، وأرفقها بأنفس الهدايا مع الوفد المغادر.

كان جيش القانوني كما هو معتاد يتقدم في انضباط والتزام صارمين. وبحسب ما أورده المؤرخون فإنّ «من يتسبب في إتلاف قشة واحدة ، ينال مقابلها ألف ضربة عصا» ، معبرين بذلك عن العدالة والانضباط الذي كان يسير وفقه الجيش366.

وفي هذه الأثناء كانت القوات التي سبقتهم بقيادة محمد باشا ، قد بلغت بودين وأخذت مواضعها لمواجهة العدو. ولكن قائد الجيش الألماني فون روجيندروف الذي كان معتدّاً بجيشه الضخم الذي يضم ثمانين ألف جندي ، رفض رفع الحصار عن المدينة ، حيث توقف عن ضرب القلعة ، وأمر بحفر الخنادق حول جيشه ، ووضع العربات في المقدمة

ليشكل سوراً من الحديد ، وكانت طوابير جيشه من الجهة الأخرى تستند إلى سفوح الجبل.

وبذلك حوصر الألمان بين القلعة والقوات العثمانية ، وكانت الضربات بين الطرفين تتواصل ليل نهار ، ولأنّ قوات العدو كبيرة العدد ، فقد كان بمقدورها مواجهة حامية القلعة من جهة ، وقوات محمد باشا من الجهة الأخرى. وكان الفرسان المدرعون ينزلون أفواجاً إلى الميدان كل يوم ليصطدموا بالقوات العثمانية ، وفي المساء ينسحبون إلى جوار طوابير فرق المدفعية.

امتنعت القوات العثمانية عن شن هجوم عمومي عليهم ، ذلك أنّ امتلاك العدو لأعداد كبيرة جداً من المدافع والبنادق كان سيسهل عليهم صدّ هذا النوع من الهجوم بنيران كثيفة. ومع كل دفعة من الجرحى الذين يرسلونهم بواسطة السفن ، كانت تصلهم دفعات أخرى من الجنود والذخائر. لذا فإنّ استراتيجية المماطلة التي اتبعها محمد باشا كانت صائبة ، في انتظار وصول قوات السلطان. وقد استمر هذا الوضع لأكثر من شهر ، وبدأت أحوال سكان المدينة تسوء وتزداد معاناتهم من الضيق ، وبات من الواضح استحالة المقاومة أكثر من ذلك367.

وفي هذا الوقت بالتحديد وصلت الأخبار إلى بودين لتبشرهم بأنّ قوات المشاة العثمانية السريعة تجتاز نهري سافا ودرافا ، وأنهم على بعد ثلاثة أو أربعة أيام لا أكثر. وبذلك عم السرور والانشراح القوات العثمانية وحامية القلعة بدل القلق ، وخيمت أجواء احتفالية عليهم جميعاً.

أما في معسكر العدو فقد كان لخبر اقتراب القانوني وقع صادم عليهم ، حيث لفّهم قلق وخوف عظيم. وفي ليلة الرابع والعشرين من تموز العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، ومع حلول الظلام صعدوا متن سفنهم لاجتياز الدانوب إلى الضفة المقابلة. أما محمد باشا الذي كان يراقب كل تحركات العدو ، فحين بلغه أنهم على وشك الهرب ، قام على الفور بتوجيه قواته نحو طوابير الألمان.

وكان لهجوم الأبطال العثمانيين المفاجئ وقع صادم على قوات العدو ، فعمهم اضطراب عظيم ، وغدا قسم منهم نهباً للسيوف حتى قبل أن يغادوا اليابسة ، أما القسم الآخر ، فقد احتشدوا وتكدسوا فوق بعضهم خوفا من الموت على متن السفن التي ابتلعتها مياه الدانوب ، ولم ينجُ منهم سوى القليل ، وقد أصيب قائدهم فون روجيندروف أيضاً في تلك الأثناء ، وفارق الحياة بالقرب من بلدة كوماران.

وفي صبيحة اليوم التالي تجول محمد باشا باكراً في مواقع العدو ، حيث المدافع الضخمة التي تهد القلاع ، الأسلحة والذخائر وما لا يحصى من عربات القتال ، والتي انتقلت كلها إلى خزينة السلطان الذي بلغ مشارف بودين بعد يومين من ذلك. أما من تمّ أسرهم فقد اقتيدوا أفواجاً أفواجا يحملون راياتهم المنكسة ، بالإضافة إلى قلب كل آلاتهم وأعلامهم ، ليصدر الفرمان بقتلهم368.

نصب السلطان سليمان معسكره في المرج الذي كان موقع بودين القديم ، وأرسل هدايا قيمة للملك الصغير ووالدته ، ومن بين الهدايا التي حملها الرقيب علي آغا ثلاث خيول رائعة تزينها سلاسل ذهبية ، ثلاثة قفاطين نفيسة مشغولة بخيوط ذهبية ، سيف وصولجان ذهبيان ، بالإضافة إلى العديد من الخواتم الثمينة ، والسلاسل الذهبية المرصعة باللآلئ والمجوهرات. وحين أفصح علي آغا عن رغبة السلطان في رؤية الملك الصغير ، أظهرت الملكة الأم بعض التردد خشية إصابته بمكروه ، ولكن بناء على نصيحة من القسيس مارتينوجي تقرر تقديم الملك الصغير ستيفان (يسمى أيضاً سيسجسموند) للسلطان. وقد تم استقبال الملك الصغير الذي رافقه في عربته مرضعته إلى جانب حاشيته ، من قبل آغوات الركاب وقادة الفرق العسكرية. وأخبر السلطان مرافقي الملك الصغير بأنه سينصبه على عرش المجر ، ومن ثم أرسل مرضعة الملك وبعضاً من مربيه إلى الحرملك الهُمايوني.

وبينما كان أفراد حاشية الملك جالسين على مائدة الطعام ، بوشر العمل بالخطة الموضوعة مسبقاً ، حيث بدأ الإنكشارية بدخول القلعة بحجة التفرج عليها في مجموعات

خماسية وعشرية ، فقاموا بإغلاق أبواب القلعة ، وأخذ المنادون يتجولون بين الأهالي معلنين وجوب تسليم أسلحتهم ، واستقبال الإنكشارية بالحسنى وأن أرواحهم وأموالهم آمنة ، وبذلك تمت السيطرة على بودين في هدوء قبل أن تغرب الشمس.

وأخذت الرايات التركية ترفرف على قلعة بودين وأبراجها ؛ فمنذ معركة موهاج في العام ألف وخمسمائة وستة وعشرين غدت بودين مركز حكم الملك زابوليا بفضل دعم وتصديق السلطان سليمان القانوني ، كما كانت محط أنظار فرديناند وكل الحكّام المسيحيين. ولكنها الآن انضمت بشكل مباشر إلى الدولة العثمانية وأصبحت واحدة من ولاياتها.

ويورد المؤرخ بيجفي الذي ثمّن عالياً خطة السلطان سليمان القانوني ، على الشكل التالي:

«في الحقيقة إنه تصرف يقتضي بالغ التقدير ، ويستحق أن يتسيّد منصب الصدارة في الفتوحات ، ذلك أنّ السلطان كان باستطاعته الاستيلاء على القلعة بالطريقة التي يشاء ، حيث أنّ العدو لم يكن في وضع يسمح له بالمقاومة على الإطلاق. ورغم ذلك فإنّ استخدام العنف ضدهم وإطلاق النار ، ربما كان سيدفع بالمجريين للرد بعنف مضاد وسط يأسهم ، لتراق دماء كثيرة لا ضرورة لها. ووسط كل هذه الاحتمالات فإن إعلان السلطان عن الأمان على أرواح الناس وأموالهم في هدوء تام ، لهو تصرف راجح عاد بفوائد كثيرة. وكان أعلم الناس بذلك هم أمراء السناجق الحدودية»[369].

ولكي لا تشعر الملكة إيزابيلا بأنها وابنها تعرضا للغبن ، فقد أوضح السلطان سليمان للمقربين من رجالها مطمئناً:

«عليكم أن تعلموا بأنّ فرديناند ملك النمسا لن يسمح لكم بحكم بودين ، وسيلحق بكم الأذى كلما سنحت له الفرصة ، لذا فمن الأنسب أن أمنح الملك الصغير مملكة ترانسلفانيا ونواحيها حتى يكبر ، ليتولى رعاية شؤونها». . كما قدّم لهم الكثير من

الهدايا والعطايا النفيسة.

وبعد مباحثات بين الطرفين وافقت الملكة ورجالها على مطالب السلطان ، وغادروا قلعة بودين في الخامس من أيلول متجهين نحو قلعة ليبوفا370 في ترانسلفانيا371.

وبهذه الطريقة فقد قسّمت المجر إلى ثلاثة أقسام ؛ قسم يتبع للدولة العثمانية بشكل مباشر ، وقسم تحت إدارة فرديناند ، أما القسم الثالث فهو منطقة ترانسلفانيا الخاضعة لحكم الملك الصغير.

وكانت إيالة بودين المتشكلة حديثاً تضم سهول وسط المجر ومنطقة سريم الممتدة بين نهري درافا وسافا ، بالإضافة إلى سنجق سميديريفو الواقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب. وقد عيّن سليمان باشا أمير أمراء الأناضول والمتحدر من المجر والياً عليها ، كما عيّن خير الدين أفندي قاضياً لها. وتم تكليف آخر مبعوثي الملكة إيزابيلا المستشار فيربوجي بتولي شؤون المسيحيين فيها.

وبعد إزالة النقوش والتماثيل عن جدران كنيسة سانت ماري (الأم مريم) أكبر كنائس بودين ، أنشأ فيها محراب ومنبر ليتحول إلى جامع. وقد دخله السلطان مع أركان الدولة في يوم الجمعة ، وبعد الخطبة ورفع الأذان ، أقاموا صلاة الجمعة ، حيث شكر المسلمون وحمدوا الله على نعمه وسط تهلل وحبور ودموع الفرح تنهمر من عيونهم ، وقد ابتهلوا بالدعاء لدوام الدولة372.

وينقل لنا المؤرخ جلال زاده ، واقعة غريبة تصادف حدوثها في ذلك اليوم قائلاً:

«كان السلطان القانوني يهمّ بدخول الجامع لإقامة الصلاة ، وقد احتشد كل أهالي بودين رجالاً ونساءً وأطفالاً من أجل رؤية السلطان ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم مستغربين ، فاستبد بي الفضول وسألت المترجم المرافق لي ، حول الأمر الذي يتحدثون حوله. فأخبرني بأنّهم يتحدثون عن سماعهم طوال عام لهذه الأصوات (صوت الأذان وتلاوة القرآن الكريم) مساءً ، ما دفع بعض القساوسة لترك الكنيسة حينها والتوجه إلى كنائس

أخرى»373.

وبينما كان القانوني في بودين ، أرسل كل من فرديناند وشارلكان مبعوثيهم يعرضون على السلطان دفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف دوقة ، مقابل ترك المجر لهم. وفي حال لم يقبل بهذا التكليف ، فإنّ فرديناند يطالبه بأن يترك الأملاك التي سيطر عليها بعد موت زابوليا تحت حكمه ، متعهداً بدفع جزية سنوية مقدارها أربعون ألف فلورين مقابل الأراضي الشمالية للمجر374.

ورغم أنّ المبعوثين استقبلوا من قبل السلطان ، ولكن العرض الذي تقدموا به لم يؤخذ بعين الاعتبار ، وقد أبلغهم رستم باشا بأسلوب شديد اللهجة بأنه ما لم يقم فرديناند بإعادة الأراضي التي استولى عليها مؤخراً بشكل كامل ، ويتعهد بدفع جزية عن القسم المجري الذي يسيطر عليه النمساويون ، فمن المحال عقد اتفاقية سلام بين الطرفين.

وفي هذه الأثناء وصلت أخبار تفيد بقيام بالاسّا وهو أحد نبلاء المجر بتحريض الناس في ترانسلفانيا للتمرد على الدولة العثمانية ، فتم تكليف فرقة من الفرسان لملاحقته ، بالإضافة إلى تحذير كل أهالي ترانسلفانيا عن طريق الفرمان الهمايوني الذي صدر بهذا الشأن ، حيث ذكرهم بوجوب الولاء للملك الصغير ووالدته الملكة اللذين يتمتعان بحماية السلطان الشخصية ، وبأنهم فيما لو انصاعوا لتحريض فرديناند ، فسيعرضون أنفسهم لبلاء عظيم ، وبأنّ قوات السلطان إضافة لقوات التتار سيكون لها الحق في الدخول إلى بلادهم وتدميرها375.

وبعد أنّ مكث السلطان القانوني ستة وعشرين يوماً في بودين ، انطلق مغادرا نحو إسطنبول في الثاني والعشرين من أيلول ، وبلغها في السابع والعشرين من تشرين الثاني العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، وقد فارقها لمدة خمسة أشهر وسبعة أيام.

عليك أن تطلبها من خير الدين باشا

في الوقت الذي خرج فيه السلطان القانوني على رأس حملة بودين ، أرسل من صوفياً فرماناً إلى بربروس خير الدين باشا يأمره فيه بالتوجه إلى الجزائر لتقديم المساعدة اللازمة لها. ذلك أنه وبالتزامن مع انطلاق السلطان القانوني نحو المجر لإيجاد حل جذري لأوضاعها ، قرر شارلكان اتباع استراتيجية مغايرة هذه المرة بغرض مواجهته ، حيث توجه أسطوله نحو الجزائر في العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، لتنزل قواته على شواطئها.

ورغم أنّ بربروس خير الدين باشا هو أمير أمراء الجزائر ، لكنه كان يتواجد في مركز السلطنة ، وقد أوكل ابنه حسن آغا لينوب عنه في الحكم. وكان القراصنة الأتراك والجزائريون يقومون بكل الأنشطة للتضييق على الإسبان.

لذا فقد قرر شارلكان ، مستغلاً توجه السلطان نحو المجر أن يقوم بالتخلص من هؤلاء القراصنة ، وأن يعوّض ولو نسبياً الخسارة التي تعرض لها في بروزة ، بالإضافة إلى تلقين الجزائر درساً لن تنساه.

فتحرك على رأس أسطول ضخم في خريف العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، كان يضم اثني عشر ألفاً من جنود المشاة ، وما يقارب الألف فارس ، بالإضافة لانضمام أسطولي البابا وفرسان مالطة إليه ، حتى وصل عدد سفن أسطوله بين كبيرة وصغيرة إلى خمسمائة وسبع عشرة سفينة ، وعدد الجنود إلى خمسة وعشرين ألف جندي.

لم يضيع شارلكان وقته على الإطلاق حيث رسا على رأس هذا الأسطول الضخم قبالة سواحل الجزائر ، وأنزل قواته في رأس تامنفوست376 في خليج الجزائر ، وكان من الواضح أنه يريد تحقيق نتيجة حاسمة ليستبق احتمال وصول بربروس.

وكان يظهر برفقة الإمبراطور بعض النساء الإسبانيات ، ومن الوارد أنه كان يخطط لإهدائهن إلى القادة الذين سيقدمون مساهمات فعالة لتحقيق النصر377.

أما الهاديم حسن آغا فلم يكن تحت إمرته من القوات التي سيواجه بها العدو سوى ستمائة فارس تركي ، وبضعة آلاف من الجنود العرب. وحين بلغ شارلكان سواحل الجزائر أرسل إلى حسن آغا الرسالة التالية:

«أنا حاكم إسبانيا ، وكما هو معلوم لك ولأتباعك داخل القصر ، فقد أقبلت نحوكم بما شهدتموه من السفن وما لا يُحصى من الجنود. وسأمهلكم ثلاثة أيام لتخرجوا جميعكم من القلعة مع أموالكم إلى مكان لا يصلكم فيه عقابي. وإلا فسأسيطر على قلعتكم جبراً وقهراً ، وأرديكم جميعاً قتلى بسيوف جنودي»

وحين قرأ حسن آغا رسالة شارلكان أمام قادة جنده ، تقرر إرسال الجواب التالي على رسالته:

«إنّ غيرة الدين تجري في الدماء ، فكيف نسلم الكفار القلعة ؟ كما أنّ هذه القلعة تعود لبربروس خير الدين باشا وعليك أن تطلبها منه حين وصوله»[378].

وإزاء هذا الجواب ثار سخط شارلكان ، وقام بتنظيم جنوده في اليوم التالي وفق التشكيلة الحربية في ثلاثة ألوية ، كان الإسبان يحتلون فيها قوات المقدمة ، يليهم الألمان مع إمبراطورهم ، وفي المؤخرة القوات الإيطالية تحت قيادة كاميلو كولونا إلى جانب فرسان مالطة.

كان طول الطريق المباشر الذي يفصل بين رأس تامنفوست والعاصمة الجزائر يبلغ اثني عشر ميلاً ، وقد اجتازت قوات شارلكان هذه المسافة حتى بلغوا أسوار قلعة الجزائر في الوقت الذي كان حسن آغا يعقد فيه ديوانه ، وكان يلقي على رجاله خطاباً مؤثراً حول عدم تسليم القلعة التي ائتمنهم عليها بربروس إلى ألدّ أعدائه ، وإلا فبأي وجه سيقابلون الباشا بعد وصمة كهذه ؟ وقد أحدثت هذه الكلمات الأثر المرجو ، فتعهد المجاهدون على الموت في سبيل الدين المبين ، وأعلنوا أنهم على أتم الاستعداد لتنفيذ كل ما يطلب منهم عن طيب خاطر.

وأخيرا بلغ المتحالفون المدينة ، حيث تموضع الإسبان فوق الجبل ، والألمان على التلال والسفوح المجاورة ، بينما الإيطاليون نصبوا المتاريس على الشاطئ ، حيث داهمهم في تلك الليلة بالذات حسن آغا على رأس الستمائة فارس التركي وألفين من الفرسان العرب وشنّ عليهم هجوماً رائعاً. وقد صعق العدو الذي أنهكه التعب مما يجري ، حتى أنه عجز عن تبيّن الوضع وتداخلت صفوفه. وبعد أن تمكن المجاهدون من قتل ما يقارب ثلاثة آلاف فارس عادوا إلى داخل القلعة بالسرعة ذاتها.

ألّمت الدهشة بشارلكان الذي قام بحشد جنوده في صباح اليوم التالي ورصهم خلف المتاريس التي نصبوها ، وبدؤوا بإنزال الذخائر والمؤن والمدافع إلى الساحل على وجه السرعة. ولكن مصيبة من نوع آخر كانت تنتظرهم هذه المرة ، فرغم أنّ الرياح كانت هادئة حتى ساعات المساء ، لكنها بدأت تعصف بشكل مفاجئ مع هطول أمطار غزيرة ، وأخذت العاصفة تشتد حتى أنها باتت تهدد سلامة الأسطول والجيش على حد سواء ، وأصبح الجنود الذين نزلوا إلى الساحل دون معاطف أو خيام نهباً للأمطار الغزيرة حتى الصباح.

استبد تعب شديد بالجنود وأعياهم الإرهاق ، فيما كانت الأرض الرطبة تنزلق تحت أقدامهم. وقد أصاب العطب أربع عشر سفينة من سفنهم بما فيها سفينتا الأمير ميلفي وجانتينو دوريا ، بينما اختفت مائة وثلاثون سفينة أخرى.

وعاد حسن آغا لينتهز الفرصة ، وكان قد لاحظ الفوضى والإرهاق الذي ألمّ بصفوف العدو ، فوجه هجومه هذه المرة على طوابير الطليان ، وتمكن من طرد قواتهم المزعزعة إلى الطرف الآخر من الجسر الذي كانوا قد سيطروا عليه في اليوم السابق. ورغم أنّ أعداد القتلى في صفوفهم لم تكن بالقليلة ، لكنهم عادوا للمقاومة بشدة وردوا على الهجوم.

فانسحب حسن آغا مع قواته قليلة العدد نحو القلعة في انتظام كبير ، ليتعقبهم الإيطاليون حتى الأسوار ، وبعد دخول العثمانيين القلعة ، لم ينجُ فرد واحد من القوات الإيطالية التي تعقبتهم ممن وصلت بهم الجرأة حتى تسلق الأسوار بالسلالم التي علقوها ،

فمنهم من فقد حياته بنيران المدافع ، ومنهم من أضحى نهباً لسيوف المدافعين.

أما العاصفة فكانت لا تزال مستمرة ، وقد تمكن ثمانمائة من الأسرى المسلمين من النجاة بعد أن اصطدمت السفن التي تحملهم بالشاطئ ، وكادوا يقضون على كل الجنود المسيحيين الذين يأسرونهم ، ونجحوا في الهرب ودخول القلعة. وبالكاد تمكن القائد الإسباني الشهير إرنان كورتيس379 الذي كان على متن واحدة من هذه السفن ، من النجاة من الخطرين الداهمين اللذان تحالفا ضده وهما ؛ البحر العاصف والعرب. وأما من نجا من السفن الأسطول الصليبي التي ارتطمت بالشاطئ ، فلم ينجحوا في إنزال الذخيرة نتيجة استمرار العاصفة380.

أما شارلكان الذي شعر بندم بالغ لأنه وطئ شواطئ الجزائر ، فقد أمر بذبح الخيول لتعويض نقص الطعام الذي بات يعانيه جيشه. وإزاء خسارة عدد كبير من سفنه ، وتوقف البنادق والمدافع عن العمل بعد البلل الذي أصاب البارود ، وفقدان قسم كبير من المدافع والمؤن والذخائر ، اضطر لتأجيل آماله حول الجزائر إلى ربيع آخر وأمر قواته بالانسحاب.

وستتحول رحلة الوصول إلى سفنهم الراسية في رأس تامنفوست كابوساً آخر ، ذلك أنّ الجداول المائية قد اتسعت حتى أصبحت كالأنهار ، وتحولت الأرض إلى مستنقعات ، وساءت أحوال الطريق إلى درجة بالغة جعلت تقدمهم حافلاً بالصعوبات والمشقات. أما حسن آغا فلم يكن ينوي أن يدعهم وشأنهم ، وكانت هجماته المتلاحقة تزيد من معاناة المنسَحبين ، حيث يتعمد الإغارة عليهم في المعابر والجسور ، ليغدو قسم منهم عرضة للموت بسيوف جنوده ، والقسم الآخر غريقا في مياه النهر. وأخيراً تمكن شارلكان من بلوغ تامنفوست في رحلة استغرقت منه أربعة أيام ، في حين أنها لا تتطلب سوى مسيرة يوم واحد عادة.

وطوال تلك الكيلومترات كانت جثث العدو ترتصف الطريق ، وأما الغنائم التي سيطروا عليها فقد تجاوزت الحساب. وقد تمكن الجنود المسلمون من أسر النساء الألمانيات والإيطاليات والإسبانيات النبيلات ، من دوقات وماركيزات وكونتيسات381.

وقد غادر شارلكان في حالة يرثى لها مع من بقي حياً من جيشه ، على متن السفن القليلة التي تمكنت من النجاة في السادس عشر من كانون الأول العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، وبدأ يمخر العباب في رحلة العودة. ولكن البحر لم يكن قد انتهى من إكرام وفادة هؤلاء الضيوف اللامدعوين ، حيث وقعت عاصفة أخرى دفعت بسفنهم نحو شواطئ مدينة بجاية[382] ، وقد اضطروا للتأرجح على سطح البحر لثلاثة أسابيع ، أجبر فيها جنود قيصر الغرب العظيم على أن يقتاتوا الحشائش والكلاب والقطط ، حتى أنهكم الجوع والعطش.

وهكذا انتهت حملة شارلكان الذي هرب من لقاء السلطان سليمان القانوني ، ومخر عباب البحر أملاً في تحقيق نصر كبير وبطولات عظيمة في الجزائر ، بعد حصار دام شهراً بهزيمة غير مسبوقة. وبعد سلسلة من الكوارث تمكن من الوصول إلى مايوركا ، لكنه لم يتمكن قط من نفض آثار هذه الهزيمة المباغتة عنه[383].

وسيعبر ممثل الحكومة الفرنسية عن فرحته العارمة في الرسالة التي بعث بها للملك فرانسوا ، وهو يتحدث عن شارلكان بالكلمات التالية «لقد أصيب في أعمق أعماق قلبه»[384].

أما بربروس خير الدين باشا فخلال العاصفة التي أهلكت أسطول شارلكان ، كان يرسو في أحد الموانئ ، حيث لم يصب أسطوله بأدنى ضرر. وقد تقاسم الفرحة العارمة بعد وصول أخبار النصر مع أبطال الجزائر من جهة ، ومع السلطان الذي بعث إليه برسالة التبشير من جهة أخرى.

سيفقد رأسه أيضاً

تلقى السلطان سليمان القانوني خبر النصر الذي تحقق في الجزائر خلال طريق عودته من بودين ، فسرّ سروراً عظيماً ، وأنعم على كل من ساهم في تحقيق هذا النصر بالهدايا والمناصب المناسبة ، كما شكر جناب الحق على فضله ، وأقام الولائم للفقراء والمحتاجين ، ومن ثم توجه إلى إدرنة. وانشغل فيها بتسيير شؤون البلاد من جهة ، وبرحلات الصيد التي كان ينظمها من جهة أخرى.

وبسبب مرض والي بودين سليمان باشا المجري ، فقد بعث إلى السلطان يطلب تقاعده لعدم قدرته على مواصلة وظيفته ، فتم قبول طلبه ، وعيّن في منصبه أحد أشهر قادة القوات الحدودية ؛ يحيى باشا أوغلو بالي بيك. كما تم إرسال الأمير محمد إلى ولاية صاروخان ، والأمير سليم إلى قونيا. وقد تلقى الأمير محمد يوم توليه إمارتي الحكم وهما الراية والطبل ، وبعد المكوث عدة أيام في أوسكودار ، انطلق مغادراً لتولي مهام منصبه الجديد ، كما نفذت الإجراءات ذاتها مع الأمير سليم385.

وبالمقابل ومع مغادرة السلطان سليمان بلاد المجر ، بدأت فرقتان من القوات العثمانية بالتوغل في هجماتهما داخل البلاد. الفرقة الأولى التي كانت تحت إمرة والي البوسنة واتخذت وجهتها صوب مورافيا ، لكن فيضان نهر فاه386 أجبرهم على التوقف. أما الفرقة الثانية فقد كانت وجهتها منطقة غيارمات387 معقل أمريك بالاسّا الذي حاول تحريض أهالي ترانسلفانيا على السلطان ، وكان ذلك في نيسان العام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين. فالفرمان الذي أعلنه السلطان بحق بالاسّا كان قاسياً جداً ، والذي حمل وعيداً أيضاً بحق الترانسلفانيين في حال استجابوا لتحريض فرديناند لهم ، حيث سيتعرضون لهجوم مائة ألف من فرسان التتار والأكنجي الذين سيغرقون البلاد في النيران والدماء.

أما فرديناند فلم يسأم من إرسال مبعوثيه إلى السلطان للمطالبة بالمجر. فبعد وفاة زابوليا عاد الكاتب ترانكيلوس إلى إسطنبول بناء على طلب فرديناند ، وقد كلّف بتقديم

عرض لجناب السلطان ينص على منحه جزية سنوية مقدارها خمسون ألف دوقة مقابل تخليه عن المجر ، وفي حال رفضه فسيقوم بدفع مائة ألف دوقة[388].

وقد رأى الوزراء العثمانيون أنّ عرض ترانكيلوس لا يحمل أي أهمية تخوّل صاحبه المثول بين يدي السلطان.

ومقابل محاولة المبعوث الدفاع عن مشروعية مطالب سيده مستنداً إلى المعاهدة السرية التي وقعت سابقاً بين زابوليا وفرديناند ، فقد قام الوزراء العثمانيون بعرض حقوق الفتح ، والتي تنص على أنّ تلك البلاد للسلطان وقد أنعم على زابوليا بحكمها ، ولكن ذلك لا يخوله أن ينقل حكمها لشخص آخر. ومع إصرار المبعوث على موقفه ، نهره الصدر الأعظم هاديم سليمان باشا بحدة مذكراً إياه بعاقبة علاء الدولة قائلاً[389]:

«لو حاول سيدك التمادي أكثر ، فسيفقد رأسه أيضاً»

كما أنّ الوزير الثاني رستم باشا هدده بالقول:

«كان إبراهيم باشا يضغط على فيينا بطرف إصبعه ، أما أنا فأريد تطويقها بكلتا راحتي. وإن كنت لا تستطيع لقاء السلطان ، ولا تنال شرف تقبيل يده ، فلا تضع وزر ذلك سوى على العروض التي جئت بها»[390].

ومن جهة أخرى فإنّ انتقال بودين للإدارة العثمانية بشكل مباشر قد خلق الكثير من ردود الفعل في أوروبا. أما السلطان سليمان الذي اعتبر الأمر فتحاً جديداً لدولته ، فلم يكن هدفه تولي السلطة بشكل مباشر لإحدى الدول التي كانت تحت حمايته سابقاً ، بقدر ما كان يرمي لهزيمة قوات فرديناند وردعها نهائياً عن المدينة. ورغم أنّ ردود الفعل قد ظهرت أكثر ما يمكن داخل حدود الإمبراطورية في أوروبا ، لكن الأمراء البروتستانت أيضاً بدؤوا يعتبرون الدولة العثمانية مصدراً للتهديد.

فقد كان ملوك إسبانيا والنمسا في حالة يرثى لها إزاء التوسع العثماني في الغرب ،

وكانوا يخشون من وقوع الأسوأ ما لم يقوموا باتخاذ التدابير اللازمة في الوقت المناسب. وكانوا يعبرون عن الأمر بالقول:

«في حال لم نقم بردع الأتراك ، فلن يبقوا على أحد منا. والحل الأنسب لذلك هو ألا نمنحهم الراحة»[391].

بالتوافق مع هذه الأفكار بدأ كل من شارلكان وفرديناند بالتواصل مع البابا ، وملوك كل من بولندا ، إسبانيا ، الدانمارك ، السويد ، هولندا ، البندقية ، الفلامينك ، نابولي وأنكونا[392] ، إلى جانب أمراء المقاطعات في بلادهم ، وقد أسفرت الاجتماعات التي قاموا بعقدها عن الاتفاق على تشكيل جيش قوي ، تجمعه فكرة إجلاء العثمانيين عن بودين ، بل وعن بلاد المجر برمتها. وقد حشدوا الجنود والذخائر من كل الشعوب ، ليظهر جيش بالغ الضخامة. بالإضافة إلى تشكيل أسطول قوي يضم كل آلات الحرب وأدواته ، واختير كارا هيرسك قائداً لهذا الجيش.

في العام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين ، انطلق كارا هيرسك على رأس جيشه المكون من ثمانين ألف جندي ، وضرب حصاراً على بِست من عدة جهات. [393]

وما أن بلغت هذه الأخبار مسامع السلطان القانوني حتى أمر بتجهيز الجيش للانطلاق في الحملة. فأمر أمير أمراء روميلي أن يستعد للتوجه صوب صوفيا. كما كلّف كلاً من: والي البوسنة عُلما باشا ، والي سميديريفو محمد بيك ، والي بوزيغا أرسلان بيك ، والي كيوستينديل[394] خضر بيك ، والي كليس مراد بيك ووالي كروسيفاتش (ألاجا حيصار) محمد بيك بالتوجه إلى بِست لتقديم المساعدة لها.

وقد دخل كل هؤلاء الولاة مع قواتهم قلعة بِست في الوقت الذي وصل فيه العدو إلى سهل بِست. أما حامية قلعة بودين والتي يبلغ عددها ثلاثة آلاف إنكشاري ، فقد توجه قسم منهم تحت قيادة قائد الحامية نحو المداخل الدفاعية لبِست. ومع وصول هذه المساعدات ، بلغ تعداد القوات العثمانية في القلعة ثمانية آلاف جندي.

صوب العدو نيران مدافعه نحو القلعة لسبعة أيام بلياليها دون توقف ، حتى نجح في إحداث ثغرات كبيرة في جسم القلعة. ولكن العثمانيين في الداخل كانوا قادرين على

صدّ العدو من خلال التدابير التي قاموا باتخاذها. وأخيراً أعلن العدو الهجومَ العمومي في اليوم السابع ليدخلوا القلعة من خلال الثغرات. ولكن من دخل منهم كانت تنتظره عاقبة وخيمة ، وخاصة من قبل فرق الإنكشارية المكلفة باستقبالهم ، فقد باشروا بحصدهم في لمح البصر ، ولم يتمكن أحد من الداخلين الخروج حياً من القلعة. ما أثار فزعاً ورعباً عظيمين بين صفوف العدو. وقد خمن القائد الحدودي المحنك بالي بيك حالهم هذه ، ولم يكن ينوي منحهم فرصة استجماع قواهم.

وفي اليوم التالي وبينما فرق العدو تستعد لهجوم جديد ، بدأت المدافع العثمانية الكثيفة تزعزعهم مجدداً ، وإزاء ارتفاع عدد القتلى ، انهارت معنويات قوات التحالف ، وبدأت الخلافات بالظهور بين القادة. وبعد العديد من المناقشات والجدال ، تقرر رفع الحصار عن القلعة والانسحاب.

أمّا العثمانيون بدورهم فكانوا يتعقبون كل تحركات العدو بانتباه شديد ، وحين أدركوا أنّ هؤلاء على وشك الانسحاب ، خرجوا من القلعة ليهاجموا مؤخرة قواتهم ، حيث نشب بين الطرفين صراع دموي بالغ العنف. وبينما كان قائدهم كارا هيرسك ينسحب أصابته طلقة مدفع فقد على إثرها حياته. أما الأتراك فقد قتلوا كل من أمسكوا به من جنود العدو الذين كانوا يهربون في حالة يُرثى لها[395].

ومع انهزام الجيش الصليبي الهائل الذي ناهز ثمانين ألف جندي ، والذي كان يرمي طرد العثمانيين من المجر ، أمام ثمانية آلاف جندي عثماني ، وانسحابهم مشتتين في أسوأ حال ، ترسخ الحكم العثماني في بودابست بهذا النصر الساحق.

عندما علم السلطان سليمان القانوني أنّ العدو متجه صوب بودين على رأس جيش ضخم ، أمر ولاته الحدوديين بالتوجه إليها لتقديم العون ، وانتقل بدوره إلى إدرنة. وبينما كان منهمكاً بالتحضير للحملة ، وصلته أبناء النصر ، فقام بتأجيل الحملة إلى الربيع التالي[396].

كان قيام الجيش الصليبي الذي تشكل بمساندة من شارلكان وفرديناند في العام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين بمحاصرة إيالة بودين المتشكلة حديثا ، سبباً في احتدام غضب السلطان سليمان القانوني. فرغم قيام القوات الحدودية بتشتيت هذا الجيش ، وتأجيل الحملة لذلك العام ، فقد كان عازماً على إنزال ضربة قاصمة بالمتحالفين الأوروبيين ، وإظهار قوته اللامحدودة أمام العدو ، ليدفعوا ثمن الاعتداء على أراضي السلطان.

وفي خضم هذه القناعات وصل إلى إسطنبول مبعوثا فرنسا ؛ باولين وبيليسيه ، ليقدما الاحترام بالنيابة عن ملك فرنسا ، ويلتمسا من السلطان العثماني مساعدة أسطول فرانسوا في مواجهة رقيبه الأزلي شارلكان.

فبعد الهزيمة التي تلقاها شارلكان في الجزائر ، توقفت نشاطاته البحرية ، ورغم ذلك لم يكن فرانسوا يبلغ سوية تمكنه من مجاراة قوته البحرية ، وهذا ما جعله بحاجة لوجود قوة السلطان العثماني إلى جانبه. وقد سبق له أن طلب المساعدة سابقاً لمرات كثيرة ، كان السلطان سليمان القانوني يلبيه فيها في الأوقات التي يراها مناسبة. ورغم ذلك فلم يتوانَ عن التصرف بنفاق بسبب من التعصب الديني الذي كان يسود أوروبا. ومع اطلاع السلطان على حقيقة نفاق الملك ، فقد كان يقدم له الدعم الضروري ، معللاً الأمر بالضرورات السياسية التي يتحرك وفقها هو والملك على حد سواء.

وبما أنه كان ينوي شنّ حملة على أوروبا ، فقد وافق على طلب الملك المتزامن مع قراراه ، حيث ستمكنه هذه الخطوة من إضعاف شارلكان من عدة جبهات. وبناء عليه فقد أمر بتجهيز الأسطول من أجل توجهه في الربيع لتقديم العون للأسطول الفرنسي ، كما شدد على تزويد الأسطول العثماني بسفن الكادرغة الضخمة ، وتخصيص المهرة من الجذّافين والعزاب[397] للانضمام للأسطول. وقد كلّف بربروس خير الدين باشا بتجهيز الأسطول

وقيادته أيضاً ، حيث خاطبه بالقول:

«يا خير الدين! لقد عينتك قائد الأسطول المتوجه لتقديم العون للفرنسيين ومحاربة الإسبان. ومهمتك هذه المرة بالغة الأهمية ، ذلك أنه يتوجب عليك أن تتحدى كل الأساطيل في البحر المتوسط ، خلا الأسطول الفرنسي ، وتنتصر عليهم». وبناء عليه بدأت الترسانة بالعمل وبناء سفن الكادرغة الضخمة398.

كان الحملات كلها تنطلق من إسطنبول حتى ذلك الوقت ، ولكن السلطان القانوني قرر إطلاق الحملة هذه المرة من إدرنة. ومن أجل قضاء الشتاء فيها ، غادر السلطان برفقة قواته عاصمته في السابع عشر من تشرين الثاني العام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين ، حيث استقبله أهالي إدرنة لدى وصوله استقبالاً حافلاً ، وكان أعيان المدينة ، وعلماء المدارس ، ورجال الدين وشيوخ التكايا والدراويش على رأس المستقبلين ، مبتهلين بالدعاء من أجل نصرة السلطان ودوام حكمه.

وبعد أن حضر السلطان مجالس الدعاء ، توجه إلى قصره القائم على ضفة نهر تونجا ، فيما تم توزيع حاشيته من الوزراء وقادة الجيش وأركان الدولة ، على أجمل أبنية المدينة. وخلا الأوقات التي كان ينشغل فيها بتسيير شؤون الدولة ، كان يقضي أوقاته في صيد الأسماك والطيور والحيوانات البرية. حتى انقضت خمسة أشهر على إقامته في قصر إدرنة.

وكما هو معتاد دائماً ، كان السلطان سليمان القانوني يأمر قواته بالانطلاق في الحملة مع قدوم عيد النيروز ، ولكنه وعلى خلاف عادته لم يشأ تأخير انطلاق حملته حتى الثاني والعشرين من آذار رغم برودة الطقس. فاستدعى أحمد باشا أمير أمراء روميلي لجمع قوات إيالته ، وأمره الالتحاق بمعسكر الجيش في بلغراد.

وعلى إثر هذا القرار قام أحمد باشا بجمع قواته رغم برودة الطقس ، وبدأ المسير. وفي هذه الأثناء أعلن بربروس خير الدين باشا بأنه أتمّ كل استعداداته ، وانتظر أوامر

السلطان ودعاءه لهم. ومع وصول أوامر التحرك ، بدأ بالإبحار نحو المياه الفرنسية.

في الثالث والعشرين من نيسان المصادف ليوم الإثنين من العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين ، انطلق السلطان سليمان القانوني على رأس جيشه مغادراً إدرنة. وكان يوماً غير مسبوق في تاريخ المدينة ، حيث احتشد الناس على جانبي الطريق ، وقد اتخذ الديبلوماسيون الأجانب القادمون من إسطنبول الأماكن المخصصة لهم ، وكانوا يراقبون احتفال العبور الرسمي بانفعال بالغ ، ولكن في صمت مطبق بالمقابل ، وكأن أنفاسهم قد حبست إزاء هذا العبور الذي تواصل لساعات فيما القوات العثمانية تختال وسط أبهة وعظمة لا مثيل لها ، ما يفسر سبب لقب العظيم الذي أسبغه الغرب على السلطان القانوني.

وقد كلّف السقاة بتوزيع المياه على قوات المقدمة من خلال القرب المليئة التي كانوا ينقلونها. حيث تقود هذه القوات سبع مجموعات ثلاثمائوية من سلاسل بغال الحمل ، وكانت هذه الحيوانات التي وصل مجموعها إلى ألف ومائة دابة تحمل كنوز السلطان وخزينته.

يليهم تسعمائة من فرسان الخاصة بأزيائهم الرائعة ، يسيرون في مائة صف متتابع يضم كل منها تسعة فرسان.

ومن ثم عبر بهم خمسة آلاف وأربعمائة جمل يسيرون أسداساً في مائة صف متتابع ، وكانوا يحملون قسماً من مؤن الجيش وذخيرته.

يليهم فرقة الذخيرة المكونة من ألف جندي.

فرقة الألغام وتضم خمسمائة جندي.

فرقة المدفعية وتضم ثمانمائة جندي.

فرقة سائقي عربات المدافع المكونة من أربعمائة جندي برفقة آغواتهم.

يعقبهم أركان القصر ؛ الكاهيات ، الكتبة ، آغوات المؤن ، الخزندار باشي (رئيس الخزينة) ، وكابي آغاسي (آغا الباب).

يليهم الفرسان الذي انقسموا لجناحين ؛ في الجناح الأيمن ألفان من السيباهي برایاتهم الحمراء ، خمسمائة من فرقة العلوفة برایاتهم الخضراء إلى جانب خمسمائة من فرقة الغرباء برایاتهم البيضاء399.

أما في الجناح الأيسر فسار ألفا سلحدار برایاتهم الصفراء ، خمسمائة علوفجي برایاتهم البيضاء والخضراء المخططة ، وخمسمائة من فرقة الغرباء برایاتهم الحمراء والبيضاء المخططة.

وكان يتعقبهم أركان الديوان ، النيشانجي باشي ، قضاة العسكر ، وأمامهم يسير الوزراء الأربعة محاطين برایاتهم الرباعية وضباطهم وعبيدهم.

وكان يليهم فرقة صيد السلطان وهم مربو الطيور الجارحة بما فيها الصقور والشاهين ، القناصون ، مربو الكلاب السلوقي وكلاب الصامصون400 ، المتفرقون ، الطباخون وذواقو الطعام ، والعاملون في الإسطبل العامر.

ومن ثم فرسان روميلي ، الأناضول ، قرمان ، الكورد ، العجم والعرب ، تغطي جيادهم السروج والألجمة المزينة بالفضة بحواشيها الموشاة بخيوط ذهبية ، يتقدمهم أمير الإسطبل الأول والثاني مع وكلائهم وكتَبَتهم.

بالإضافة إلى ثلاثمائة فارس من الكابجي باشي (حراس أبواب القصر) ، يتقدمون اثني عشر ألفا من أفضل فرق الجيش وهم الإنكشارية المسلحين بالسيوف والرماح والبنادق الطويلة ، حيث ثلاث من رايات التوغ تتقدم أعلامهم الحمراء. وكان ظهور أربعة عشر من حملة الأعلام يرفعون الأعلام السبعة الذهبية المخططة ورايات التوغ السبع ، دلالة على اقتراب السلطان ليبلغ الانفعال أقصى ذراه.

ومع عبور مائتي عازف من فرقة الميهتار ترافقهم أصوات المارشات الداوية ، بدأت رغبة الجهاد في القلوب تنتعش بصورة مفاجئة ، وكان الجميع صغاراً وكباراً يشعرون بأنفسهم يحاربون في ميادين القتال ، حيث كان مائة من النقّارة بآلاتهم المعلقة إلى أعناقهم بسلاسل ذهبية ، ومائة من الطبّالين ، يضفون أجواء رائعة من الحماسة الحربية على الركب والحشود.

وخارج الدائرة التي كانت تشكلها قوات العُسر401 حول السلطان ، كان هناك مائة وخمسون شاويشاً يسيرون تحت قيادة شاويش باشي ، يحملون العصي المصنوعة من الفضة والتي تزينها سلاسل فضية قصيرة ، وكانت الأصوات التي تصدرها حين تهتز ممتزجة بأصواتهم الهاتفة «يعيش مولاي السلطان» تضفي بهجة فريدة على الموكب. .

وضمن صفوف العُسر كان سبعون من السعاة (حملة البريد) ، يرفلون وسط أثوابهم المصنوعة من أفخر أنواع الأقمشة ، تزين رؤوسهم قلنسوات مذهبة ، ويحملون الرماح الذهبية.

أما السلطان فقط كان يرتدي ثياباً غاية في البساطة ، ويتهادى على حصانه بأناة ووقار فيما هو يتقدم ، وبحسب ما وصفه المؤرخون «كان كالشمس التي تتلألأ خلف غيوم رقيقة ، متوارياً خلف عمائم العُسر المتموجة»402.

وسط كل هذه الأبهة انطلق السلطان القانوني على رأس جيشه في حملة جديدة. ومع قطع مسافة محددة في كل يوم ، تمكن من الوصول إلى بلغراد في الرابع من حزيران العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين ، وكان أحمد باشا أمير أمراء روميلي قد سبقه إلى هناك ، كما وصل جنود أمير أمراء الأناضول إبراهيم باشا على رأس قوات الأناضول لينضم إلى الجيش.

كان نهر سافا في هذا الوقت من السنة غزير المياه كبحر متدفق ، وقد تمكن العمال من بناء جسر متين فوق مياه هذا النهر ، حيث عبره الجيش في الثاني عشر من حزيران ليطأ جزيرة سريم ، ورغم أنّ قلعة فالبوفو الواقعة شمال الجزيرة قد تمّ فتحها سابقاً ، لكنها وقعت بيد العدو فيما بعد. وقد كُلّف والي البوسنة خسروف باشا باستعادتها ، ومن ثم انتقلت هذه المهمة إلى أمير أمراء روميلي أحمد باشا.

وبسبب امتلاء خنادق القلعة بالمياه ، فقد واجه جنود روميلي مشقة عظيمة ، بالإضافة إلى أنّ العدو كان يصوب نحوهم نيران مدافعه ليل نهار دون توقف. ورغم ذلك تمكنت نيران المدافع العثمانية من تخريم أسوار القلعة ، وحين شاهد المدافعون الاستعدادات للهجوم العمومي ، قاموا بتسليم القلعة مفضلين إنقاذ أرواحهم ، وكان ذلك في الثاني والعشرين من حزيران العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين. وبعد السيطرة على هذه القلعة ، تم فتح العديد من القلاع الصغيرة المجاورة لها403.

وقد استقبل السلطان قائد حامية القلعة بينما كان معسكره مقيما في أوسييك ، وأنعم عليه بزعامت جوار بودين ، لإظهاره الولاء والطاعة. كما ترك حامية في قلعة فالبوفو وعين فيها قاضياً.

أما والي سنجق أوسييك مراد بيك ووالي سنجق موهاج قاسم بيك فقد أنيطت

بهما مهمة استعادة قلعة بيتش[404] التي كانت تتبع للعثمانيين فيما مضى. كانت بيتش مدينة قديمة قلعتها حصينة ، تحيط بها جنان من الأزهار والأشجار الوارفة من كل صنف ونوع ، وكل زاوية فيها تنافس قطعة من الجنان. وحين علم أهلها وحاميتها بأنّ الجيش العثماني يسير نحوهم ، أدركوا أنهم لا قِبل لهم على صدهم ، فسلموا القلعة دون قتال. وقد أرسلت بشرى الفتح إلى السلطان على الفور.

أما حامية قلعة سيكلوس فقد رفضوا عروض تسليم القلعة دون قتال ، والتي كانت حصينة ومنيعة إلى درجة عالية. وإزاء ذلك تقرر أن يخيم الجيش حول القلعة ويفرض عليها الحصار ، بينما حامية القلعة كانت تمطر العثمانيين بوابل غزير من نيران مدافعها. ما أثار غضب السلطان وأمر بأن يتم فتحها على وجه السرعة. وعلى إثر هذه الأوامر قام العثمانيون بنصب المدافع في مواقع مناسبة ، وبدؤوا بتصويب نيرانهم نحو القلعة ، وبعد خمسة إلى ستة أيام فتحت ثغرات في جدران القلعة الخارجية ، مهدت للقيام بهجوم في الخامس من تموز. فتقدمت قوات الأناضول تحت غطاء من نيران المدافع العثمانية ودخلوا القلعة ، وشنوا هجوماً ضارياً على العدو بالسيوف والسهام والرماح وتمكنوا من السيطرة على القسم الخارجي للحصن.

ومن ثم بدؤوا بإدخال المدافع ووجهوها نحو القلعة الداخلية ، وبعد أن قاوم أهالي القلعة لفترة أخرى ، طلبوا الأمان مقابل تسليم القلعة في الثامن من تموز ، حيث أخذت الرايات العثمانية ترفرف على أبراجها ، وعلت أصوات الأذان ، وعزف الميهتار المارشات العسكرية ، لتنضم القلعة بذلك إلى الأملاك العثمانية.[405]

دخل السلطان القلعة وتجول فيها برفقة أركان دولته ، وكافأ من ساهم في السيطرة عليها بالخلع والعطايا ، فقاموا بتقبيل يد السلطان ، وقد انضمت القلعة بذلك إلى سنجق موهاج.

وبعد أن قام الجيش بفتح قلعة سيكلوس ، أخذت طلائعه بالتحرك نحو بودين. حيث تم الاستيلاء على كل القلاع الواقعة على الطريق الواحدة تلو الأخرى ، إلى أن بلغ

الجيش بودين في الثالث والعشرين من تموز.

وبعد أخذ قسط من الراحة لبضعة أيام في المدينة ، انطلقت قوات الجيش شمالاً ، واضعة نصب أعينها قلعة إزترغوم.

فتح إزترغوم (1543)

كانت إزترغوم إحدى المدن التاريخية المقدسة بالنسبة للمجريين ، والمركز الديني للبلاد حيث يقيم فيها رئيس أساقفة الكاثوليك.

وقد بنيت على التلة المقابلة للموقع الذي يلتقي فيه نهرا الدانوب وغران ، وكانت القلعة تضم حصناً داخلياً منيعاً ، تحيط به الكثير من الكنائس المرتفعة البناء ، والتي كانت عمارتها المذهلة تسحر الأبصار. كانت نوافذها مزينة بزخارف مذهبة ، أما الأرضيات فمغطاة بالمرمر. وبسبب تموضع القلعة في مكان غاية في الارتفاع ، كانت احتياجاتها من المياه تؤمن بواسطة النواعير التي فوق نهر الدانوب. ورغم أنّ العثمانيين تمكنوا من السيطرة عليها قبلاً ، لكنهم خسروها لاحقاً. وكان قاطنو القلعة من غير المسلمين يلحقون الكثير من الأذى بالمسلمين المقيمين في تلك الأرجاء.

وفي الثامن والعشرين من تموز وإثر رفض عرض التسليم ، بدأ الجيش العثماني في اليوم التالي بمحاصرة القلعة من خلال أسطوله الحربي في نهر الدانوب ، وقواته البرية التي بدأت تأخذ مواقع الحصار.

وإزاء عدم كفاية التدابير المتخذة ومقاومة المدافعين الشديدة ، نصبت المدافع الكبيرة على السفن قبالة المواقع الضرورية ، ووقعت القلعة تحت وابل كثيف من نيران المدافع ، وبالمقابل كان العدو المتخندق في قلعته العالية ، يطلق نيران المدافع التي تنهال كالصواعق على المحاصِرين. لذا كان جنود الإنكشارية يقيمون المتاريس حول القلعة لتفادي الأضرار قدر الإمكان. وكان الوزراء والقادة يحاولون دعم الجبهات الضعيفة ، وحفر الخنادق من عدة جوانب ، للاحتماء بها من أجل الاقتراب من أسوار القلعة.

في الرابع من آب تقدم الأسطول لمسافة أقرب ، ما مكن مدافع الأسطول ومدافع القوات البرية من إمطار القلعة بنيرانها ليل نهار دون توقف ، حتى غدت أشبه بسجن على

قاطنيها.

وفي السادس من آب الموافق ليوم الاثنين أُعلن عن شنّ هجوم عمومي على القلعة ، حيث أخذ المجاهدون مواقعهم أمام الثغرات التي فتحت في جدران القلعة حتى أنّ قسماً منهم بدأ بتسلقها ، وتمكن من الدخول. فحدثت اشتباكات عنيفة جداً بين الطرفين ، ورغم كل تلك الجهود لم تسقط القلعة. وقد استشهد قسم من جيش المسلمين بنيران البنادق والمدافع ، وقسم آخر نتيجة الاشتباكات مع المدافعين. ومن بين الشهداء جندي سنان أحد أمراء الأناضول ، ومحمد بيك أحد قادة الأسطول من أمراء روميلي.

وقد تمكن محاربو الجيش العثماني ممن استطاعوا دخول القلعة قبيل استشهادهم من قتل أعداد كبيرة من المدافعين ، وبذلك كانت الخسائر بين صفوفهم بالغة الحجم. وبدا من الواضح أنهم غير قادرين على التصدي لهجوم عمومي آخر ، لذا حاولوا الضغط بشدة على قادتهم ، وهم يوضحون لهم:

«لن نستطيع حل المسألة بالعناد. ولن يفيد الندم بعد فوات الأوان. فما من عاقل سيصرّ على التصدي لهذا الجيش الجرار»

وهكذا فقد أرسلوا مفتاح القلعة في العاشر من آب العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين مقابل الأمان ، فعفى عنهم السلطان بدوره. وبذلك انضمت إزترغوم لأراضي السلطنة حيث رُفعت فوق أبراجها الرايات العثمانية دون تأخر406.

ووصف البعض من القادة ورجال الدولة ممن دخلوا القلعة ، الكنائس الكثيرة داخلها والمرصوفة بالمرمر النقي. أما الكنيسة الرائعة التي تتوسط المدينة ، فقد تمّ تحويلها إلى جامع وأضيف إليها منبر ومحراب.

وفي يوم الجمعة الذي تلا الفتح دخل السلطان برفقة جميع أركان دولته وقادته على ظهور جيادهم ، وتجولوا في القلعة والمدينة ، كما تجولوا في قصرها الرائع. ومع حلول موعد الصلاة توجهوا إلى الجامع وأقاموا صلاة الجمعة بداخله ، وابتهلوا بالدعاء للسلطان

لدوام نصره ومجده. وقد عين السلطان في المدينة قاضياً ، وقائداً لحامية القلعة ، وفرقة مدفعية وما يلزمها من ذخائر ومدافع ، كما أمر بإعادة إعمار المواضع التي تهدمت من القلعة[407].

ومع فتح قلعة إزترغوم ، تم تأسيس سنجق إزترغوم أيضاً ، وهو عبارة عن قطعة أرض صغيرة على الضفة اليمنى لنهر الدانوب. وبعد بناء حصن شتوروفو[408] توسعت حدود سنجق إزترغوم شمالاً.

فتح سيكشفهيرفار (إيستوني بلغراد)

بعد مدينة إزترغوم كان الهدف هو مدينة سيكشفهيرفار المركز الحكومي السابق للمجر ، والتي تحمل قيمة معنوية عالية ، حيث كانت تضم رفات العديد من ملوك المجر الذين كانوا يدفنون في مقبرتها ، بينما تتم مراسم اعتلاء الملك الجديد للعرش في هذه المدينة أيضاً. وهذا ما جعل المجريين يغلقونها أمام الغرباء ، ولكن القانوني كان قد عقد العزم على امتلاكها.

بعد أن انطلق الجيش من تاتا409 وصل في العشرين من آب العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين إلى سهل سيكشفهيرفار ، حيث نصبت خيمة السلطان على تلة مرتفعة تمكنه من رؤية حصن المدينة. أما الجيش فقد خيّم قسم في السهل ، والقسم الآخر على سفوح الجبل.

كانت قلعة سيكشفهيرفار قلعة قديمة محصنة ، تحيط بها البحيرات من الجهات الأربع وتقع في سهل واسع. تتوسطها كنيسة عظيمة البناء. وكانت أبراج الحصن الداخلي للقلعة غاية في الارتفاع ، أما الحصن الخارجي فكان ضخماً حتى يبدو كمدينة واسعة. وكانت ضواحي القلعة أشبه بمدينة كبيرة. كما كانت تضم حامية كبيرة العدد ، وكانت معنويات أفرادها عالية ذلك أنهم لم يشهدوا حتى ذلك التاريخ احتلالاً من قبل. فحصانة القلعة وقوتها ومدافعها بعيدة المدى كانت تزيد من اعتدادهم. وهذا ما جعلهم يرفضون عروض التسليم دون تردد ، متعهدين بمحاربة العثمانيين ومنع أي غريب من دخول القلعة. وما إن وصلت القوات العثمانية واستقرت حول القلعة ، حتى بدؤوا يمطرونهم بنيران مدافعهم بعيدة المدى.

وبناء على هذا الوضع ، قام السلطان القانوني بإرسال إبراهيم باشا أمير أمراء الأناضول إلى بودين لإحضار المدافع ذات المدى والمواصفات المناسبة. ومن ثم أمر الوزير الثالث محمد باشا وآغا الإنكشارية بالتمركز قبالة إحدى ضواحي المدينة ، والوزير الرابع

خسروف باشا وأمير أمراء روميلي أحمد باشا بالانتقال إلى الجانب الآخر. ومن أجل الجنود الإنكشاريين الذين سيحيطون بالقلعة ، فقد تم حفر أنفاق وبناء متاريس قريبة جداً من ضواحيها ليلاً. وبذلك بدأت الخطوات العملية لفتح القلعة410.

كان أحد جدران القلعة مبنياً من الطوب الخام ، وكانت معظم الذخائر مخزنة في الجانب الآخر من الجدار ، ما يسهل على العدو الدفاع عن تلك المنطقة. لذا فاقتراب جنود المسلمين من القلعة كان صعباً دون السيطرة على هذا الجدار.

ومن أجل رفع معنويات الجنود ، قام القادة المحنكون بضمهم في مجموعات ، ومع عزف الميهتار ، وارتفاع أصوات التكبير ، تليت أدعية النصر. وبالمقابل فإنّ ضوضاء صاخبة كانت تصل من جهة العدو أيضاً ، وقد وقع صدام عنيف جداً بين الطرفين ، حيث سقط عدد كبير من الشهداء.

وكان لوصول المدافع تأثير إيجابي على معنويات المحاصِرين ، وخاصة أنّ أحد المدافع المخصصة لضرب هذا الحصن كان يستطيع رمي قذائف يبلغ وزنها خمسين رطلاً ، وطول سبطانته ثمانية عشر شبراً. وقد صممه المدفعي أسد الله ليتصف بقوة المدافع ذات القذائف الكبيرة وسرعة المدافع الصغيرة في آن.

وعلى الفور تم توزيع المدافع على مواقعها المعدة مسبقاً ، ووجهت نحو أهدافها ، وفي صبيحة اليوم التالي بدأت بإطلاق قذائفها ترافقها الأدعية بالنصر. وبعد عدة أيام من الضرب ، بدأت الثغور تظهر في جدران القلعة.

وفي الثامن والعشرين من آب قام أحمد باشا أمير أمراء روميلي بشن هجوم عمومي عبر الثغرات التي فتحت على جبهته. فبعد أن تمكنت قوات المدفعية من فتح ثغرة في الجدار ، لم يتمهل الجنود العثمانيون ، بل بادروا على الفور بالانتقال للهجوم. ولكن وبسبب ضيق الفتحة لم يكونوا قادرين على الدخول سوى فرادى أو مثنى. ولكن الهجوم الذي لم يسفر عن إرهاب العدو ، أدى لاستشهاد الكثير من الجنود ، وبالتالي تم إيقافه ،

وانشغل المجاهدون بدفن رفاقهم.

وفي الثاني من أيلول أُعلن عن تنفيذ هجوم عمومي آخر على القلعة ، وانتشرت بين الجيش مقولة أنه «سيتم سلب القلعة في الغد» حتى أن العديد منهم لم يتمكن من النوم حتى حلول الصباح ، حيث كان الضباب الكثيف يحجب الرؤية ، الأمر الذي كان في صالح المهاجمين ، ذلك أنّ جنود العدو لم يتمكنوا من رؤيتهم وهم يقتربون من الثغور. وبعد أن توقفت المدافع العثمانية عن الإطلاق ، هتف المشاة «الله الله» وبدؤوا الدخول من الثغرات ، وسارعوا بمهاجمة العدو.

وفي تلك الأثناء كان القانوني من موقعه المشرف على القلعة ، قادراً على رؤية تفاصيل المعركة بشكل واضح. حيث كان يراقب جنود المسلمين وهم يهاجمون مضحين بأرواحهم ، ويدعو الله ليجعل النصر المبين من نصيبهم.

كما ذكرنا مسبقاً ، فقد كانت الضواحي وما فيها من المنازل المحيطة بالسور أشبه بمدينة ، أحياؤها واسعة وموقع السوق فيها بالغ الاتساع ، وكان يفصلها عن القلعة الداخلية خندق مائي أقيم فوقه جسر ضيق. وبينما كان العدو يهرب نحو القسم الداخلي ، كان الجنود العثمانيون يلاحقونهم حتى هذا الجسر ، ويقتلون من يمسكون به. ومع تراكم جثث قتلى العدو فوق الجسر ، لم يعد يصلح للعبور. حتى أنّ الكثير منهم اضطر للقفز في الخندق ليغرق في مياهه ، ولم يتمكن سوى القليل منهم من دخول القلعة.

ومع رفع الجنود العثمانيين لراياتهم فوق أبراج الحصن ، بدؤوا دخول المنازل والإقامة فيها. ذلك أنّ أبنيتها الفخمة قد جعلت منه مدينة قلّ نظيرها ؛ بكنائسها العالية الضخمة ، ونقوشها النافرة ، وتماثيلها الرائعة ، وأرضياتها المرصوفة بالمرمر المصقول. حتى أنّ الوزراء بدورهم جاؤوا للإقامة فيها.

وفي الثالث من أيلول أرسل قادة القلعة رجالهم لطلب الأمان من السلطان ، الذي وافق على منحهم الأمان. وبذلك قام حاكم القلعة وقادة جيشها ، وزعماؤها الدينيون

إلى جانب أعيانها بتسليم مفاتيح القلعة للسلطان411.

وعلى الفور قامت القوات العثمانية التي دخلت المدينة برفع راياتهم فوق أبراجها. وأزيلت النواقيس عن برج الناقوس ليرفع الأذان. ومع عزف الميهتار لمارشات النصر ، عمت الاحتفالات كافة الأرجاء.

كانت المدينة تملك العديد من القصور الفخمة والكنائس الرائعة الشاهقة ، والتي كان الكثير منها يضم رفات ملوك المجر السابقين. كما كانت تماثيل النصر المرمرية المنصوبة في كل زاوية من زوايا المدينة ، دليلاً على مكانتها ومجدها. وكيفما التفت كنت ترى شواهد قبور الملوك ، الأقواس المهدمة ، والقناطر المنهارة ، كما كانت التوابيت المصنوعة من حجارة ضخمة على شكل صناديق موزعة في الكثير من أرجائها ، وكان قسم منها قد صنع بعناية فائقة ، تزين رؤوس هياكلها اليواقيت ، وقد علقت على صدورها صلبان ذهبية وفضية ، ما يدل على أنها كانت تخص القديسين. وكان العديد منهم يتقلد السيف أو الخنجر ، وتزين أصابعه خواتم ذهبية412.

وقد تركت لهم الكنيسة التي تضم رفات ملوكهم ، وتم تحويل كنيسة أخرى تشبهها في وسط القلعة إلى جامع ، حيث ذكر اسم السلطان في خطبة الجمعة ، ومن ثم تمت كتابة الظفر نامات التي أرسلت بواسطة السعاة إلى كل أرجاء البلاد.

وقد تمكن السلطان سليمان القانوني من فتح كل قلاع المنطقة التي تشكل تهديداً للوجود العثماني في بودين ، دون أن تواجهه أي قوة يمكن أن تشكل تهديداً ، ليوطد بذلك استقرار المنطقة وأمنها.

كما أنّ قلعتي إزتروغوم وسيكشفهيرفار اللتين بالإضافة لموقعهما الجيوبوليتكي المهم ، كانتا تحتلان مكانة دينية بالغة الأهمية لدى المسيحيين. وكانت تلك آخر حملات السلطان القانوني العسكرية على الغرب المسيحي.

فحتى الحملة الثالثة عشرة والأخيرة على سيكتوار ، لم يقم القانوني بشن أي حرب

على أوروبا طوال ثلاث وعشرين سنة. ولم يكتف خلال هذه الحملة الطويلة والظافرة أن يثبت مدى عظمته وقدرته اللامحدودة للدول الغربية ، بل أجبرها من خلال فتح أهم قلاعها على طلب الصلح أيضاً.

كما أرسل الظفر نامات إلى كل ولاته وأمرائه ، بالإضافة لملك فرنسا ، ودوق البندقية. ومن هناك توجه نحو بودين ومن ثم وصل إلى بلغراد عن طريق أورواديا في الواحد والعشرين من أيلول.

وبعد أن أرسل الجنود إلى ثكناتهم سار برفقة جنود الكابى كولو نحو إسطنبول. ولكنه تعرض لصدمة شديدة وحزن عظيم إثر تلقيه خبر وفاة ابنه الذي يحبه كثيراً ؛ الأمير محمد في مانيسا.

حملة بربروس على نيس (1543)413

كان السلطان القانوني الذي يقود حملته على أوروبا ، قد وعد مبعوثي فرانسوا ملك فرنسا بتقديم العون له ، حيث كلف بربروس بهذه المهمة.

وحال عودة المبعوث بيليسيه بعد أن أخذ وعدا من القانوني بالمساعدة ، ألّم خوف عظيم بشارلكان الذي بدأ جهودا محمومة من أجل الدخول في حلف مع إنكلترا ضد فرنسا. أما القانوني فقد أرسل مبعوثيه إلى جمهورية البندقية يطالبها بالتحالف مع فرنسا. ولكن البنادقة أوضحوا بأنهم سيظلون على الحياد ، رافضين طلب السلطان بشكل لائق وموضحين الأعذار التي تبرر موقفهم. وكانت الغاية الحقيقية للقانوني تحييد البندقية ومنع تحالفها مع الإمبراطور كما حدث في معركة بروزة ، وقد نجح في مسعاه.

أما بربروس خير الدين باشا فقد تمكن من إنهاء كل استعداداته في وقت قصير بعد بذل الكثير من جهد والاهتمام. كما أنّ تحسن الطقس كان عاملاً مساعداً للخروج في حملة بحرية. وقد أنهت الترسانة العثمانية صنع السفن الحربية المطلوبة التي غطت سطح الخليج ، متسلحة بالمدافع والذخائر والقوات اللازمة.

وفي ربيع العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين توجه الأسطول العثماني العظيم المكون من مائة وعشر سفن كادرغة ، وأربع سفن مانافا414 عملاقة بقيادة بربروس خير الدين باشا نحو مياه المتوسط. وكان المبعوث الفرنسي باولين أيضاً على متن سفينة الأميرال العثماني. ومع وصولهم قبالة سواحل ريدجو القريبة من نابولي ، انضم إليهم أسطول الجزائر المكون من واحد وأربعين سفينة. وبعد سيطرة الأسطول العثماني على ريدجو وبعض البلدات الساحلية المجاورة ، واصل تقدمه في أبهة وجلال عظيمين ليرسو في أوستيا أنتيكا وهو ميناء روما. وقد سيطرت الدهشة والهلع على الأهالي الذين باتوا يترقبون مصيرهم في خشية ، حتى أنّ قوات الأمن كانت تتجول ليلاً حاملة الفوانيس لمنع المدنيين في روما من التسلل وترك المدينة تحت غطاء الظلام415.

ولم تهدأ الأوضاع حتى أوضح الأسطول بأنه لا يضمر نوايا عدائية ، ولكنه رسا بغرض تأمين ما يحتاجه من مؤن وقدم لهم الضمانات الكافية. وكان قيامهم بدفع ثمن كل المواد التي قاموا بشرائها من المدن الساحلية ، خير دليل على حسن أخلاق الجنود العثمانيين[416] ، وإثباتاً دامغاً على زيف الادعاءات المتداولة عنهم حتى ذلك الوقت.

تحرك الأسطول من أوستيا أنتيا ليبلغ شواطئ مرسيليا في الرابع والعشرين من حزيران العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين ، حيث استقبل قائد الأسطول الفرنسي فرانسوا دو بوربون نظيره العثماني وسط مراسم رسمية ، وقدمت السفن الخمسون الفرنسية التحية بإطلاق المدافع في أجواء احتفالية تشي بالنصر ، لترد السفن العثمانية التحية المدفعية بدورها. كان الأميرال الفرنسي شاباً في الثالثة والعشرين من العمر ، وحين التقاه بربروس ليستوضح منه عن خطته الحربية ، أدرك من خلال الأجوبة التي تلقاها أنّ الفرنسيين الذين طلبوا مساعدة الأسطول العثماني لم يضعوا أسس أي خطط حربية بعد. ورغم امتعاض بربروس من هذا الأمر ، لكنه لم يجاهر به.

كان قيام السلطان سليمان القانوني بإرسال الأميرال بربروس خير الدين باشا الذي راجت شهرته في كل أرجاء أوروبا على رأس أسطوله الذي رسا في سواحل مرسيليا لتقديم العون للفرنسيين ، حدثاً له وقع بالغ. حيث توافد الآلاف من الأهالي ورجال القصر إلى هذه المدينة لمشاهدة الأسطول الذي مكث ينتظر انتهاء الأسطول الفرنسي من إتمام استعداداته.

وقد اتضح من المباحثات المبرمة بين الطرفين ، أنّ الفرنسيين يريدون السيطرة على نيس التي تخضع لحكم الدوق سافوا حليف شارلكان. وقد أوضح لهم بربروس نواقص القوات الفرنسية ، والنقص في العدد والعتاد الذي يواجههم ، ما يعرقل فتح المدينة ، ولكنه وإزاء إصرارهم الشديد وافق على مطالبهم.

بعد الانتهاء من الاستعدادات ، توجه بربروس نحو تولون وغادرها في العشرين من آب ، برفقة الأسطول الفرنسي المكون من خمسين سفينة ضعيفة الإمكانات.

وبعد وصول الأسطول العثماني قبالة سواحل نيس ، رسا في ميناء فيلا فرنسا (Villafransa) القريبة من المدينة. وإثر التضييق على المدينة بالحصار ونيران المدافع أعلنت استسلامها. وفي الوقت الذي كانت فيه القلعة الداخلية تبدي مقاومة شديدة ، وتشتبك مع الأتراك في صراع عنيف ، أعلن الفرنسيون عن نفاذ البارود لديهم ، وطالبوا بربروس منحهم إياه. فاستغرب الأميرال التركي طلبهم هذا وردّ بالقول:

«يالكم من محاربين! يملؤون سفنهم ببراميل الخمر ، ولكنهم ينسون حمل براميل البارود»

ومن ثم التفت نحو المبعوث الفرنسي الذي يرافقه ووبخه بشدة:

«أكنت تسخر مني حين أخبرتني في إسطنبول بأنّ دولتك قد أتمت معظم استعداداتها من أجل الحملة ؟»

كما لفت إلى تصرفات الفرنسيين الرعناء وتقاعسهم[417].

وبسبب إدراكه لنفاق الفرنسيين وكسلهم ، فقد أعلن أنه ما من حاجة لفتح القلعة الداخلية التي واصلت المقاومة ، وكان رفعه للحصار عن المدينة والعودة إلى تولون بمثابة إنذار للفرنسيين. وبينما كان في المدينة لم يسمح بقيام أي من أعمال النهب والسلب فيها ، ولكنه وإثر تسليم مفاتيح المدينة للفرنسيين ودخول قواتهم إليها ، فقد حدثت فيها أحداث سلب مفجعة.

وبحسب الاتفاق المبرم مع الفرنسيين فإن إدارة مدينة تولون ستؤول إلى الأسطول العثماني طوال مدة إقامته فيها ، وبناء عليه فقد انسحبت القوات الفرنسية برفقة الموظفين من المدينة ، ونصب العلم التركي فوق قلعتها ، وصدحت أصوات الأذان فيها خمس مرات كل يوم. استمرت إقامة بربروس فيها لثمانية أشهر حتى نيسان العام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين. وقد صرح أحد مواطني ليون بأن «تولون قد غدت مماثلة لإسطنبول»[418].

وخلال هذه المدة قام بربروس بإرسال كل من الريّسين صالح وحسن إلى سواحل كتالونيا الإسبانية ، حيث عادا منها بالكثير من الغنائم والأسرى. ولم يظهر أسطول أندريا دوريا خلال هذه الفترة على الإطلاق.

وأثناء رحلة العودة ، أدار بربروس خير الدين باشا دفة الأسطول العثماني نحو جنوة بشكل مفاجئ ، ما أثار دهشة الجنويين إزاء ظهور هذا الأسطول العظيم أمامهم ، وبدأ الفضول يطغى على الجميع لمعرفة ما ينويه بربروس الذي أعلن مهدداً:

«سلموني تورغوت على الفور. وإلا سأقوم بتدمير مدينتكم وكل قراكم وأجعلها خراباً» ، موضحا بذلك نيته. كان الريّس تورغوت الذي يدعوه الأوروبيون دراغوت والذي سيصبح من أعظم الأميرالات مستقبلاً ، قد أُسر من قبل جانتينو دوريا ابن أخ أندريا دوريا ، وتم سجنه في جنوة. وكان قد مضى على سجنه ثلاثة أعوام حتى ذلك الوقت. وقد تعهد الجنويون بتلبية كل مطالب بربروس شرط عدم التعرض لهم ، مهدئين بذلك من روعه. وإلى جانب تسليمهم للريّس تورغوت على الفور ، فقد أمنوا كل احتياجات الأسطول من أرزاق ومجاديف الخ. .

وكانت فرحة بربروس خير الدين باشا حين قابل الريّس تورغوت ، أعظم من فرحته فيما لو فتح العالم برمته. وقد خاطب كل القادة والقباطنة الذين برفقته قائلا:

«إنّ تورغوت لهو صنديد أكثر نفعاً مني» موضحاً بذلك مكانته المهمة ومدى المحبة التي يكنها له[419].

وقد سلّم السفينة الاحتياطية الخاصة به للريّس تورغوت ، كما حرر الكثير من أسرى المسلمين والأتراك في الكثير من القلاع والمدن التي مرّ بها أثناء عودته. وبعد حصوله على غنائم تفوق الحصر من شواطئ إيطاليا ، بلغ إسطنبول في صيف العام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين. وقد استقبل السلطان القانوني هذا المجاهد البحري العظيم مانحاً إياه صفة البطل ، كما أسبغ عليه الكثير من الثناء.

يا درّة الأمراء

إياك والركون لمفاتن الأيام

فما أنت وكل هذا المجد إلا كالنمل

فارضخ للملمات حين تأتي جماعاً

ألم تسمع بأنّ السرور لا يدوم في الأصل

ألم تفقه بأن الغرور والحسد بلاء

سار عليه أبليس وابن باعوراء من قبل

عليك بالصبر وإن كان كالعلقم فهو

السبيل القويم لكل ذي عقل

وإن تدّنس القلب برذائل الدنيا

فطهره بحسن القول والفعل

فلا يغرنك التاج والعرش يا محبي

فما دامتْ لبهرام ولن تدوم للكل420.

كانت حياة السلطان القانوني مزيجاً من تناقضات الفرح والحزن ، السعادة والألم ، المجد والفجيعة في الآن ذاته. وقد تكون هذه الأبيات مرآة لما كان يعتمل في فؤاده في لحظات كتلك. وإلى جانب أنها تفيض بالنصح لكنها تستحق التقدير من ناحية الأسلوب والصياغة.

ورغم أنّ السلطان يخاطب نفسه خلال هذه الأبيات ، ولكنها موجهة نحو القارئ

أيضاً كما هو واضح.

فبينما مشاعر الفرح والبهجة تطغى على السلطان العائد من آخر حملاته على النمسا بعد الانتصارات التي حققها ، حيث فتح خلالها العديد من المدن ، انهار حزناً مع وصوله إدرنة وتلقيه خبر موت الأمير محمد والي سنجق صاروخان. وأدرك أنّ القوة مهما تعاظمت لا تبلغ كل مرام ، وأنّ خاتمة الملذات ترافقها الآلام.

الأمير محمد هو أول أبناء القانوني من السلطانة هُرَّم ، وُلِد في إسطنبول العام ألف وخمسمائة وواحد وعشرين ، وتلقى مستوى عالياً من التربية والتعليم. وقد رافق والده في حملة فلوره (أفلونيا) العام ألف وخمسمائة وسبعة وثلاثين ، وحملة المجر العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين. كان خطاطاً وشاعراً ، تولى حكم سنجق صاروخان في تشرين الأول من العام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين. وكان قد مضى على توليه هذا المنصب عام ، حين أصيب بداء الجدري وانتقل إلى دار البقاء في السادس من تشرين الثاني العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين. وكان يبلغ من العمر حينها اثنين وعشرين عاماً.

وقد أمر القانوني بنقل جثمان ابنه من مانيسا إلى إسطنبول ، وفي الثامن عشر من تشرين الثاني العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين أقيمت على روحه صلاة الجنازة في جامع بيازيد وسط حضور حشود غفيرة من أهالي إسطنبول. ودفن بناء على رغبة والده في مكان قريب من الجامع وهي منطقة الغرف القديمة (الثكنات) للإنكشارية ، التي أخليت بأمر من السلطان (الفناء المجاور لجامع شيهزاده باشي حالياً).

هذا الشطر قد خلّد به السلطان سليمان القانوني موت الأمير ، يوضح على الرغم من بساطة طابعه ، عمق المحبة التي كان يكنها لابنه421.

كما أمر المعماري كوجا سنان422 بناء كلية شيهزاده تخليدا لذكرى ابنه ، وقد ضم الصرح الذي استمر العمل فيه بين الأعوام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين وثمانية وأربعين ؛ جامعاً ، ومدرسة ، ومكتبة صبية423 ، وعمارة ومقبرة.

وعلى باب المقبرة نقشت الأبيات التالية بخط فارسي منمق:

إن كنت عبدا أو كنت سليل المجد

فالقصور خاوية تردد قل هو الله أحد

فها قد رحل عنا الأمير العفيف

وشمله بواسع الغفران الواحد الصمد

وانتقل إلى دار البقاء والخلود

عظم الله أجر مولانا حتى الأبد

وبإذن الله ذكر الأمير باق

فمنزله جنان الخلد ومقامه السعد

(سنة تسعمائة وخمسين للهجرة ، ألف وخمسمائة وثلاث وأربعين ميلادية)424.

كما مدحه جلال زاده في هذه الأبيات:

يا بحر الفضائل ودرته اليتيمة

وشاه أرض الكرم والمكارم

وسلطان البلاد وما عليها

أمير الجود وصاحب العزائم

وإن كان للخلق قدوة ومثال

فأنت للخلق القويم دعائم

فلتنعم روحك في جنان الخلد

بنور الرحمة وصحبة الأكارم425.

خلال عودة السلطان سليمان القانوني من حملة العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين ، أمر القادة الحدوديين باستمرار تحركاتهم ونشاطهم. وبناء عليه سار أمير أمراء بودين يحيى باشا زاده محمد بيك في ربيع العام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين على رأس قوات إيالته نحو قلاع العدو المتاخمة للمناطق الحدودية. وحقق الكثير من الفتوحات في فترة وجيزة ، حيث قام بفتح إحدى أهم القلاع النمساوية وهي قلعة فيسيغراد ، بالإضافة إلى قلاع نوغراد ، هاتفان ، جوكا ، سيمونتورنيا ، أوفيديوبول426 وقلعة أندريك (Anderik427).

ما دفع كلاً من فرديناند الذي كان يخسر مع مضي كل يوم جديد إحدى مدنه المهمة ، وأخيه شارلكان الذي يتلقى الهزيمة تلو الأخرى على يد بربروس خير الدين باشا ، إلى إرسال مبعوثين لعقد الصلح مع السلطان سليمان القانوني. وقد أسفرت المفاوضات مع الهيئة المرسلة ، إلى هدنة تحولت إلى اتفاقية في الثامن عشر من حزيران العام ألف وخمسمائة وسبعة وأربعين. وكانت هذه الاتفاقية تشمل شارلكان أيضاً في السنوات الخمس الأولى. حيث قام الأخير بالتصديق عليها في الأول من آب العام ألف وخمسمائة وسبعة وأربعين في آوغسبورغ428 ، وصدّق عليها فرديناند بدوره في السادس والعشرين من الشهر ذاته في براغ429.

كانت هذه الاتفاقية تخلص الهابسبورغيين من ضغوط الدولة العثمانية التي كانت راغبة بدورها في تأمين حدودها الغربية ، في حال اعتزمت القيام بحملة على إيران. وكانت هذه الاتفاقية سواء من حيث بنودها ، أو نتائجها على قدر كبير من الأهمية. وشكلت نقطة تحول في العلاقات العثمانية - الهابسبورغية. والتي نصت على دفع فرديناند ثلاثين ألف دوقة كجزية سنوية عن المناطق التابعة له في المجر. وكانت بذلك نصراً جلياً للعثمانيين على خصومهم آل هابسبورغ ، حيث رفعت من هيبة السلطنة إلى أعلى مراتبها ، واعترفت

أقوى دولة مسيحية في أوروبا وهي الإمبراطورية الإسبانية- الألمانية بتفوقها عليها. كما أنها كانت مؤشراً على توقف الحملات العثمانية المتعاقبة على المركز الأوروبي ، وفي الآن ذاته توكيدا للتفوق العثماني في الصراع العسكري - السياسي على الأرض. كما أنّ القوتين العظيمتين باشرتا في التخاطب بشكل مباشر بعد أن فقدت المجر فرصتها في البقاء كدولة مستقلة عازلة.

ومن جهته أعلن فرانسوا الحرب مجدداً على الهابسبورغ وطالب القانوني بتقديم العون له ، وأرسل أرامون مبعوثاً له إلى إسطنبول هذه المرة. ومقابل القرض المالي الذي طلبه السفير ومقداره ثلاثمائة ألف ذهبية ، لم يحصل سوى على السماح بالحصول سنوياً على مقدار محدد من ملح البارود من الإسكندرية. ومع التأكيد على أواصر الصداقة التي حمّلها القانوني لمبعوث فرانسوا العائد ، فقد أعلمه أيضاً باحتمال قيامه بحرب ضد إيران ، لذا فهو لا يفكر بالقيام بخطوة عدائية اتجاه النمسا في الوقت الحالي.

كما كان قد أمر أثناء عودته من حملته الأخيرة على المجر ، بتصنيف كل سناجق هذه المنطقة بما فيها إيالة بودين. وقد جرى هذا التحرير الأولي من قبل الدفتردار خليل ، والذي شكل المرجع الأساس للمائة وخمسين سنة لاحقة حول إيراداتها المالية ، وكان يتم الرجوع إليه في كل المباحثات القادمة.

كانت إيالة بودين مكونة في سنواتها الأولى من السناجق التالية: لواء باشا بودين ، إزترغوم ، سيكشفهيرفار ، موهاج ، بيتش ، سيكلوس ، نوغراد ، فاتفان ، سيمونتورنيا ، زيجيد ، سكسارد ، فسبرم430. وهناك بعض المصادر التي تضيف إليها سناجق ؛ بوزيغا ، سميديريفو وسريم أيضاً431.

كما أحدث السلطان القانوني في المجال الإداري تغييرين بالغي الأهمية وذلك في العام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين ؛ أولهما تعيين الأمير سليم الذي كان في العشرين من العمر والياً على سنجق صاروخان بدل قونيا432.

ويمكن اعتبار هذا التغيير إشارة إلى انتقال ولاية العهد للأمير سليم ، ذلك أنّ أهمية السناجق التي يتولى الأمراء حكمها ، لا تتأتى من اتساع مساحة أراضيها وغنى مواردها ، بل من مدى قربها من العاصمة ، حيث أنّ مانيسا (صاروخان) كانت الأقرب إلى إسطنبول ، ما يخول أميرها الوصول بسرعة أكبر إلى العاصمة في حال حدوث فراغ في العرش ، واستلام مقاليد الحكم قبل بقية أخوته الأمراء في السناجق الأخرى ، ولهذا الاعتبار فقد تولى الأمير محمد حتى وفاته حكم هذا السنجق.

أما الأمير مصطفى أكبر أبناء السلطان من أم أخرى هي ماهي دِفران خاتون ، فقد استلم إمارة سنجق أماسيا البعيدة عن إسطنبول.

أما التغيير الثاني الذي أحدثه القانوني ؛ فهو قيامه بعزل الصدر الأعظم هاديم سليمان باشا ، وتعيين صهره الوزير الثاني رستم باشا في منصبه. وكان السبب الذي أدى لهذه الخطوة هو التالي:

حدث خلاف بين الصدر الأعظم هاديم سليمان باشا والوزير الثالث خسروف باشا ، وتعود أسبابه إلى إرسال هاديم سليمان باشا أثناء توليه حكم مصر بعد خسروف باشا ، تقريراً إلى العاصمة حول بعض المخالفات اللاقانونية التي ارتكبها سلفه.

وقد تطور الجدال الذي حصل بين الوزيرين في أحد اجتماعات الديوان التي لم يحضرها السلطان ، من المشادات الكلامية إلى الضرب وسلّ الخناجر ، ومع تدخل بقية الباشوات تم تهدئة الوضع ، ولكن السلطان امتعض جداً من تصرف الصدر الأعظم والوزير الثالث بهذه الطريقة خلال تواجدهما في الديوان ، فقام بعزل كليهما من مناصب الوزارة. 433

حيث تم نفي هاديم سليمان باشا إلى مالكارا434 ، وقد بقي فيها حتى وفاته في العام ألف وخمسمائة وثمانية وأربعين ، أما خسروف باشا فلم يعش طويلاً ، وقد مات متأثراً بالحادثة435.

مات ريّس البحر

كانت حملة نيس التي قام بها قبطانى دريا بربروس خير الدين باشا لتقديم العون لفرنسا آخر حملاته ، ومن هناك عرج على جنوة ، ليقوم بتحرير البحار التركي العظيم الريّس تورغوت من أسره.

وقد انشغل فيما بعد بإدارة الترسانة ، حيث توفي في الخامس من تموز العام ألف وخمسمائة وستة وأربعين عقب فترة قصيرة من المرض. ودفن في المقبرة المجاورة للمدرسة التي قام بإنشائها في منطقة بشيكتاش. وقد نعي بجملة «مات ريّس البحر» التي خلدت ذكراه في التاريخ. وفي العصور اللاحقة بات عرفاً أن يرسو الأسطول الذي سينطلق إلى بحر إيجة في ميناء خير الدين في بشيكتاش.

وبحسب ما تورد المصادر فقد كان بربروس خير الدين باشا أشقر البشرة ، ضخم الجثة ، كثّ اللحية والشوارب ، كثيف الشعر غزير الرموش غليظ الحاجبين. يتقن الرومانية436 ، العربية ، الإسبانية ، الفرنسية والإيطالية. وقد نقش على الجامع الذي بناه في الجزائر اسمه كما يلي «السلطان المجاهد مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد أبي يوسف يعقوب التركي».

وقد تولى ابنه حسن آغا المولود من سيدة جزائرية ، منصب أمير أمراء الجزائر ، أما ابنته الوحيدة فقد تزوجت من الريّس تورغوت.

تزخر كتب التاريخ بالأبطال الذين قاموا بفتح مناطق باسم ملوكهم ، ولكنهم وقبل مضي وقت طويل انساقوا وراء مطامعهم الشخصية ، ليعلنوا سلطناتهم وإماراتهم المستقلة.

وبالمقابل فليس من المألوف أن يقوم أحدهم بفتح إمارة بحد سيفه ، ليقوم بتسلمها إلى سلطان آخر ، وينضم تحت لوائه.

ولكن بربروس خير الدين باشا أعظم الأميرالات في التاريخ التركي والعالمي ، كان خير مثال على التواضع الملازم للبطولة والشجاعة.

فهو لم ينس أبداً الحماية والمساعدة التي قدمها الأمير كوركود له ولأخيه عروج في عهد السلطان بيازيد الثاني. وفي كل الأماكن التي قام بفتحها ، كان على الدوام يأمر بذكر اسم السلاطين العثمانيين في الخطبة ويسك النقود بأسمائهم.

وقد أظهر الولاء للسلطان سليم خان والاستعداد لخدمته في كل فرصة ممكنة ، والأكثر من ذلك أنه وحين قام السلطان القانوني باستدعائه ، حمل معه أوراق ملكية إيالة عظيمة الشأن كالجزائر:

لا يليق بمقامكم إلا ما هو أعظم ، فأرجو أن تقبل هديتي المتواضعة. .

قالها وهو يقدمها منحنياً أمام السلطان.

واعتباراً من هذا التاريخ (1534) وحتى وفاته ، خدم الدولة العثمانية لمدة اثني عشر عاماً باعتباره قبطانى داريا لأسطول السلطنة. وخلال هذه الفترة قام بفتح العشرات من الجزر والمدن صغيرها وكبيرها ، بالإضافة إلى إيالة كبيرة كتونس ، ليمتد النفوذ العثماني حتى فاس.

ومن بين الهزائم التي ألحقها بالأساطيل المسيحية ؛ هزيمتهم أمام جزيرة بروزة ، ليخلد التاريخ هذا الانتصار البحري العثماني بحروف من ذهب ، حتى بات الأوروبيون غير قادرين على تعويم قطعة خشبية فوق المتوسط.

وإلى جانب أنه كرّس حياته للمحاربة في البحر المتوسط وكللها بالفتوحات والانتصارات ، فقد أسهم في رفد البحرية العثمانية بالعديد من البحارة والقباطنة الذين نشؤوا في كنفه كالريّس تورغوت ، الريّس سنان ، الريّس سيدي علي ، الريّس آيدين ، غازي حسن باشا ، كليج علي باشا وصالح باشا ، ليقدم بذلك خدمة قلّ نظيرها للسلطنة.

وما الرجال إلا بأعمالهم الباقيات الخالدات

فمن رحل دون أثر ذرته السيول الجارفات

لم يكن ما ميّز بربروس خير الدين باشا عن سواه هو حسن إدارته للأسطول فحسب ، بل ما أظهر من خبرة في السيطرة على ولاية كبيرة مع حفنة من أصدقائه ، في جغرافيّة بالغة التعقيد. ومن المحقق أنه يدين بالفضل في إنجاز كل هذه الانتصارات ، إلى مقدرته على كسب قلوب الناس وإدارتهم وفق مشيئته ، والكشف عن طاقات الآخرين وملكاتهم ، ابتعاده عن التكلف في حياته الدينية واعتماد أسلوب يميل للبساطة والصدق ، إظهار الرأفة حين الحاجة والشدة عندما تقتضي الضرورة ، تحليه بالسلاسة والكرم والتسامح ، وعدم الخوض في أي أمر دون أخذ المشورة. . إنه واحد من أولئك القادة الذين يتوجب التوقف عند حياتهم ، والتمحيص في شخصيتهم ، والإحاطة بها من جوانبها المتعددة ، ذلك أنّ إمارات القيادة كانت تتجلى في شخصه.

ويجدر بالقادة المعاصرين للسياسة الآيلة للتفتت ، التعرف عليه أكثر من غيرهم. كما على من يريد الاطلاع على مكاسب الوحدة والمساواة ، وما يمكن للتفرقة أن تجر من كوارث ، أن يقف على حياته بصورة أكثر قرباً.

كان بوسع الريّس خضر أن يعلن سلطنته الخاصة في الجزائر الواقعة بين سلطنتي فاس وتونس ، ولكنه ومع الانضواء تحت لواء السلطان يافوز سليم خان ، أظهر بأنه من أخلص أتباعه.

وقد مدحه السلطان سليم بدوره قائلاً عنه «أنت قائد المجاهدين ومعلمي» ، ومنح لقب خير الدين لهذا القائد البحري[437].

وبعد أن قبل الريّس خضر رسالة السلطان سليم خان ثلاثاً ، لم يستطع حبس دموعه الصادقة إزاء دعوات السلطان له بالنصر ، ولقب خير الدين الذي أسبغه عليه ، وألقى أمام بحارته ورجال الدين والشيوخ وقادة أسطوله هذه الكلمات الصادقة العفوية ،

والتي ستُنقش في قلوب الشعب التركي:

«إنّ أعظم أكسير في هذا العالم ، هو دعاء السلطان وعطف من لدنه ، وهذا ما منحنا إياه السلطان العثماني ، صاحب المجد والشأن الجليل ، حيث رفع يديه لتصل دعواته عرش الرحمن من أجل أن ينصرنا وتبقى سيوفنا ماضية مرفوعة. وما من شكّ أن من ينال حظوة الدعاء من آل عثمان ، فلن يخيب في كل ما يقدم عليه. ذلك أنهم قوم شأنهم عظيم ، ومن يدير لهم ظهره ، فسيسقط رأسه»438.

ورغم هذا السمو والثناء الذي تلقاه الريّس خضر ، فقد كان مدركاً أنه لا يتوجب عليه أبداً الانسياق وراء الغرور والتكبر. ولأنه كان مدركاً أنّ كل هذه النعم هبة من جناب الحق ، فقد كان يبتهل داعياً:

«يارب العالمينّ لست سوى عبد ضعيف من عبادك ، وشتان ما بين السلطان وبيني أنا العبد الآثم. ولكنك من منحني نعمة القبول لدى السلطان ، أنت ملك الملوك ، الخالق الرزاق. وما كان لعبدك أن يبلغ ما بلغه سوى بفضل وكرم من لدنك»439.

وبالمقابل فقد كان يعلن عدم انصياعه للغرور ، والتزامه بواجبه كأحد رعايا السلطان بالقول:

«لقد نلت حظوة لدى السلطان ، وارتديت خلعته ، وامتشقت سيفه ، واعتمرت عمامته ، ولكن هذه الحظوة لم تفقدني الصواب ، بل بتّ أتمسك بتلابيب الحق أكثر مما سبق».

لقد واجه بربروس وأخوته دولة بحرية عظيمة كإسبانيا لسنوات طويلة ، وضيقوا عليها الخناق في البحر المتوسط. وحين أدرك الإسبان أنهم غير قادرين على التصدي لهم ، بدؤوا باللجوء للمكائد وتحريض العرب عليهم. وقد تعرضوا للكثير من الخيانات التي وضعتهم في مواجهة مخاطر عظيمة ، ولكنهم لم يظهروا أدنى بوادر الاستسلام متوكلين ومسَلّمين بإرادة جناب الحق أياً كانت.

وكان أكثر ما يثير حزنهم ، ويتجاوز قدرة التسامح لديهم ، هو تحالف المسلمين مع الكفار ، حيث خاطب الريّس خضر حاكم تلمسان مسعود بيك الذي تحالف مع الإسبان بالقول:

«أين وعدك وعهدك الذي قطعته أمامنا يا مسعود؟ ألم تتعهد بعدم الانضواء تحت لواء الكفار وعقد أي صلح أو حلف معهم ، وبأنك ستظل على الدوام تكن لهم العداء والبغضاء؟ فأن تصادقهم يعني أنك بت تعادينا. فما الذي ساءك منا طوال هذه السنوات ، حتى وضعت يدك في يد الكفار وصالحتهم؟ أيجوز لمسلم أن يتحالف مع عدو الدين والإسلام ويضع يده في يد الكفار ضد أخيه في الدين؟» ليوضح بذلك توجهه كقائد والنهج الذي سيتبعه على الدوام[440].

ويمكن استخلاص الكثير من العبر ، من خلال الروح القتالية التي تمتع بها بربروس خير الدين باشا ، فهي دليل حقيقي على ما يمكن القيام به مع حفنة من المجاهدين والانتصارات التي يمكن تحقيقها. ولكن ما يجب التركيز عليه بحق ، هو تلك الخصال العظيمة التي تمتعت بها هذه الشخصية التي قادتهم نحو هذه كل الانتصارات.

حملة تبريز (1548)

القاص ميرزا هو ثالث أبناء الشاه إسماعيل ، حاكم ولاية شيرفان[441] ، تمرد على أخيه الشاه طهماسب ولجأ إلى الدولة العثمانية في العام ألف وخمسمائة وسبعة وأربعين. وقد سرّ القانوني من هذه الواقعة كثيراً ، ذلك أنّ العلاقات مع الصفويين منذ حملة العراقين وإن لم تتحول إلى حرب حقيقية ، فلم تكن طبيعية أيضاً. حيث تمكن الشاه طهماسب من استعادة بعض قلاعه الحدودية ، ولكن السلطان سليمان القانوني وبسبب انشغاله بحروبه مع الأوروبيين ، لم يولِ الأمر أهمية بالغة. ولكن التجاء أمير إيراني إلى حمايته ، شكل فرصة مناسبة للقيام بحملة ضد جاره الشرقي.

قبل لجوء القاص ميرزا ، كان برهان علي سلطان بن خليل الثاني مالك بلاد شيرفان الأسبق والمتحدر من شاهات شيرفان ، قد التجأ قبل عدة سنوات إلى السلطان العثماني ، بعد فشل محاولته في استرداد بلاده. حيث قام السلطان القانوني بتعيينه في وظيفة وخصص له راتباً. والآن فقد بات الخلف والسلف كلاهما تحت حماية السلطان ، فكان أول ما قام به هو إرسال برهان علي سلطان مع رسالة همايونية إلى شيرفان. ومن ثم استضافة القاص ميرزا في أحد قصور إسطنبول ، حيث أمر بإكرام وفادته. وفي نهاية ذلك العام ومع عودته من إدرنة إلى العاصمة ، أقيم احتفال مهيب لاستقباله ، وقد شهده القاص ميرزا أيضاً.

وبعد عدة أيام تم استدعاء القاص ميرزا إلى الديوان الهمايوني ، وأقيمت على شرفه وليمة فاخرة. ومن ثم قدمت للأمير الذي قام بتقبيل يد السلطان ، العديد من الهدايا النفيسة من قبل القانوني ورجال دولته[442].

وفي المرة الثانية التي استقبل فيها السلطان القاص ميرزا ، تقدم الأخير بشكوى ضد أخيه الشاه طهماسب ، ليقرر القانوني التوجه على رأس حملة إلى إيران. حيث أرسل جيشاً بقيادة كل من والي أرضروم عُلما باشا والقاص ميرزا وذلك في ربيع العام ألف

وخمسمائة وثمانية وأربعين.

وفي نيسان من العام ذاته انتقل السلطان مع قواته من الكابى كولو إلى أوسكودار ، كما أنّ الولاة والأمراء كانوا قد أتموا استعداداتهم من أجل الحملة المتجهة شرقاً ، بناء على الأوامر التي تلقوها قبل عدة أشهر. وقد سمح للمبعوث الفرنسي أرامون أيضاً بالانضمام لهذه الحملة.

استقبل السلطان القانوني أمير سنجق صاروخان في سيد غازي ، وأرسله إلى إدرنة من أجل إدارة منطقة روميلي. كما استقبل الأمير بيازيد أمير سنجق قونيا والده في آكشهير443. ومع الوصول إلى بادية سيفاس عبر طريق نيدا-قيصري ، تم استقباله من قبل أكبر أبنائه الأمراء والي أماسيا الأمير مصطفى ليقوم بتقبيل يد والده444.

وفي نهاية شهر حزيران وصل السلطان إلى أرضروم ، ليلتقي بقوات الإيالة التي كانت قد اجتمعت هناك قبله. ومن ثم اتجه صوب آديلجيفاز عبر طريق إرجيش-قلعة حسن (هاسان كالى). وقد أرسل في هذه الأثناء علما باشا وأمير أمراء قرمان بيري باشا من آل رمضان أوغلو ، للسيطرة على قلعة وان. أما برهان علي سلطان الذي ذهب إلى بلاد شيرفان حاملاً رسالة السلطان ، فقد أرسل إلى القانوني يبلغه بأنّ البلاد برمتها تعلن ولاءها للسلطان الذي سرّ كثيراً من سماع هذه الأخبار.

كان السلطان يفكر باللحاق بعُلما باشا وبيري باشا إلى وان ، وتخليص شرق الأناضول من سيطرة الصفويين بشكل كامل ، ولكن بسبب توجيه ونصائح القاص ميرزا ، فقد غيّر وجهة حملته نحو تبريز.

وصل السلطان سليمان القانوني الذي سلك طريق إلشكيرت ، في الواحد والعشرين من تموز العام ألف وخمسمائة وثمانية وأربعين إلى خوي445. وبعد أن مكث فيها لأسبوع ، وصل إلى منطقة شنب غازان446 ، حيث انتشرت خيام المعسكر العثماني في كل المنطقة المحيطة بشنب غازان. أما الشاه طهماسب الذي كان يقيم في هذه المنطقة

منذ شهر ، فما إن سمع بوصول السلطان على رأس قواته ، حتى غادر مسرعاً نحو منطقة قزوين مرة أخرى دون أن يجرؤ على مواجهته في معركة مباشرة.

دخل القانوني تبريز دون أي مقاومة ، وبحسب ما يورده المؤرخون فإنّ القوات العثمانية التي دخلت تحت قيادة السلطان ، لم تلمس فيها بيضة أو دجاجة تعود لأهالي المدينة. على الرغم من أنّ الشاه طهماسب قام بحرق كل المناطق حتى تبريز للحيلولة دون وقوعها بيد العثمانيين.

كان السلطان يفكر في تعيين القاص ميرزا والياً ، وبحسب بعض المصادر شاهاً على تبريز ، ولكنه تراجع عن هذه الفكرة إزاء تصرفات الأخير التي لا تشي بالثقة ، ورغبته في القيام بمذبحة بحق أهالي تبريز.

وفي هذه الأثناء وبعد أن أدرك السلطان أنّ الشاه طهماسب هرب ، أقام في المدينة خمسة أيام ، ومن ثم تحرك صوب وان في الأول من آب. وبما أنّ الصفويين كانوا قد أضرموا النار في كل المزروعات والقرى التي على الطريق الرئيسي ، فقد سلك القانوني طريق الجبال ، وبعد مسيرة شاقة تمكن من بلوغ وان في الخامس عشر من الشهر ذاته.

كان كل من علما باشا وبيري باشا اللذان أرسلهما سابقاً إلى المنطقة ، قد ضربا الحصار على قلعة وان ، ومع وصول القوات العثمانية الأساسية ، استلم رستم باشا القيادة ، وقام بنصب المدافع ، وبدأ بضرب جدران القلعة على الفور. وبدأ الجنود في نقل التراب لبناء المتاريس ، وبعد حصار دام لأسبوع أدرك قائد حامية القلعة علي خان ، أنه غير قادر على المقاومة أكثر ، فقام بتسليم مفاتيح القلعة شرط الأمان وذلك في الرابع والعشرين من آب العام ألف وخمسمائة وثمانية وأربعين.

بعد اتخاذ التدابير اللازمة في القلعة ، توجه القانوني عائداً نحو ديار بكر في الخامس والعشرين من أيلول ، فامتلأت مروج جوليك بالخيام الملونة ، وهناك قضى السلطان شهر رمضان ، حيث نصبت الرايات والمظلات العالية من أجل عيد الفطر. وبعد

عزف الميهتار في صبيحة العيد ، جلس السلطان على عرش ذهبي مرتفع ، ليهنئه بالعيد كل من الوزراء ورجالات الدولة وأعيانها القادمين من كل أرجاء البلاد ، إلى جانب الشيوخ ورجال الدين والعلماء والآغوات من كل مِلّة وصوب ، ومن ثم أقيمت وليمة عظيمة جلس عليها الكبير والصغير ، الغني والفقير في سرور بالغ ، وتسامروا في انشراح. وبعد انتهاء العيد وبسبب اقتراب فصل الشتاء ، أمر السلطان القادة والأمراء بالعودة على رأس قواتهم إلى ثكناتهم[447].

إثر خسارة الشاه طهماسب لقلعة وان ، وما إن علم بعودة قوات السلطان إلى ثكناتهم ، شن هجمات تخريبية على كل من أخلاط وإرجيش وآديلجيفاز. كما قام بمهاجمة أمير لواء منطقة باسين المكلف بترميم قلعة قارص ، وقتل العديد من أهالي المنطقة وامتدت هجماته حتى تيرجان وإرزينجان[448].

عندما بلغت هذه الأخبار السلطانَ المقيم في ديار بكر ، أرسل الوزير الثاني أحمد باشا على رأس قوة كبيرة نحو الشاه ، وفي هذه الأثناء حقق عثمان باشا الشركسي نصراً حاسماً على قوات الشاه طهماسب. ومن ثم وبناء على طلب القاص ميرزا تم إرساله على رأس قوة عسكرية للهجوم على كل من أصفهان ، قُم ، كاشان وسمح له بالمغادرة بعد أن أردفه بقوات عسكرية ، وقد توجه في البداية نحو بغداد[449].

أما القانوني فقد توجه من ديار بكر إلى حلب ، حيث أمضى فيها الشتاء. وهناك استدعى الأمير بيازيد من قونيا ، حيث مكثا سوية ، وكان يخرجان في رحلات صيد في منطقة حماه وجوارها. وفي هذه الأثناء وصل وزير القاص ميرزا ونديمه سيد عزيز الله شيرفاني حاملا رسالة من القاص إلى جانب العديد من نفائس الهدايا. وقد كان القاص ميرزا يوضح في رسالته بأنه تمكن من الإغارة على قصور الشاه وبقية السلاطين في كل من أصفهان وقم وكاشان ، وأرسل الخزائن والكنوز الثمينة التي حصل عليها برفقة رسوله ، لينتقم من الشاه طهماسب بسبب الهجمات التدميرية التي شنها على مناطق أخلاط ، إرجيش وإرزينجان. أما السلطان وليظهر له امتنانه الكبير من هذه الأخبار ، فقد أرسل إليه

الخلع والهدايا الثمينة بدوره450.

وخلال الشتاء ذاته أرسل إسكندر باشا أمير أمراء وان إلى السلطان يعلمه بأنه تمكن من قتل دونبلو حاجي خان زعيم إحدى أكبر العشائر والمعروف بشجاعته الكبيرة ، والذي كان موالياً للعثمانيين فيما مضى ، ولكنه انتقل إلى طرف الشاه طهماسب لاحقاً. وقد سرّ السلطان لهذا الخبر سروراً بالغاً ، وأرسل لإسكندر باشا السيف والخلعة بالإضافة لمكافأة مالية مجزية451.

ومن جهة أخرى فقد وصلت أخبار من أمير أمراء أرضروم الذي توجه على رأس حملة إلى جورجيا بناء على أوامر السلطان ، تفيد بفتح قلاع كل من بيركان (Berakan) ، بيناك (Penak) ، غومغة (Gömge) غيرميك (Germek) ، ساماغار (Samagar) وأهادِر (Ahadır) وقد تم الاحتفال بهذا النصر أيضاً.

أما القاص ميرزا الذي رجع إلى بغداد ، وأثناء زيارته لقبور كربلاء عاد لاتباع عادات الروافض ، فانفضّ عنه أهل السنة من رجال السلطان. وحين بات وحيداً ، شعر بالخوف من أخيه الشاه فهرب إلى جبال إمارة أردلان452 ، وكان قد رفض دعوة السلطان المقيم في ديار بكر للمثول بين يديه ، خوفا من فقدان حظوته ، وتقول إحدى الروايات أنه توسط لدى أخيه طهماسب من أجل العفو عنه ، وحين أبلغ حموه الشاه نعمة الله الذي تدخل بين الطرفين أنه نال العفو ، قام بتسليم نفسه. ولكن الشاه طهماسب قام بسجنه في قلعة آلموت ، وقتله بالسم بعد مدة وجيزة.

ومنذ مغادرة السلطان لحلب وحتى تاريخ السادس من حزيران العام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين قضى معظم أوقاته في الصيد ، وحين عاد للتوجه إلى ديار بكر ، انفصل عنه الأمير بيازيد وعاد متوجهاً إلى سنجق قونيا.

وبعد أن اجتاز السلطان نهر الفرات ، اعتلت صحته في منطقة إلمالى (Elmalı) ، فمكث لبعض الوقت في هضاب كاراجاداغ453 التي واتته بمائها وهوائها ، حتى تماثل

للشفاء.

وفي العاشر من أيلول وصل السلطان إلى أرضروم ، فيما كان الوزير الثاني أحمد باشا منشغلاً بحملته على جورجيا ، حيث استطاع السيطرة على العديد من القلاع سواء بالقتال أو طلبها للأمان والتسليم ، كقلعة آغجة وتورتوم وسواها454. . وعقب الانتهاء من موسم الحملات ، عاد إلى أرضروم ومن ثم إلى ديار بكر لينضم للسلطان ، الذي أنعم على كل من أمراء وولاة أرضروم ، قرمان ، ذو القادر وسيواس الذين اشتركوا في هذه الحملات بالكثير من الثناء والهدايا.

وبذلك انتهت حملة إيران التي ساهمت في تعزيز الأمان والاستقرار في تلك المناطق ، وأوضحت الحدود بين الطرفين. وفي الثالث عشر من تشرين الثاني العام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين غادر الجيش ديار بكر وسط مراسم فخمة ، وواصل رحلته وسط انضباط صارم ، ليبلغ العاصمة في الواحد والعشرين من كانون الأول455.

أحداث ترانسلفانيا (إردال) (1549-1552)

تولى الراهب مارتينوزي (يسميه المجريون فراتير جورجي أما المصادر العثمانية فتذكره باسم باراتا) الوصي على ملك ترانسلفانيا الصغير الذي نُصب على عرشها منذ العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين شؤون البلاد ، وبعد فترة أخذ يتواصل مع آل هابسبورغ ويتباحث معهم حول فصل ترانسلفانيا عن حماية السلطان ، وإلحاقها بالهابسبورغيين بل وتمكينهم من احتلالها بشكل فعلي. وبينما كان يراسل السلطان القانوني مراوغاً ، كان هدفه الحقيقي الانضمام لحكم فرديناند.

وفي العام ألف وخمسمائة وثمانية وأربعين تواصل بشكل مباشر مع البابا ، طالباً منه التوسط لكي يتدخل كل من فرديناند والإمبراطور ويقوما بضم الملكة والملك الصغير لحمايتهما. وعلى إثر هذه المباحثات تم عقد اتفاق في أيلول العام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين بين رجال إيزابيلا وفرديناند ، والذي نص على إلغاء سلطة القانوني على ترانسلفانيا وكل الأراضي الممتدة حتى نهر تيسا[456] ، لتخضع لسلطة آل هابسبورغ[457].

وكان مارتينوزي يريد تطبيق هذه الاتفاقية على أرض الواقع بشكل سري دون علم القانوني والديوان الهمايوني ، وفي حال افتضاح أمرها سيقوم بإلقاء المسؤولية على عاتق رقيبه السياسي بيتروفيتش. وفي هذه الأثناء كان المبعوثون يتباحثون مع النمسا لحل مجموعة من المسائل منها ما يتعلق بالمشاكل الحدودية ومنها ما يتعلق بتأخير دفع الجزية السنوية.

وبعد عودة المبعوث محمود شاويش ، ووصفه لتصرفات الإمبراطور المريبة ، اهتزت ثقة السلطان والديوان الهمايوني ، وازدادت شكوكهم حول وضع ترانسلفانيا. وفي العام ألف وخمسمائة وخمسين وبينما كان مارتينوزي يواصل دسائسه دون التمكن من إقناع الملكة إيزابيلا بعد ، تقدم بطلب إلى السلطان لنيل مساعدة مالية للملك الصغير ، معتقداً بذلك أنه سيتمكن من المواربة على مكائده.

ولكن السلطان الذي كان مطلعاً على المسألة من كل جوانبها ، أرسل فرماناً تهديدياً لنبلاء ترانسلفانيا المنتسبين لثلاثة أعراق هم ؛ المجر السيلكيين والسكسانيين ، يأمرهم بإبعاد مارتينوزي عن السلطة وتسليمه للعثمانيين ، وعدم إطاعة أحد خلا الملكة وتابعها الأمين بيتروفيتش. كما أمر السلطان أمير أمراء بودين ووالي سنجق هاتفان بهدم قلعة سولنك ، والقيام بحملة للسيطرة على قلعة إغير458.

ورغم قيام مارتينوزي بتوقيع اتفاق مع آل هابسبورغ في تموز العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين لتسليمهم ترانسلفانيا ، فقد حاول من جهة أخرى إنكار الشائعات التي تفيد بدخول الهابسبورغيين إلى البلاد ، وذلك لكسب مزيد من الوقت. وبالمقابل فقد كان أمير أمراء بودين يراسل السلطان باستمرار لينبئه بسيطرة قوات فرديناند على ترانسلفانيا ، وهذا ما دفع السلطان لإرسال فرمان جديد يخاطب فيه أهالي البلاد.

ومن أجل تنفيذ الأوامر الواردة في فرمان السلطان بشكل فعلي ، فقد أرسل تعليماته إلى كل من أمير أمراء روميلي سوكلّو محمد باشا ، ولاة كل من سميديريفو وفيدين459 ، قوات الأفلاق والبغدان ، وتتار دوبروجة460 ، وخانية القرم وذلك في الأول من تموز العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين.

ومع اقتناع السلطان بخيانة مارتينوزي وترك ترانسلفانيا سراً لسلطة فرديناند ، ودخول القوات النمساوية إلى أراضيها ، قام باستدعاء سفير النمسا مالفيزي للديوان الهمايوني وطالبه بإيضاح هذه التطورات ، وإزاء عدم تقديم السفير إجابة مطمئنة تقرر حبسه في برج كارا كولى في قلعة أناضولو حيصار ، ورغم قيام فرديناند بإرسال رسالة احتجاجية على هذه الحادثة ، ولكن القانوني لم يولها أي أهمية461.

وفي ذلك الوقت كانت القوات العثمانية بقيادة أمير أمراء روميلي محمد باشا ، قد اجتازت الدانوب من مدينة بيتروفارادين ، ونهر تيسا بالقرب من تيتِل462 ليدخلوا بذلك أراضي ترانسلفانيا. وبعد حصار دام أربعة أيام تمت السيطرة على مدينة باتش ، أعقبتها قلاع عديدة مثل زرنيانين ، سيناد463 ، ماروش (MaroŞ) وإيلاديا (Illadya) وسواها الكثير من

البلدات والقلاع. . ولكن سوكلو محمد باشا الذي فرض الحصار على مدينة تيميشوارا464 ، عاد إلى بلغراد في منتصف شهر تشرين الأول بسبب قسوة البرد ، ليقضي فيها فصل الشتاء465.

في العام التالي كان الوزير الثاني أحمد باشا مكلفاً بمتابعة التطورات الجارية في ترانسلفانيا ، حيث انطلق من إدرنة في الثالث والعشرين من نيسان العام ألف وخمسمائة واثنين وخمسين على رأس قوة عسكرية كبيرة. وبناء على التعليمات التي أصدرها السلطان والديوان الهمايوني ، كانت أولى خطواته هي محاصرة تيميشوارا ، التي سيطر عليها بعد صراع عنيف. وعقب ذلك قام بضرب الحصار على قلعة إغير ، ولكن المقاومة الناجحة التي أبداها قائد حامية القلعة ستيفان دوبون ، حالت دون سقوط القلعة466.

كانت الفعاليات العثمانية في المنطقة تتقدم بسرعة كبيرة ، حيث تمكنت قوات بودين بقيادة هاديم علي باشا من تحقيق انتصار باهر بفتح قلعة دراغليه (Dragley) التي استبسل مدافعوها في المقاومة. أما يحيى باشا أوغلو أرسلان بيك ، فقد وصل على رأس قواته إلى قلعة سالغو467حيث كان الضباب يلف المكان ، وإزاء هذا الوضع قام بنصب كتل كبيرة من جذوع الأشجار حول القلعة على هيئة مدافع محدثاً ضجة هائلة ، فانطلت الحيلة على حامية القلعة وظنوها مدافع ضخمة بالفعل ، ما دفعهم إلى تسليم القلعة على الفور.

ومن ثم انضم أرسلان بيك إلى قوات هاديم علي باشا ، ليلحقوا هزيمة كبيرة بالقوات الألمانية البالغ عددها تسعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال توفل ، الذي تم أسره برفقة القائد سفورتزا وأربعة آلاف أسير آخر.

وأخيرا تمكنت قوات الوزير أحمد باشا وهاديم علي باشا من ضم قلعة سولنك أيضاً إلى السلطنة ، متوجين بهذا الفتح سلسلة انتصاراتهم468.

تحركات الشاه طهماسب (1552)

استغل الشاه طهماسب انشغال الجيش العثماني في حملته على المجر ، وتواجد السلطان في إدرنة ، ليتقدم بجيشه حتى محيط وان ، ويشن هجمات تخريبية على أطراف كل من آديلجيفاز وأخلاط ومن ثم قام بمحاصرة قلعة إرجيش ، ولكنه بسبب مقاومة إبراهيم بيك أحد الأمراء الكورد في المنطقة ، والشجاعة الكبيرة التي أبداها في الدفاع عن القلعة ، لم يوفق في السيطرة عليها ، فتوجه نحو قلعة آديلجيفاز التي كان سنان باشا زاده إبراهيم بيك قائد حاميتها ، وإزاء المقاومة الشديدة التي واجهها هناك أيضاً ، تخلى عن فكرة السيطرة عليها469.

رغم تجول الشاه في المنطقة لشهور ، لكنه لم يوفق في تحقيق أي انتصار ، وأخيراً توجه نحو قلعة أخلاط التي اعتقد سكانها بأنهم غير قادرين على صد القوات الإيرانية القوية ، لذلك وبعد الانخداع بوعود الأمان ، وتعهدات الشاه بعد التعرض لهم ، قاموا بتسليم القلعة. ولكنهم ما إن فتحوا الأبواب حتى قتلوا مع نسائهم وأطفالهم470.

وبعد السيطرة على أخلاط ، توجه إسماعيل ميرزا بن الشاه على رأس ثلاثة آلاف جندي نحو أرضروم ، ولأن أمير أمرائها إسكندر باشا لم يكن مطلعاً بالشكل الكافي على قوة الصفويين ، فقد خرج من القلعة على رأس قوة عسكرية صغيرة لمواجهتهم. حيث ظهر بضع مئات فقط من الجيش الصفوي أمام أسوار القلعة ، وحين توجه إسكندر باشا على رأس قواته نحوهم ، تراجعوا متصنعين الانسحاب ، وبعد ابتعاد الباشا عن القلعة ، خرجت بقية القوات الصفوية من مكامنها ، وأغاروا على العثمانيين بكل قوتهم. ورغم ذلك فقد حارب الباشا القوات الصفوية التي تفوقهم عدداً ببسالة وشجاعة فائقة ، ولكن الخسائر الكبيرة التي ألحقوها بجيش العدو لم تحل دون الهزيمة المحقَّقة. وقد تمكن من العودة إلى القلعة برفقة عدد قليل جداً ممن بقي من رجاله. بينما بقي ولاة كل من طرابزون ، بوزوك ، مالطيا وكارا حيصار في ميدان المعركة.

وكان لعودة إسكندر باشا إلى أرضروم لحماية المدينة من الوقوع بيد الصفويين ، وقع حسن لدى السلطان القانوني ، فأرسل مع الرسالة التي يوضح فيها تقديره لشجاعة الباشا ومقاومته الباسلة التي أبداها إزاء العدو ، هدايا من بينها خلعة وسيف وصولجان ، وقد جاء في نص الرسالة:

«فليبيّض الله وجهك في العالمين ، ورغم أنّ القتال بينك وبين قوات ابن الشاه لم يكن متعادلاً ، ولكنك أثبتت من تكون ، ولم تقصّر في إظهار الشجاعة. كما أنّ النصر والهزيمة منوطان بإرادة من جناب الحق ، فكن راضي البال»471.

ومن جهة أخرى فإن اعتداءات الإيرانيين كانت تستوجب القيام بحملة أخرى ضدهم ، وإلا فما كان للمناطق الحدودية في السلطنة أن تنعم بالأمان والهدوء. ولكن لم يكن من الواضح ما إذا كان السلطان سيقود الحملة بنفسه ، أم سيوكل المهمة إلى أحد وزرائه. كان القانوني قد بلغ التاسعة والخمسين من العمر ، وينوء جسده تحت مشاق الخروج على رأس إحدى عشرة حملة همايونية حتى ذلك الوقت.

لذا فقد عيّن الصدر الأعظم رستم باشا على رأس الجيش ، الذي انتقل إلى ضفة الأناضول بداية العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين برفقة قوات الإنكشارية وبقية الفرق. ومن ثم صدرت الأوامر إلى أمير أمراء روميلي سوكولو محمد باشا للتوجه إلى توكات من أجل الانضمام إلى الجيش على رأس قواته مع حلول الربيع. ولكن وفي هذه الأثناء بالذات ، قام رستم باشا بإرسال آغا السيباهية شمسي آغا إلى إسطنبول لمقابلة السلطان بشكل مفاجئ ، لقد كان شمسي آغا يحمل أخباراً خطرة عن الأمير مصطفى أكبر أبناء القانوني.

كان هذا الأمير الذي بلغ الثامنة والثلاثين من العمر في ذلك الوقت ، يحكم سنجق أماسيا بعيداً عن الحظوة والمكانة ، على سوية علمية ومعرفية رفيعة ، وخبرة عسكرية واسعة ، وإلى ذلك فهو يتمتع بشعبية كبيرة لدى العسكر. وقد وصل إلى قناعة تفيد بأنه سقط من حسابات والده وأركان الدولة في الطريق المؤدي إلى تولي العرش ، ما دفعه للبدء وبتحريض وتشجيع من حاشيته ومواليه باتخاذ الخطوات الفعلية التي ستمكنه

من حيازة السلطة.

ويشير كل من بيجفي وعلي وسواهم من المؤرخين العثمانيين الموثوقين ، بأن البعض من أهل الفتنة والفساد قد خدعوه بذرائع حول تقدم والده في السن ، ولهذا السبب بالذات فقد قام بتعيين رستم باشا قائداً على جيش الأناضول ، وأنّ هذا الأخير يضمر له السوء مسبقاً ، وأنه لو ذهب إلى مقر الجيش وقام بقتل رستم باشا ، فلن تحول بينه والعرش أي عقبة. كما يفيد هؤلاء المؤرخون بأنّ الأمير بيازيد أيضاً كان يرى أخاه الأمير مصطفى أنسب لتولي العرش من سواه.

ويتضح من خلال إجماع معظم الآراء على اعتبار مصطفى المرشح الأنسب للسلطة ، أنّ الأمير نفسه قد تأثر بهذه الآراء والمقولات ، وبناء على الشائعات التي كانت تفيد بتقدم السلطان في العمر واعتلال صحته - كما هو موضح في المصادر - فقد بدأ بحشد قواته من أجل إعلان التمرد على والده.

حتى أنّ هؤلاء الناصحين من الشيوخ والمعلمين الذي تغفل المصادر عن ذكر أسمائهم ، قد أوهموا الأمير بأنّ السلطان قد عدل عن رغبته في تعيين مصطفى ولياً لعرشه بتحريض من رستم باشا ، وأنّ بإمكانه بعد توليه السلطة إرسال والده إلى قصر ذيذيموتيخو لقضاء بقية عمره في العبادة والراحة. وقد اقتنع الأمير مصطفى بهذه الادعاءات وبادر للتحرك. هذه هي الأخبار التي نقلها شمسي آغا الذي أرسله رستم باشا إلى السلطان. 472

ولكن القانوني لم يصدق هذه الأخبار في البداية ، وعلّق على التقرير الذي بعث به الصدر الأعظم قائلاً:

«حاشا! من المحال أن يتورط أميري مصطفى في صفاقة كهذه. ومن الواضح أنّ بعض المغرضين الذين يطمعون في أن تبقى مقاليد السلطة في يدهم ، قد افتروا على الأمير. إياكم وأن تلفظوا هذه الكلمات مرة أخرى ، ولا تصدقوا مثل هذه السفاهات» محذراً من حوله بشكل حاسم473.

كما أوضح رستم باشا في رسالته بأنّ الجنود مصرون على أن يحضر السلطان بنفسه ليقودهم. وبناء على هذه التطورات ، أذن السلطان للجنود بفترة راحة ، واستدعى الصدر الأعظم إلى العاصمة. وبذلك كان القانوني سيقود الحملة بنفسه مرة أخرى.

حين بلغ الشاه طهماسب أنّ العثمانيين يحضرون لحملة جديدة ، حاول ثني السلطان عن هذا القرار بإرسال وفد لمقابلته يضم والي سنجق بيغا474 محمود بيك الذي فكّ أسره ، وكلفه بمهمة المبعوث. ومن ثم قام بإرسال مبعوث آخر من الأعيان للغاية ذاتها ، أما السلطان فلم يوافق على مقابلة هذا المبعوث حتى وصوله إلى حلب.

غادر السلطان إسطنبول في الثامن والعشرين من آب العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين. ولكن من الصعوبة بمكان التحقق ما إذا كان هذا التأخير يعود لمرض السلطان أم بسبب القرار الذي تم اتخاذه بحق الأمير مصطفى ، والتدابير المتخذة بهذا الشأن. فبعد أن خرج السلطان مصطحباً معه الأمير جيهانغير من أوسكودار ، استقبل في يني شهير الأمير بيازيد ، وأمره بالتوجه إلى إدرنة من أجل حماية منطقة روميلي.

كما استقبل في كوتاهيا سفير ملك بولندا يازلوفيك ، ليعلمه هذا الأخير بمشاعر الصداقة التي يكنها له الملك ، ويطالب بإيقاف هجمات المغيرين الأتراك على الأراضي البولندية وتجديد المعاهدات القديمة ، وبدوره وافق السلطان على مطالبه وسمح له بالعودة إلى بلاده.

وفي الثاني والعشرين من أيلول ومع وصول الجيش إلى بولفادين475 ، وصل الأمير سليم والي سنجق صاروخان لتقبيل يد والده ، ونال منه الموافقة على التحاقه بالحملة.

وعندما بلغ الجيش منطقة آك تيبة التحق الأمير مصطفى والي سنجق أماسيا مع قواته بالجيش ، وقد نصب خيمته إلى جوار خيمة والده السلطان غافلاً عن المصير الذي ينتظره476.

الأمير مصطفى

وُلِد العام ألف وخمسمائة وخمسة عشر في مانيسا أثناء تولي والده حكم سنجق صاروخان ، والدته هي ماهي دِفران أولى محظيات السلطان سليمان. وقد أمضى الأمير أولى سنوات طفولته في قصر مانيسا.

ومع اعتلاء والده العرش في العام ألف وخمسمائة وعشرين ، جاء بصحبة والدته إلى إسطنبول ، وباعتباره الأمير الأكبر وبعد وفاة أخويه محمود ومراد ، فقد تلقى اهتماماً كبيراً أثناء تنشئته في القصر ، ونال تربية وتعليماً استثنائيين ، وقد وصفه سفير البندقية وهو لا يزال في التاسعة من العمر بأنه موهوب إلى درجة بالغة ، وسيغدو محارباً عظيماً ، كما أنه كان محبوباً جداً من قبل الإنكشارية[477].

وفي العام ألف وخمسمائة وثلاثين أقيم حفل ختانه برفقة شقيقيه محمد وسليم ، وقد استمرت الاحتفالات لمدة تقارب العشرين يوماً. وفي العام ألف وخمسمائة وأربعة وثلاثين توجه إلى مانيسا بعد أن عُيّن والياً على سنجق صاروخان.

ومن جهة أخرى فإنّ السلطانة هُرَّم التي انضمت إلى حرم القانوني بعد اعتلائه للعرش ، والتي أنجبت له كلا من الأمراء محمد سليم بيازيد وجيهانغير ، نالت حظوة كبيرة لدى السلطان. وبعد مرافقة ماهي دِفران خاتون لابنها الأمير مصطفى أثناء توجهه إلى مانيسا ، فقد زاد نفوذ هُرَّم في القصر.

كما أثيرت بعض الادعاءات التي تفيد بأنّ حادثة قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا في العام ألف وخمسمائة وستة وثلاثين ، والمعروف بعلاقته الوثيقة بالأمير مصطفى ، قد ساهمت في زعزعة مكانة الأخير ، ومهدت طريق السلطة أمام أخوته من السلطانة هُرَّم ، كما تزعم هذه الروايات التي يروج لها بعض المؤرخين بضلوع هُرَّم في حادثة قتل إبراهيم باشا. رغم أنّ قتل إبراهيم باشا يعود لأسباب مختلفة تماماً ، كما أنّ الأمير مصطفى قد استمر في

إدارة سنجق مانيسا بعد موت الباشا بخمس سنوات.

في العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين تم نقل مصطفى من سنجق مانيسا إلى سنجق أماسيا ، وما من شك أنّ تعيين الأمير محمد بدلاً منه ، كان يعود في جزء كبير منه إلى المحبة العظيمة التي يكنها له القانوني وزوجته هُرَّم ، كما أنه يشير إلى رغبة والده السلطان في تعيينه ولياً للعهد.

وقد شعر الأمير مصطفى بحزن بالغ جراء انتقاله إلى أماسيا. وكانت والدته ماهي دِفران خاتون ترافقه في تلك الفترة ، وستظل إلى جواره ، لتمنحه المساعدة والأمل على الدوام ، كما أنّ الأمير مصطفى كان متعلقاً بها إلى درجة كبيرة.

ومع وفاة الأمير محمد الذي عيّن على سنجق مانيسا إثر مرض مفاجئ ، فقد تعززت آمال مصطفى من جديد في الترشح لولاية العهد. ولكن تعيين ابن هُرَّم الآخر الأمير سليم في العام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين واليا لمانيسا ، كان مؤشراً واضحاً على أنه سقط من حسابات تولي العرش.

واعتباراً من هذا التاريخ بدأت علاقة الأمير بوالده تتدهور ، وهو ما يبدو جلياً في المصادر التاريخية ، وبالطبع لن ننكر في هذه المرحلة الدور الذي لعبه أهل الفتنة والساعون خلف مصالحهم الشخصية من حاشية الطرفين ، في تهويل الأحداث وتفسيرها في الوجهة السلبية ، ذلك أنّ سير الأحداث اللاحقة يؤكد هذا الافتراض.

ففي العام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين وبعد عودة القانوني من حملة العراقين ، أرسل مصطفى إلى والده رسالة اعتذار ، يطلب فيها الإذن بالقدوم إلى إسطنبول للقائه والاعتذار منه ، ولكنه لم يتلق رداً مأمولاً عليها. وقد لاقت رسالة الاسترحام التي بعث بها في السابع والعشرين من كانون الثاني العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين المصير ذاته ولم يتلق عليها الجواب الشافي. تشير هذه الوقائع إلى تورط الأمير في بعض الأحداث التي أثارت استياء والده ، ولكنها توضح في الآن ذاته رغبة الأمير في التحقق من مصدر

الشائعات المغرضة بحقه ، ونيته في إذابة الثلوج بينه وبين والده السلطان.

ولا يمكن التغاضي عن موقف رستم باشا المناوئ للأمير مصطفى ، والذي بات أكثر وضوحاً مع توليه منصب الصدر الأعظم. حيث نجد في المصادر التاريخية روايات تشير إلى تورطه في بعض الفعاليات التي من شأنها أن تظهر مصطفى في مظهر الساعي وراء العرش والاستيلاء على السلطة478.

وبدوره لم يتوان مصطفى عن القيام ببعض الإجراءات في سبيل الاحتفاظ بحقه في تولي العرش ، واستطاع اكتساب محبة وتعاطف الشعب والعسكر على حد سواء من خلال كفاءته وشخصيته. كما كان إلى ذلك شاعراً جمع بين الشعر والعلم على حد سواء.

ومن أبرز سماته الكرم والتواضع ، وكان يحسن معاملة المقربين منه ، ويغدق عليهم في العطاء. إلى جانب عدالته ، ففي المناطق التي طالها حكمه ، كان الجميع يعيش تحت مظلة العدالة والحق. وقد اعتاد في كل يوم جمعة التوجه إلى جامع السلطانية الكائن في مانيسا مع موكبه ليخاطب الناس ، فقد كان يجد متعة كبيرة في الاختلاط بالناس والاستماع إلى شكاويهم شخصيا. وبذلك كان يزيد من شعبيته لدى الجموع479. حتى بات الكل ينظر إليه باعتباره وريث العرش. والأهم من ذلك كله أنّ المشتكين من استمرار انخفاض قيمة الأكجة وغلاء المعيشة ، وكل من لديه مبرراته لمعارضة الإدارة الحالية في الحكم ، كان هؤلاء جميعاً يجدون لهم ملاذاً إلى جوار مصطفى ، ويعتبرونه مرشح العرش الأفضل والمخلص القادم. ومن المؤكد أنّ الحماية التي يوفرها الأمير مصطفى لهؤلاء ، كانت تمنح خصومه الفرصة الأمثل لاستغلالها ضده.

ويورد سفير البندقية نافاغيرو في الخصوص ، بأنّ مصطفى كان يحظى بقبول أكبر من بقية أشقائه ليكون الحاكم المستقبلي ، وعلى عكس السلطان والصدر الأعظم كان الإنكشارية يرغبون في رؤيته جالساً على العرش ، حيث تمتع بصيت عظيم بين صفوفهم ، ويضيف السفير بأنه ورغم هذا التأييد الكبير ، فمن الغريب عدم قيامه بأي تحرك ضد والده.

أما الأمير بدوره فقد اقتنع أنّ البدء بتحرك مضاد قد حان وقته ، بعد تفضيل أشقائه عليه ، وعدم توفر الفرصة المناسبة للقاء والده والتفاهم معه ، إضافة إلى احتمال سقوطه من حسابات الحكم ووراثة العرش.

وكانت أولى خطواته هي اللجوء إلى أمير أمراء الأناضول أياس باشا ، طالباً مساعدته في حقه الشرعي لتولي العرش من بعد والده. 480 وبذلك فقد بدأ استعداداته من أجل ضمان وصوله للعرش ، مقتدياً بجده السلطان يافوز سليم. وبسبب عدم اشتراك السلطان الذي كان يقاسي آلام مرض النقرس خلال تلك الفترة في الحملات العسكرية ، فقد شاع بين صفوف الجيش بأنّ السلطان بات عجوزاً ، وراجت التقولات التي تقول بضرورة خلعه عن العرش وإرساله إلى ذيذيموتيخو.

وهذا ما كان عليه الواقع ، فمع انتهاء التحضيرات لحملة إيران نهاية العام ألف وخمسمائة واثنين وخمسين ، لم يخرج السلطان على رأس الحملة ، بل عين رستم باشا قائداً للجيش. ولكن الباشا وبسبب خشيته من مصطفى ومن تحركات الجيش فقد أرسل إلى السلطان ليعلمه بأنّ مصطفى بات يستعد من أجل الاستيلاء على العرش.

لم يصدق السلطان سليمان القانوني هذه الأخبار التي كان ترده منذ سنوات ، ولكن الوضع كان يبدو مختلفاً هذه المرة. ومن الوارد أنه اقتدى بالمقولة التي تقول «إنّ شيوع الفكرة ، أسوأ من تحققها» ، ولم يعد لديه شك بعد التطورات الأخيرة بأنّ مصطفى ينوي التمرد عليه بالفعل.

وربما بات يؤول الكلمات التي قالها سابقاً الأمير في سبيل خدمته ، بطريقة معاكسة. حيث كان مصطفى قد وعد السلطان بأنه لو تم تعيينه قائداً للجيش ، سيضع إيران برمتها تحت قدمي والده.

أيا سلطاناً يطل مجده على الدنيا كالشمس

مرادي الهجوم على الروافض ودك عروشهم

بإذن الله ستفتح أبواب النصر والفتح للعباد

فإن كنتُ قادراً على هذه الخدمة لمَ المشقة ؟

يا ظل الله على الأرض وصاحب الملك

فلينعم الله تعالى عليك بالسرور حتى الأبد

امنحني الإذن يا مولاي لتسيير الجيوش

فإن كنتُ قادراً على هذه الخدمة لمَ المشقة ؟

وإن لم يهرب العدو من ميدان الوغى سيفنى

وإن لاذ بالفرار ستضيق عليه الدنيا على رحبها

اعطف علي مولاي وأجِز لي أن أسير بجندي

فإن كنتُ قادراً على هذه الخدمة لمَ المشقة ؟

فلن تنام عيوني ولن يرتاح البواسل حولي

ما لم نعد إلى بابك برايات النصر العالية

والحمد الله فنحن لا نخشى بفضلك الأعادي

فإن كنتُ قادراً على هذه الخدمة لمَ المشقة ؟. .481.

وبذلك فقد قامت الأخبار المتلاحقة الواردة من رستم باشا ، بتأكيد الشكوك التي كان السلطان يحاول طوال سنوات دفعها عن ذهنه ، ولم يعد لديه أي شك في أنّ ابنه مصطفى انتقل إلى مرحلة التحرك من أجل الاستيلاء على منصبه ، فحصل على الفتوى اللازمة لقتل ابنه من المفتي أبو السعود أفندي. وقد انطلق السلطان مغادراً من أوسكودار

في الثامن والعشرين من آب العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين ، وبلغ منطقة آك تيبة القريبة من إريغلي في قونيا ليقيم معسكر جيشه ، وذلك في الخامس من تشرين الأول.

وفي اليوم ذاته توجه الأمير مصطفى على رأس قوة عسكرية تعدادها خمسة آلاف جندي ، مجهزة بشكل جيد نحو الموقع ذاته. وفي اليوم التالي تحرك لزيارة والده في الخيمة الهمايونية ، دون أن يلقي بالا للتحذيرات حول التخطيط للتخلص منه.

وما أن ترجل عن حصانه ، سلّم سيفه وخنجره بناء على طلب أحد الحراس ، ومن ثم دخل الخيمة لتقبيل يد والده ، ولكنه لم يجد سوى الجلادين الصمّ[482] في انتظاره هناك ، حيث انقض عليه سريعاً سبعة جلادين من أجل القيام بخنقه ، وقد نشب صراع عنيف بين الطرفين ، حتى أنّ الأمير تمكن من النجاة لوهلة ، ولكن أحد مصارعي القصر ويُدعى زال محمود ، تمكن من الانقضاض عليه وأمسك به ، وبذلك تمكنوا من لفّ الحبل حول عنقه وخنقه[483].

وبحسب المصادر الإيطالية المعاصرة ، فقد وضع جثمانه على سجادة إيرانية ، في إحالة واضحة لتعاونه مع الشاه ، ليعرض أمام الخيمة الهمايونية ، ومن ثم أخذ الجثمان إلى إريغلي لإقامة صلاة الجنازة عليه ، ليتم إرساله من هناك إلى بورصة ويوارى الثرى في مقبرة مراد الثاني.

كما صودرت كل أمواله وممتلكاته الموجودة في معسكره ، وأعقب ذلك قتل أمير الإسطبل وقسم من رجاله أيضاً ، وقد أُرسلت والدته ماهي دِفران إلى بورصة.

أحدث قتل الأمير مصطفى رد فعل بالغ الشدة في المعسكر ، حيث ألقى الإنكشاريون المسؤولية بشكل علني على رستم باشا ، وطالبوا السلطان بمعاقبته. حتى أنّ الشعراء قد خلدوا هذا الاتهام في مصراع بيت يشير إلى «مكر رستم»[484].

وخاصة مرثية يحيى تاشليجه لي التي انتشرت بسرعة انتشار النار الهشيم لتتداولها كل الألسن:

لقد أدى بهتان الكاذب وحقده الخفي

إلى تهاطل دموعنا لنحترق بنار الهجران

وغدا بعض من أهل الفتنة سيفا

وغدت بضع رسائل مزورة سهام القتل

وذلك في إشارة واضحة إلى رستم باشا. 485

وقد أسفر هذا الوضع المعادي لرستم باشا إلى قيام الحاجب أثناء اجتماع الديوان بأخذ المهر الهمايوني من رستم باشا ، ومن ثم أوضح بضرورة عودة كل الوزراء إلى خيامهم بناء على أوامر من السلطان. حيث تم منح المهر الهمايوني إلى الوزير الثاني أحمد باشا ، ليتقلد منصب الصدارة486.

حقيقة لقد كان لقتل مصطفى وقع بالغ الأثر على طبقات واسعة من جموع الشعب التي استاءت وشعرت بحزن كبير ، ومن المحتمل أنّ رواج المراثي الشعرية التي كتبها الشعراء في رثائه قد لعبت دوراً في هذا الشعور[487].

فالأبيات التي ألفها يحيى تاشليجه لي الذي كان يرافق الجيش في تلك الأثناء ، انتشرت بسرعة محمومة في أوساط العسكر وتسببت في عزل رستم باشا.

مدد مدد فقد انهارت إحدى دعائم الدنيا

مذ أن غيب الأجل مصطفى خان

غاب البدر جميل المحيا عن المجالس

وألمّ الوبال والبلاء بآل عثمان

أكاذيب الماكرين وكيد المنافق

أحرقت الفؤاد وأسعرت نار الهجران

فليت عيني لم تشهد هذا المصاب

فواأسفي على من أذاقه كأس المنون

وفي بقية هذه المرثية يمدح يحيى تاشليجه لي الأمير مصطفى بالكلمات التالية:

فريد العصر كان عالماً وعليما

وموته كان لأمة محمد مصاباً جليلا

كان خير الأمراء على خلق عظيم

زاهداً تقياً عميق الإيمان قوي المعتقد

رفيق المشايخ أنيس مجالس العقل

كريم النفس يزدان بأعظم الأخلاق

كنجم في سماء الليل تراه العين

وتبتهج لحسن قوامه وجمال خُلقه

ولكنه إن ألقى التحية تواضع أدباً

فهل للبدر في تمامه أن يبلغ كماله ؟

فواأسفاه لمن كان ضحية الغدر

ولكنه سينعم برحمة الله تعالى ونعيمه488.

وعندما عاد رستم باشا إلى منصب الصدارة لاحقا ، أراد قتل يحيى تاشليجه لي ، ولكن السلطان سليمان القانوني منعه عن ذلك بالقول:

«لا تلقي بالا بما يقوله أمثال هؤلاء ، وإياك أن تفكر بالانتقام منه».

لذا قام رستم باشا باستدعاء يحيى لرفع هذه التهمة عنه ، وربما كان يريد دفعه لارتكاب خطأ ما وبالتالي استصدار الفتوى لقتله ، حيث خاطبه بالقول:

«إنه السلطان ، وقد قتل ابنه من أجل الحفاظ على نظام العالم (السلطنة) ، كما أنّ المفتي قد أصدر الفتوى الواجبة لقتله. فكيف لمثلك أن يقول هذه الكلمات ؟ وكيف تتجرأ على اتهام السلطان بارتكاب خطأ ، وتزعم أنه جانب الصواب ؟»

فرد عليه الشاعر:

«لقد متنا مع من ماتوا ، وبكينا مع من بكوا ، ولكننا لم نعلم ما الجرم في ذلك ؟» ، فعلق الباشا بالقول:

«لا أعلم ، ولكنك بدأت تردد تلك الترهات وذكرت فلاناً في اتهاماتك ، وافتريت على بعضهم الآخر ، فما ردك على ذلك ؟» ليرد عليه يحيى بيك:

«إنّ القول بأنّ الذنب يعود إلى أهل الفتنة ، خير من القول بأنّ السلطان قد أخطأ. وهذا ما دفعني إلى تأويل كلامي بهذا الشكل»[489].

وعلى إثر هذه الإجابة ، خشي رستم باشا إن عارضه ، أن يتم تأويل كلامه بأنه يتهم السلطان بارتكاب الخطأ ، لذا فقد عمد إلى إنهاء الموضوع وترك الشاعر وشأنه.

ومن جهة أخرى فإنّ الشاعر سامي الذي اعتبر أنّ مصطفى كان يبذل كل جهده من أجل إرضاء والده ، وأنه كان ينوي الانتقام من الصفويين ، خاطب القانوني في هذه الأبيات:

كان ينوي الثأر فاصطبغ رأسه بالدماء

فكيف ضحيت بابنك وبأي ذنب قتلته

ألا تعلم من الذي كان السبب يا مولاي

فما الذي دفعك لقتل مصطفى يا سلطاني[490].

أما رحمي جلبي فيعبر عن الألم العميق الذي اعتصر روحه إثر الحادثة من خلال هذه القصيدة:

كان موته مصاباً ألمّ بكل الكائنات

حين التف حبل الموت حول عنقه

فلا تغتر بالدنيا وما عليها فأولها

بكاء وآخرها زوال وربيعها زائل

كانت زلة وعثرة لدولة العالم

أودت بفخر السلطنة وأميرها

المكر كان السبيل لها وسيفها

الظالم الذي أودى بخيرة البنين

فغاب السرور والسنا في حزن المآتم

واكتست السماء بالحزن والأرض بالسواد

فمن سمع يا ترى بهذا المصاب الجليل

وشهد مقتل الأبناء فهل هذي حال الدنيا ؟491.

كما أنّ الشاعر فضلي الذي كان ضمن حاشية الأمير التي ضمت العديد من الشعراء والعلماء ، فيعبر عن مشاعره هو وأصدقائه إزاء المصير المفجع لولي نعمته بالكلمات التالية:

يا إلهي كيف للبدر المهيب أن يزول

ويغدو هلالاً بعيداً تبكيه العيون

وكيف لمن كان السعد طالعه والمجد

أن تجعله المنون يغدو أثراً بعد عين

فتذرف الأحداق دماً وتنزف القلوب

فأي قدر أليم هذا الذي ألمّ بنا

حتى غدا السرور والبهجة ذكرى

لا تمرّ بنا بعد هذه المصيبة

فليكن مثواه يارب جنان الخلد

وليكن مسكنه مع الأبرار الصالحين[492].

كما أنّ موت مصطفى شكل أحد أكثر المواضيع التي اشتغل عليها الكتاب الأوربيون في تلك الحقبة ، حيث غدا موضوعاً للتراجيديات والأوبرات. كالمسرحية التراجيدية التي كتبها بروسبيرو بوناريللي وت. تاسو[493] بعنوان (سليمانو) ، وأوبرا أيضاً تحمل اسم (سليمانو) من تأليف ج. أمبروجيو (G. Ambrofio) وم. أ. فالنتيني (M. A. Valentini)[494].

وما مصدر الروايات التي تدور حول لقاء القانوني والأمير قبيل مقتله ، والكلام القاسي الذي وجهه الأب لابنه ، أو قيامه بمراقبة عملية القتل من إحدى الغرف الداخلية للخيمة ، سوى نتاج خيال محض لأصحاب هذه المسرحيات والأوبرات.

وقد أقيم ضريح على قبر الأمير مصطفى بعد اعتلاء سليم الثاني للعرش ، كما أنه منح السيدة ماهي دِفران والدة الأمير مصطفى مساعدات مالية ، وبعض الممتلكات.

أما المعلومات الواردة في المصادر العثمانية حول قيام القانوني بقتل الأمير مصطفى الذي كان يحظى بمحبة واسعة من أطياف الشعب ، فهي تذكر الدور الذي لعبه رستم باشا سواء بشكل علني أو خفي في حادثة القتل هذه. وكون الأخير كان متزوجاً من السلطانة ميهريماه ابنة السلطانة هُرَّم ، فإن فرضية الاتهام هذه تنسحب على كل من

السلطانتين أيضاً. وبالتالي فإنّ الكتب التاريخية التي كتبت في القرن الأخير ، والأفلام المترجمة والروايات ، تحاول إظهار الحادثة كإحدى مؤامرت القصر حاكها أقطاب ثلاثة ؛ رستم باشا ، السلطانة هُرَّم ، والسلطانة ميهريماه[495].

والغريب بحق أنّ المؤرخين أيضاً لم يخرجوا عن نطاق هذه الفكرة ، ومن الواضح أنّ نهاية الأمير مصطفى الحزينة قد أثرت عليهم ، بحيث دفعتهم لتقييم الموضوع من الزاوية ذاتها.

والحقيقة أنه وفي عرف السلطنة العثمانية تعتبر حماية الأم لأبنائها من أكثر الأحداث الطبيعية والمألوفة ، ولو أنّ القانوني قد ضحى بابنه بتحريض من السلطانة هُرَّم ، فاللوم هنا يقع على القانوني أكثر من أي أحد آخر.

ولكن تورط رستم باشا باعتباره أحد رجال الدولة ، في خطة من هذا النوع ، ليس أمراً مقبولاً أو مسألة يمكن استحسانها. وبالمقابل فإنّ صحة هذا الافتراض هو أمر قابل للجدل بحد ذاته ، ذلك أنّ معظم الاستنادات المؤسِسة له تنبع من مصادر أجنبية[496]. ولابد لنا في معرض هذا الحديث توضيح الأمر من كل جوانبه ؛ فرستم باشا لم يقم بأي بادرة لإصلاح الأمور ومحاولة التقريب بين الأب وابنه ، ولعل هذا هو المبرر الوحيد الذي يمكن على أساسه تسويغ الاتهام الذي وجهه المؤرخون العثمانيون للباشا باعتباره المسبب للحادثة.

كما لا يمكن التغاضي بالمقابل عن قيام مصطفى ببعض الفعاليات المحظورة عليه ، وذلك بتحريض من بعض حاشيته ورجال الدولة المحيطين به. فقد دفع به هؤلاء إلى القيام ببعض المبادرات التي من شأنها أن تمهد له السبيل إلى السلطة في ظل الظروف السائدة. ولا نستبعد بالطبع انصياع مصطفى الذي فقد حظوته لدى السلطان ، لهذه التحريضات والانخراط في هذه النشاطات. ورغم أنّ السلطان القانوني قد استبعد احتمال أن يكون الأمير متورطاً في هذا النوع من الحركات منذ سنوات طويلة ، فإن مراسلة مصطفى لأياس باشا على وجه الخصوص ، كانت السبب في رفع سوية هذه الاحتمالات.

ولكن الأكيد أنّ حصول السلطان سليمان القانوني في النهاية على فتوى من العلامة الكبير أبو السعود أفندي لقتل الأمير مصطفى ، دليل دامغ على وجود وثائق مثبتة وكافية لإقناعه وإقناع المفتي على حد سواء.

لذلك وباحتساب تأثير كل من رستم باشا والسلطانة هُرَّم والسلطانة ميهريماه على القانوني ، لا يجب أن نغفل عن الفعاليات التي تورط فيها الأمير مصطفى ، والتي كانت كافية لإقناع والده بهذه الادعاءات المضادة له.

أما جلال زاده مصطفى جلبي فيوضح أنّ ملابسات الحادث ومسبباته مجهولة عن الجميع حيث يورد «فبعد إيراد كل التقولات التي راجت بين الناس ، الصحيح منها والخاطئ ، فلا يسعنا القول سوى أنها إرادة الله وحكمه ، وما علينا سوى الرضا والقبول ، والدعاء للسلطان والدولة بالبقاء».

هذي أحوال دنيا الفناء

وما لأحد فيها من بقاء

وكل من قدرت له الحياة كان

الموت إلى جواره على الدوام

وكمال الدول يشي بزوالها

كما يحين ذبول الوردة بعد إزهار

فالحقيقة أنّ هذه الدنيا مأتم

فلا نفع من التعلق بملذاتها

وكل ما وجد فيها من خلْق

قد خُلق ليزول في يوم من الأيام

فهذا ما تقوله القبور يا فيغاني

فعمر الوردة قصير الأجل[497]

حملة ناخيتشيفان (1553- 1555)[498].

بعد هذه الحادثة أذن القانوني بعودة مبعوث الشاه الإيراني ، وقرر قضاء فصل الشتاء في حلب ، كما أمر بتوجه قوات الأمير سليم إلى ثكنات مرعش ، وقوات روميلي إلى ثكنات توكات. وأثناء إقامة السلطان في حلب توفي الأمير جيهانغير.

ولد الأمير جيهانغير في العام ألف وخمسمائة وواحد وثلاثين ، وكان أصغر أبناء القانوني وهُرَّم ، كان عليل الصحة ، حيث خضع لعملية في عظام كتفه وهو صغير. ولهذا السبب لم يتولَّ إمارة أي سنجق ، بل كان على الدوام يرافق والده. وكان القانوني وزوجته يوليان هذا الأمير الذي يتمتع بذكاء حاد ومستوى عالٍ من العلم والأخلاق والذي لم يفارقهما ، اهتماما كبيراً وعناية ومحبة كبيرة. وكانت السلطانة هُرَّم تصطحبه معها حين زيارة أخويه في سنجقيهما ، كما اعتاد القانوني أن يصطحبه معه في حملاته العسكرية.

رافق والده خلال حملة ناخيتشيفان ، وكان لمقتل أخيه الأمير مصطفى الذي يكن له محبة كبيراً ، وقع شديد الأثر على نفسه ، حيث اشتدت وطأة المرض عليه وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره ، وتوفي قبل مضي وقت طويل وذلك في تشرين الأول العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين. وبعد إقامة الصلاة على روحه ، قام القانوني بتوزيع ما لا يحصى من الصدقات على الفقراء ، ومن ثم أرسل جثمانه مع أحد آغوات باب السعادة[499] إلى إسطنبول ، حيث دفن إلى جوار أخيه محمد[500].

وقد أجرى القانوني الذي قضى فصل الشتاء في حلب ، العديد من الإصلاحات المالية في المنطقة ، حيث أمر بالقضاء على الاستغلال الواقع من قبل جباة الضرائب ، وبسبب الحزن الذي ألمّ به جراء وفاة الأمير جيهانغير ، قام باستعداء الأمير سليم الذي كان يعسكر في مرعش لقضاء الشتاء ، ليصطحبه معه في جولات صيد في منطقة حماة ومعرة النعمان.

في التاسع من أيار العام ألف وخمسمائة وأربعة وخمسين ، غادر القانوني حلب ووصل ديار بكر عن طريق أورفا ، وأمر بعقد اجتماع موسع للديوان. وعلى خلاف المعتاد ، لم يقتصر الديوان على أعضائه فقط بل دُعي آغوات الفرق العسكرية ، وكيل الإنكشارية ، الكتبة ، قادة فرق المشاة ، قادة الأفواج ، قادة الثكنات ، وكلاء المالية ، الحرس العُسر ، كبار السن من أفراد الفرق. . اجتمع الآلاف من الرجال واصطفوا للمثول بين يدي السلطان ، وقد مثلت كل زمرة منهم أمام السلطان الذي كان يسألهم عن أحوالهم ومشاكلهم ، ومن ثم يعرض أمامهم أسباب الحملة موضحا أنّ تجاوزات الشاه على بلاد الإسلام يعتبر مساساً بشرف السلطنة ، خلا ما لا يُحصى من المشاكل والمتاعب التي يسببها للبلاد والعباد ، وبأنّه يتوجب على مجاهدي الإنكشارية الذود عن الدين المبين ، والسير على دروب أجدادهم العظام بهمة وعزم ، كما أعرب عن رغبته في أن يبذلوا كل ما في وسعهم من جهد وطاقة ، ووعدهم بأنّه سيكافأ الأبطال ممن يتفانون في هذا السبيل بأجزل العطايا.

وقد كان لكلماته وقع بالغ الأثر على الجنود ، حتى أنّ الجميع صغاراً وكباراً ، قادة وجنداً ، اخضلَّت عيونهم بالدموع وهتفوا في صوت واحد:

«لو أنك توجهت إلى الهند والسند ، بل لو حملت على جبل قاف ، فلن نحيد عن دربك. فالتضحية في سبيل السلطان طريق السعادة في الدنيا والآخرة. وكل ما تأمرنا به مطاع»[501].

في العشرين من أيار توجه السلطان من ديار بكر إلى محيط أرضروم ، وبعد اجتياز الجسر الذي أقيم على نهر مراد وصل إلى بينكُل[502] ، وفي حزيران بدأ توزيع الذخيرة على الجنود في الموقع المسمى كارغابازاري. ثم بدأت القوات العبور بشكل رسمي أمام السلطان بحسب تراتبيتها ؛ الصدر الأعظم أحمد باشا ، الوزير الثاني سيميز علي باشا ، يليهما قوات روميلي ، قرمان ، سيواس ، ذو القادر ، وبقية الأمراء والولاة بالإضافة للأمير سليم على رأس قواته.

وبعد أن تحددت وجهة الحملة ، بدأ الجيش بالتقدم نحو الحدود ، حيث بلغ بادية قارص في الخامس من تموز ، وهناك بعث السلطان برسالة إلى الشاه طهماسب ، والتي تستحضر الرسالة التي بعثها السلطان سليم خان سابقاً إلى الشاه إسماعيل ، في دعوة صريحة إلى الحرب. وبالاستناد إلى الفتوى التي أصدرها علماء الدولة العثمانية التي أرفقها مع رسالته ، كان القانوني يدعوه إلى العودة لشريعة الرسول ، وفي حال لم يقبل بهذا العرض ، فهو يدعوه إلى القتال ، وقد زين دعوته هذه بآيات من القرآن الكريم ، ومن أجل استفزازه فقد أوضح له بأنه «لو كان يملك مقدار حبة خردل من الشرف والجرأة ، وذرة من الرجولة» فعليه الخروج ومواجهة الجيش العثماني ، وإن كان يخشى المواجهة بسبب البنادق والمدافع العثمانية ، فهو على استعداد لمحاربته بالسيوف والرماح فقط.

وهكذا أرسل السلطان قواته إلى كل من مناطق يريفان ، ناختيشيفان وقره باغ[503] ، وتمت السيطرة على بلدات شورِجيل (Şuregil) ، شراب خانه (Şarabhane) ونيلفراك (Nilfrak) ، حتى بلغوا في الثامن عشر من تموز يريفان المزدانة بالقصور الباذخة لكل من الشاه وابنه وبقية الخانات والسلاطين ، بالإضافة لمنطقة باذخة تُسمى باغي سلطانية (الحديقة السلطانية) ، ومن هناك وصلوا إلى آرابجاي وفي اليوم التالي بلغوا قصر كارا حيصار القريب من ضفاف نهر أراس. [504]

وحين وصل الجيش منطقة قره باغ ، بدأ الأهالي بالهروب إلى المناطق المجاورة ، وقد خبؤوا كل ممتلكاتهم الثمينة. وأخيراً وصل السلطان نهاية تموز إلى ناخيتشيفان ، حيث تم الاستيلاء على قصور وأموال وممتلكات أمراء الصفويين والإيرانيين ورجال دولتهم. وبذلك اكتفى السلطان بعد أن أخذ بثأر الدمار والسلب الذي قام به الشاه طهماسب سابقاً في مناطق أخلاط وإرجيش وآديلجيفاز.

أما الشاه الذي انسحب إلى جبال اللور[505] ، فلم يجد في نفسه الجرأة الكافية هذه المرة أيضاً لمواجهة السلطان العثماني الذي أعطى أوامره بالعودة[506].

في السادس من آب وحين وصل السلطان مع جيشه إلى جوار قلعة بيازيد[507] ،

وصلت رسالة من الشاه طهماسب إلى الصدر الأعظم ، والتي أوضح فيها بأنّه لن يخرج لمواجهة السلطان حتى لو توجه صوب الشرق عشرات المرات ، وأكدّ بأنه سيدخل الأراضي العثمانية بعد انسحاب الجيش ، ويعامل رعاياهم بالأسلوب ذاته.

وفي هذه الأثناء وصلت أخبار من حاكم العمادية سلطان حسين بيك ، تفيد بتحقيق انتصارات على الإيرانيين في كل من مراغة وتبريز وسِهِند[508] ، كما نجح في التصدي لبعض الأمراء الإيرانيين الذين كانوا يستعدون للهجوم على بغداد ، وقد أرسل الرايات والنقّارات والسناجق التي استولى عليها منهم إلى السلطان.

وبينما كانت تحدث بعض المناوشات المتفرقة بين الطرفين ، كانت المراسلات تتواصل بين وزيري الدولتين. وفي منطقة جوبان كوبروسو[509] القريبة من باسينلار (حسن قلعة) استقبل السلطان واليي كل من دياربكر ووان اللذين جاءا لتقبيل يد السلطان ، ومنحهما الخلع بسبب البطولات التي أبداها كل منهما.

مع تبادل الرسائل بين وزيري الدولتين والمباحثات التي أعقبتها ، بدا وكأنّ الثلوج المتراكمة على العلاقات بين الطرفين آخذة في الذوبان ، وتحتل الرسائل المبعوثة من قبل الوزراء العثمانيين إلى الشاه طهماسب مكانة بالغة الأهمية لطرحها وجهة نظرهم الدينية ، حيث جاء في بعض منها:

«تدعون أنكم حماة الإسلام والإيمان ، وتخطون آيات من القرآن الكريم في رسائلكم ، ولكن بلاد السلاطين (العثمانيين) الذين هم أهل الإيمان ، تزخر بالجوامع والمساجد التي يؤمها المسلمون جماعة ويصدح منها صوت الأذان خمسة أوقات في اليوم. وتقام فيها صلوات الجمعة وتلقى فيها الخطبة من على المنابر ، ويصلى فيها على خير الأنام وعلى آله وأصحابه. فأنصفوا الحكم وأخبرونا هل من آثار للدين والإسلام في ما تقومون به من أفعال ؟ وما الذي يقال عن بلاد لا تسير وفق قوانين الشرع الشريف ؟ فأنتم لا تعرفون ما هو الإيمان والإسلام ، وهل يكفي الرجل من الدين أن يقول بأنه مسلم حتى يكون مؤمناً ؟ لقد مضى على ظهور الدين المحمدي تسعمائة وواحد وستون عاماً ، أما المذهب الذي استحدثتموه فلم يمضِ على ظهوره خمسون عاماً. أفلا تتفكرون ؟ أين كان هذا الدين الذي اتبعتموه طوال هذه السنوات ؟ إنّ ما تقومون به مخالف لشريعة نبينا الكريم الشريفة. أفلا يكون من اتبع هذا المذهب المستحدث الذي لا يستند على أسس شرعية كافراً ؟ أفلا تخجلون من جناب رب العالمين ؟ وما الذي ستردون به يوم القيامة ؟»[510]

وبينما كان القانوني يقيم في أرضروم ، وصل إلى معسكر الجيش في السادس والعشرين من أيلول العام ألف وخمسمائة وأربعة وخمسين شاه كولو آغا المبعوث الإيراني ، حاملا رسالة تتضمن من العبارات ما يليق بكلا الحاكمين ، وحين مثل أمام السلطان قام بتقبيل يده ، وقدم له رسالة الشاه. وبذلك تم السماح ببدء مباحثات تهدف لعقد السلام وإنهاء العداوة بين الطرفين. كما عاد المبعوث برسالة همايونية إلى الشاه.

وفي الثلاثين من أيلول غادر السلطان أرضروم متجهاً نحو سيواس التي وصلها بعد عشرين يوماً ، ومن هناك توجه إلى أماسيا التي بلغها بعد اثني عشر يوماً. حيث أمر قوات الكابى كولو ، وقوات الإيالات بالعودة إلى ثكناتهم ، كما منح الزعماء علاوة مائتي أكجة بالألف ، ومائة بالألف لأصحاب التيمارات (السيباهية) ، وعين سوكولو محمد باشا أمير أمراء روميلي وزيراً. وقد مكث السلطان في أماسيا ذلك الشتاء ، وإلى جانب انشغاله ببعض الشؤون السياسية والإدارية ، فقد كان يقضي بقية أوقاته في الصيد حتى حلول الربيع.

وكان يريد أن يبرهن من خلال بقائه في أماسيا شتاءً دون العودة إلى إسطنبول ، على جدية تهديداته في إعادة جمع جيشه في الربيع من أجل شن هجوم على كل من إردبيل وتبريز وتدميرهما. ما دفع طهماسب إلى البحث عن كل السبل لإبرام اتفاقية السلام.

وبذلك وصل إلى أماسيا مبعوث الشاه قائد الحرس فروخ زاد بيك في العاشر من أيار العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين ، محملاً برسالة من الشاه وعروض جديدة لعقد السلام بالإضافة للعديد من الهدايا القيمة.

كان الشاه في رسالته يشير إلى قبوله ببالغ الاحترام الرسالة السابقة التي بعث بها السلطان إليه ، ويطالب بإبقاء باب التفاوض مفتوحاً باستمرار من أجل عقد سلام دائم بين الطرفين ، موضحا بأنها خطوة ضرورية من أجل عقد الأواصر بين الشعبين ، وتأمين استقرار المنطقة وأمنها ، وكان يرجو السماح للحجاج الشيعة بزيارة الكعبة وبقية الأماكن المقدسة أيضاً. وقد تلقى فروخ زاده معاملة لائقة ، وتم تسليمه رسالة همايونية مختصرة للرد على رسالة الشاه ، تتضمن شروط الموافقة على عقد اتفاقية السلام ، وذلك في الأول من حزيران العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين.

وتعتبر تلك أول رسالة تتعلق بعقد معاهدة سلام بين الدولتين العثمانية والإيرانية. وقد تعهد السلطان سليمان القانوني بقبول طلبات الشاه الواردة ، كما شدد على ثلاثة شروط اعتبرها أساسية من أجل عقد الصلح وأواصر الصداقة بين الطرفين ، والتي تعهد المبعوث بالموافقة عليها ، وهي:

- حظر كل أشكال السباب التي تطال الصحابة الكرام الثلاثة من الخلفاء الراشدين ، وأم المؤمنين عائشة ، ومنع تحول الأمر إلى شعيرة دينية في إيران.

- امتناع أمراء الولايات العثمانية الحدودية من القيام بأي اعتداء أو تجاوز للحدود ما لم يتعرضوا لاعتداء أو هجوم من الطرف المقابل.

- السماح للحجاج من القزلباش بأداء فرائض الحج في أمان وطمأنينة[511].

منذ تأسيس الشاه إسماعيل للدولة الصفوية ، ورغم فترات الهدنة الكثيرة التي تخللت الاعتداءات بين الدولتين ، لم يتم التوصل إلى اتفاقية مكتوبة بين الطرفين. ولكن السلطان القانوني ومن خلال هذه المعاهدة التي تم توقيعها في أماسيا ، استطاع توطيد حدود أماسيا وتحديدها بشكل واضح.

خلال تواجد السلطان القانوني في أماسيا ، وصل سفراء كل من البندقية وفرنسا وبولندا ، لإبلاغ السلطان بتهنئة حكّامهم حول حملة ناخيتشيفان التي انتهت بتوقيع اتفاقية السلام. وبعد أن وافق السلطان على لقائهم ، غادر أماسيا نهاية حزيران ووصل أوسكودار في الحادي والثلاثين من تموز العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين.

وقد شهدت القرم بعض التغيرات في آخر سنتين ، فقد كان صاحب غيراي بن منجلي غيراي الذي يحكم خانية القرم منذ العام ألف وخمسمائة واثنين وثلاثين يحظى بدعم كبير من السلطان القانوني ، ولكنه درج في السنوات الأخيرة على عادة التخلص من كل أعدائه ومنافسيه القريبين والبعدين على حد سواء.

وقد استاء الوزراء العثمانيون من هذا الوضع ، وكان آخر ما ينوي القيام به هو التخلص من ابن أخيه دولت غيراي الشخصية المحبوبة جداً والمقيم في إسطنبول ، ، وذلك عن طريق تعيينه على خانية أستراخان512. وبذلك فقد حظوته لدى السلطان من خلال هذا التصرف ، فقام قاسم باشا والي فيودوسيا (كِفِة) ، بناء على الأوامر التي تلقاها بقتله مع أبنائه خلال عودته من حملته على شركيسيا513 ، وفي العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين ، عيّن مكانه دولت غيراي الذي ترعرع في إسطنبول ، وكان والياً للعهد خلال فترة حكم سعادة غيراي514.

أما الأفلاق فكان بيترو يحكمها منذ العام ألف وخمسمائة وخمسة وثلاثين بدعم من العثمانيين ، وقد تولى الحكم بعده ميرسيا الثالث في العام ألف وخمسمائة وخمسة وأربعين ، والذي بدأ مؤخراً اتباع سياسة مؤيدة لفرديناند ، ليتم عزله على إثر ذلك وإرسال بيترشكو بن رادول لتولي منصبه في شباط العام ألف وخمسمائة وأربعة وخمسين515.

وفي البغدان انتقلت إدارة البلاد إلى ألكسندر الثاني بموافقة من السلطنة ، وذلك

بعد مقتل ستيفان السابع في العام ألف وخمسمائة واثنين وخمسين. وفي العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين ، أشيع بأن ألكسندر بات يميل في سياسته نحو بولندا ، فتم عزله من منصبه واستدعاؤه إلى إسطنبول ، حيث نفذ هذا الأمر دون أي خوف وتوجه إلى العاصمة ، مبدداً بذلك الشائعات التي أثيرت حوله ، ليعود إلى منصبه الذي استمر فيه حتى العام ألف وخمسمائة وواحد وستين516.

وقد تزامنت هذه الأحداث مع واقعة مصطفى المحتال ، وذلك في آب من العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين ، حين ظهر شخص مجهول في منطقة دوبروجة ، وبدأ يخطط للاستيلاء على السلطة مستغلاً الشبه الكبير بينه وبين الأمير المقتول مصطفى ، ومن خلال جسارته الكبيرة وكرمه الفائق تمكن من جمع أربعة عشر ألف سيباهي حوله من إيالتي بلغاريا وتراقيا ، وقد منح بعض المقربين منه مناصب الوزارة وقضاة العسكر ، لينخرط في مغامرة بالغة الخطورة. وقد اطلع الأمير بيازيد على الحادثة الأثناء إقامته في إدرنة ، بأمر من والده السلطان لحماية روميلي ، خلال خروج هذا الأخير على رأس حملة إيران. فأرسل الأمير قوة عسكرية من أجل القضاء عليه ، ومع توجه السلطان إلى أماسيا علم بالأمر من خلال تقارير ولاة سناجق روميلي وقضاتها ، ما دفعه حال بلوغه إسطنبول إلى تكليف الوزير الثالث سوكلو محمد باشا بحل هذه المشكلة. وخلال وقت قصير أحاطت قوات السلطان بمصطفى المحتال من كل جانب ، فأخذ رجاله المقربون بالاستسلام لمحمد باشا حفاظاً على حياتهم ، أما هو فقد أعدم في إسطنبول. كما تم القبض على بقية قادته وأعوانه الواحد تلو الآخر ليتم قتلهم جميعاً517.

وفي العام نفسه وقعت حادثة أخرى ، وهي إعدام الصدر الأعظم أحمد باشا في الثامن والعشرين من أيلول. جاء أحمد باشا إلى القصر عن طريق نظام الدوشيرمة وفيه ترعرع ، وتدرج في المناصب من قائد للحرس إلى أمير أمراء روميلي ، ليتقلد منصب الوزير الثاني. وأثناء تقلده الوزارة تمكن من السيطرة على تيميشوارا لينال لقب فاتح تيميشوارا. وفي العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين وبعد عزل رستم باشا من الصدارة بعد مقتل الأمير مصطفى ، تبوأ منصب الصدر الأعظم. 518

كان أحمد باشا يعتبر سميز علي باشا أكبر منافس له ، ما دفعه ومنذ توليه منصب الصدارة بذل العديد من المجهودات في محاولة التقليل من شأنه وزعزعة مكانته لدى السلطان ، ومن جهة أخرى كان يحاول إثبات أنه أكثر خبرة وحنكة من سلفه رستم باشا في ملء خزينة الدولة. وقد أمر دوكاكين زاده محمد باشا الذي عينه بدلاً من سميز علي باشا ، بأن يرفع الضريبة السنوية الواردة من مصر إلى أقصى ما يمكن ، فقام الوالي الجديد بإرسال مائة وخمسين ألف دوقة زائدة عن وارد مصر السنوي.

وبالطبع لم تغب هذه الزيادة عن نظر السلطان ، وحين سأل سميز علي باشا الذي كان في تلك الفترة وزيراً في الديوان الهمايوني عن سرّ هذه الزيادة ، أوضح له الباشا بأنّ والي مصر السابق كان يدير البلاد حسب القوانين والأحكام الواجبة ، دون فرض ضرائب جديدة قد تكلّف الناس مشقة كبيرة لا قبل لهم بها وتسبب في مظالم جمّة ، ما جعل القانوني يأمر بإجراء تحقيق للوقوف على حقيقة الموضوع.

كما اتضح بأنّ أحمد باشا قد ارتكب بعض المكائد ليسقط سميز علي باشا من نظر السلطان ، وبحسب ما ورد في المصادر فقد تعهد له القانوني حين منحه منصب الصدارة بألا يقوم بعزله ، وبذلك تم إعدامه دون عزله من المنصب519.

أما المؤرخ بيجفي فيصفه بأنه كان شخصاً منصفاً ، عادلاً ، صادق الوعد ، يحترم أصحاب الحق ، ونتيجة للظروف المصاحبة لتوليه هذا المنصب520 تكاثر الأعداء والخصوم من حوله ، ما عجل من نهايته المحتومة. ويشير بيجفي ذاته في موقع آخر بأنّ أحمد باشا وأثناء حملة إيران الأخيرة ورغم ضخامة القوات التي تحت إمرته لم يتمكن من تحقيق الانتصارات المأمولة ، كما أبدى بعض التقصير في أداء مهامه ، ما أسفر عن خسارته لثقة السلطان521.

ويحيلنا الباحثون إلى نتيجة أخرى اعتماداً على تاريخ البيجفي مفادها ؛ أنّ السبب الخفي الكامن وراء إعدام باشا هو رغبة السلطانتين هُرَّم وابنتها ميهرميهاه في إعادة رستم باشا إلى منصب الصدارة ، وقد استغلتا نفوذهما الكبير على السلطان القانوني لتحقيق هذه

الغاية. وفي ظلّ عدم وجود أي دلائل موثوقة ووقائع مثبتة نجد بعضاً من كتاب الغرب ومن يقتدي بهديهم من مؤرخينا ، يزجون باسم السلطانتين في العديد من المؤامرات والسيناريوهات المفترضة. 522 رغم أنه وإلى جانب انتفاء أي دليل يثبت بأنّ السلطان سليمان القانوني كان يتخذ قراراته ويتصرف سواء في هذه الحادثة أو سواها بناء على رأي النساء ومشورتهن ، فإن شخصيته أيضاً لا تتوافق مع هذا النوع من الافتراضات.

وتجدر الإشارة بأنّ أحمد باشا قد بنى كلية في منطقة توب كابي تضم جامعاً ، ومدرسة ومكتبة وسواها من الأبنية. .

الصراع مع البرتغال في المحيط الهندي

بعد عودة هاديم سليمان باشا إلى مصر استمرت الصراعات مع البرتغال الذين توغلوا في البحر الأحمر وأرادوا الاستيلاء على ميناء جدة ، لكن المقاومة الكبيرة التي أبدتها حامية القلعة ، ووصول أمير مكة الشريف محمد أبو نُمّي على وجه السرعة مع قواته لتقديم المساعدة ، حال دون وقوع الميناء في يدهم. كما أنّ محاولاتهم في الاستيلاء على ترسانة قناة السويس وإحراق الأسطول العثماني لم تسفر عن أي نتيجة ، ولكنهم ألحقوا دماراً كبيراً بمدينة الطور المصرية ، كما تمكنوا من السيطرة على مدينة عدن الميناء البحري المهم.

لم يكن العثمانيون ليسمحوا ببقاء عدن بيد البرتغال ، ولهذا فقد تم تعيين البحار المتمكن بيري ريّس قبطاناً لميناء السويس. وما أن تولى بيري ريّس منصبه حتى بدأ بإجراء تعديلات على ترسانة السويس وأتمَّ كل النواقص والاحتياجات ، وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول العام ألف وخمسمائة وسبعة وأربعين انطلق من ميناء السويس ، ليلتقي بفرهاد باشا أمير أمراء اليمن في ميناء المخاء[523] حيث أخذا في تبادل المعلومات ، وتمكن في الثاني من كانون الثاني العام ألف وخمسمائة وثمانية وأربعين من السيطرة على ثلاث سفن برتغالية ، ومن ثم بلغ شواطئ عدن في التاسع عشر من كانون الثاني العام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين[524].

ولأنّ الرياح التي تهب من جهة البر ، كانت معاكسة لهم ، قام بيري ريّس بطي الأشرعة ، وأبحر بالمجاذيف ليرسو بأسطوله في باب اليمن[525]. وبعد تقييم سريع للوضع ، أمر على الفور بإنزال القوات والمدافع على الشاطئ. وقد رفض حاكم القلعة محمد بن علي عروض التسليم معتمداً على القوات البرتغالية التي ستصل قريبا لمساعدته. وعلى إثر ذلك قام بيري ريّس بنصب مدافعه على تلة محكمة وعالية تطل على القلعة التي أمطرها بنيران القذائف لثلاثة أيام متواصلة بلياليها. وفي اليوم الرابع قامت قوات محمد بن علي بإطلاق نيران مدافعها من موقع أعلى من التلة التي تمركزت فيها القوات العثمانية.

وفي الرابع من شباط تمكنت قوات بيري ريّس بعد هجوم عنيف ، من السيطرة على الموقع الذي تموضعت عليه مدافع حاكم القلعة ، ليصبح منصة للمدافع العثمانية. وقد استمر إطلاق المدافع لثمانية عشر يوماً آخر. وأخيراً ظهر ثغر في بدن القلعة ، وتقرر الدخول من خلاله. ولكن المعلومات التي نقلها أسيران تركيان تمكنا من الهروب من القلعة ، أوضحت أنّ أنفاقاً مفخخة قد تمّ حفرها في الموقع الذي تقرر منه الهجوم ، ما دفعهم إلى إرجاء الهجوم والاستمرار في إطلاق نيران المدافع.

وبعد يومين جاء إليهم رجل كان مكلفاً بحراسة برج الشام حين كانت عدن تحت السيادة العثمانية ، وأعطاهم معلومات حول المواقع التي يتوجب شن الهجوم عليها ، وبعد التحقق من صحة ما جاء به ، تمّ شنّ هجوم في ليلة الخامس والعشرين من شباط على الجهة التي يقال لها جبل كوفي ، حيث تمت السيطرة على كافة أبراج القلعة بما فيها من مدافع.

في اليوم التالي وبعد النجاح في صدّ الهجوم الذي قام به العدو ، دخل المقاتلون القلعة من المواقع التي لا يحيطها السور ، وبعد معارك ضارية استمرت طوال ذلك اليوم ، تمكنوا من السيطرة على القلعة برمتها ، وبدأت الرايات التركية ترفرف على كل أبراجها526.

كانت إعادة السيطرة على عدن إضافة لما تحمل من أهمية عسكرية ، انتصاراً سياسياً لا يقل عنه أهمية. حيث أصبحت كل موانئ البحر آمنة ، كما تلقى البرتغاليون ضربة قوية أُغلقت على إثرها كل شواطئ اليمن في وجههم.

وحين أبلغ والي مصر داوود باشا القانوني بأخبار النصر الذي تحقق في عدن ، تم رفع رواتب كل البحارة والقباطنة الذين شاركوا في هذه المعركة ، ومنح بيري ريّس زعامات يعادل دخلها مائة ألف أكجة.

وفي العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين خرج بيري ريّس على رأس أسطول مكون من ثلاثين مركبة إلى المحيط الهندي ، ماراً بميناء جدة وبعد قضاء ثلاثة أيام فيها ،

توجه نحو عمّان ، ومن هناك إلى مسقط الواقعة إلى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، حيث اشتبكوا مع أسطول البرتغال المكون من سبعين سفينة وانتصروا عليهم ، وقد فرّ هؤلاء نحو قلعة هرمز محتمين بها ، ورغم حصار الريّس للقلعة لكنه لم يوفق في السيطرة عليها ، فقام بنهب المدينة لأنّ أهلها قاموا بتقديم العون للعدو. ومن هناك توجه صوب البصرة وطلب المساعدة من واليها قوباد باشا ، ولكن الوالي ردّ عليه:

«لقد ألحقت الظلم بالمسلمين ، ونهبت أموالهم» ، ولم يكتفِ برفض المساعدة ، بل ألقى القبض على بيري ريّس وحاول أخذ أمواله.

وبينما كان بيري ريّس في البصرة وصلته أخبار عن نيّة البرتغاليين إغلاق الخليج العربي ، فلم يرغب أن تتم محاصرته ، لذلك غادر مسرعاً مع ثلاثة من سفنه ، ولكن جنوده وبقية الأسطول لم يتمكنوا من الخروج من البصرة.

غادر بيري ريّس على عجل ليصل قناة السويس في العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين بعد أن فقد سفينة أخرى من سفنه في عرض البحر ، ومن هناك توجه إلى مصر. وقد تم إرسال هذه الأخبار إلى العاصمة ، ونتيجة رفعه الحصار عن قلعة هرمز وتركه لجنوده وبقية أسطوله في البصرة تم عزله ، ومن ثم اعتبر مذنباً حيث قطع رأسه في ديوان مصر العام ألف وخمسمائة وأربعة وخمسين وصودرت كل أمواله وممتلكاته527.

يعتبر الكتاب الذي ألفه بيري ريّس بعنوان (كتاب البحرية) والذي يضم خريطة مفصلة لكل شواطئ المتوسط بما فيها من رؤوس وخلجان وموانئ ومصبات ومضائق ، مرجعاً بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ البحرية العثمانية.

وبناء على الرسالة التي بعث بها قوباد باشا أمير أمراء البصرة إلى إسطنبول ، تم تعيين الريّس مراد الوالي السابق لسنجق القطيف ، قائداً على أسطول السويس. وقد تلقى الريّس مراد أوامر بعدم التحرك كسلفه بيري ريّس ، بل الاكتفاء بالبقاء مع الأسطول في خليج البصرة. ذلك أنّ الأسطول البرتغالي كان يواصل نشاطاته في المحيط الهندي وبحر

عدن.

ولكن الريّس مراد استغل الفرصة بعد فترة ، وغادر ميناء البصرة على رأس أسطول مكون من خمس عشرة كادرغة وسفينتين ، حيث صادف الأسطول البرتغالي بالقرب من شواطئ جزيرة هرمز ، وبعد معركة شديدة بين الطرفين ، لم يتمكن من إحراز النصر فيها اضطر للعودة إلى خليج البصرة ، وقد استشهد خلال هذه المعركة اثنان من أشهر القباطنة ؛ الريّسان سليمان ورجب. ورغم أنه لم يتم إعدام الريّس مراد كما سلفه بيري ريّس ولكنه عزل من منصبه في العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين. وبذلك بقي أسطول السويس محاصراً في خليج البصرة ، كما تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على إحدى سفنهم.

ومن ثم تم تعيين سيدي علي ريّس وهو أحد قباطنة الترسانة وابن خضر بيك وكيل الترسانة قناة السويس ، قائداً للأسطول وذلك في العام ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين ، وقد كلّف بإعادة الأسطول من البصرة إلى السويس. فانطلق براً عبر حلب للوصول إلى البصرة ، وأراد إخراج خمس عشرة سفينة من خليج البصرة ، فاتبع الساحل الإيراني ، ووصل إلى جزيرة البحرين عبر مدينة بوشهر528. وحين بلغ ساحل عمان التقى بأسطول برتغالي مكون من ثمانية وعشرين سفينة. وقد تمكن العثمانيون من إحراز النصر في المعركة التي وقعت بين الطرفين ، ما دفع الأسطول البرتغالي للانسحاب ليلاً مستغلا الظلام.

أما الأسطول العثماني الذي تابع طريقه فقد حوصر في ميناء مسقط مرة أخرى من قبل الأسطول البرتغالي ، وقد استغل هؤلاء قرب قواعدهم التي ستمكنهم من تأمين كل احتياجاتهم ، وحرية الهجوم على الموقع الذي يريدون مزودين بالقوة الكافية. وكان أسطولهم هذه المرة مكوناً من اثنتين وثلاثين سفينة.

ولما أدرك الريّس سيدي علي أنه غير قادر على الدخول في معركة بحرية مفتوحة ، قام بصف أسطوله بموازاة الساحل ، وبدأ القتال الذي استمر منذ ساعات الفجر الأولى وحتى ساعة متأخرة من المساء بضراوة بالغة ، حيث انفضّ الطرفان بعد التعب الكبير الذي ألمّ

بهما. ومن هناك توجه الأسطول العثماني إلى سواحل إيران ومن ثم إلى سواحل بلوشستان ، حيث أرشدتهم إحدى سفن المسلمين إلى ميناء جوادر529.

وقد أكرم حاكمها جلال الدين بين دينار وفادتهم ، وزودهم بكل ما يحتاجون من مؤن ولوازم أخرى. وبعد أن مكثوا فيها فترة وأصلحوا أمورهم قدر المستطاع ، تحركوا غرباً صوب شبه الجزيرة العربية ، حيث واجهتهم هذه المرة عاصفة عنيفة دفعتهم أمواجها العاتية نحو سواحل الهند. وبعد أن هاموا عائمين على وجه البحر لأيام متوالية تعرضوا خلالها لما لا يُحصى من المشاق بلغوا سواحل ديو ، كوجارات ومن ثم سورات530 ، وخلال هذه الرحلة بات الأسطول في وضع لم يعد يسمح له بالقتال.

رسا الريّس سيدي علي بسفنه في ميناء سورات ، وقام بتسليم ما بقى من ذخيرة ومدافع في سفنه إلى رجب خان وهو أحد ولاة سلطان كوجارات. كما ترك من أراد من الجنود في خدمته ، ومن ثم توجه مع ما يقارب الخمسين من أصدقائه إلى إسطنبول براً. مجتازاً خلال رحلته بلاد السند والهند ، زابلستان ، بدخشان531 ، ما وراء النهر ، خوارزم ، خراسان وإيران والأناضول ليصل إلى إسطنبول بعد ثلاث سنوات. وقد دوّن سيدي علي ريّس مجريات هذه الرحلة في كتاب أسماه (مرآة الممالك) وقدمه للسلطان سليمان القانوني532. فعينه السلطان ضمن طاقم المتفرقين533 بيومية قدرها ثمانون أكجة ، كما وزع الإكراميات والمناصب على بقية أصدقائه أيضاً.

وقد عيّن من بعده كورد أوغلو خضر ريّس قائداً لأسطول السويس ، فاستمرت الصراعات في عهده أيضاً مع الأسطول البرتغالي في المياه الهندية.

افتتاح الكلية السليمانية

في العام ألف وخمسمائة وخمسين ، أقيمت مراسم وضع حجر الأساس لهذه الكلية بحضور كل من الصدر الأعظم ، شيخ الإسلام وكافة أركان الدولة ، والتي استمر العمل فيها لمدة ست سنوات[534].

ويصف لنا معماري الجامع كوجا سنان آغا ما حدث حينها بالكلمات التالية:

«في صبيحة أحد الأيام ، قام سلطان العالم السلطان سليمان خان بن سليم خان ، باستدعائي أنا العبد الفقير ، وأبدى رغبته في بناء جامع ، وأخبرني بأنه قد كلفني بإنشائه.

وفي تاريخ شريف ويوم مبارك وساعة سعد ، تم وضع أسس ذلك الجامع ، وذُبحت الأضاحي ووزعت على الفقراء ، ومُنح الصالحون من عباد الله ما يُحصى من الهدايا والعطايا.

وكانت الأعمدة المرمرية الأربعة الضخمة التي استخدمتها في جامع السليمانية ، قد أحضر كل واحد منها من بلد. أحدها هو العمود الذي يقال له (كِزِلتاش)[535] ، وهو عمود يعود إلى العهد البيزنطي ، ويبلغ طوله ارتفاع منارة.

وبناء على أمر وفرمان السلطان ملاذ العالم ، نصبت الأعمدة التي يُقال لها «الكاليون» الضخمة باعتناء كبير ، وبدأ تثبيتها قطعة فقطعة ، حتى لا تهتز أو تسقط. وقد بذل مجهود كبير لتحقيق ذلك ، حيث استخدمت حبال بثخن جذع رجل ، كما استخدمت سواري السفن أيضاً لتثبيتها. وقد استقدم الآلاف من العجمي أوغلان[536] في عملية البناء ، فاقتطعت الأعمدة الطويلة لتصبح مساوية لبقية الأعمدة في الطول. وكان أحد هذه الأعمدة قد أحضر من مدينة الإسكندرية المصرية بواسطة السفن. والبقية أحضرت من بعلبك عبر البحر المتوسط إلى إسطنبول ، أما العمود الرابع فقد تم أخذه من قصر توب كابي.

كما اقتطعت كافة ألواح المرمر البيضاء من جزيرة مرمرة ، بينما أحضر المرمر الأخضر من بلاد العرب ، أما السماقي فقد أحضر من بلدان أخرى.

وقد صنعت الأبواب من خشب الأبنوس ، والتي زينها أمهر الصدّافين ، 537 أما النوافذ المزخرفة والملونة فقد كانت تحفاً فنية لا نظير لها ، حيث تتبدل ألوانها مع تدرجات أشعة الشمس وتقلبات الفصول ، لتضفي على الجامع في كل لحظة منظراً جديداً.

غدا الجامع مجمعاً لأهل الصفا

ومقاماً للصالحين كالقلب للجسد

يسرّ جماله الأبدان والأرواح معاً

تزينه الزخارف وتزيده ترفا.

وأخيراً قمت بإقفال قبة الجامع العظيم ، وقد زيّن كاراهيصار أمهر الخطاطين القبة بآية من القرآن الكريم ، وعلى كل باب سطّرت كتابات مختلفة ، وقد كلّف أمهر الفنانين بكتابتها وزخرفتها.

وبالتزامن مع بناء الكلية السليمانية ، كنت أشرف على إنشاء مبانٍ أخرى ، وكنت حريصاً على إتمام قصر فنار باهتشي ، وقد كان السلطان صاحب السعادة في هذه الأثناء يقيم في إدرنة.

فقام بعض الحاسدين بإرسال رسائل للسلطان يخبرونه فيها بأنني انشغلت عن بناء الجامع بأعمال أخرى ، حتى أنّ الجاهلين قد أخبروه بأنني «غير قادر على إخراج البناء من الطين الأسود» وروّجوا الأقاويل وهم يحلمون كل يوم أن تنهار القبة. وبالمقابل فقد كان هناك فريق آخر ادّعى أنّ مساً من الجنون أصابني وأصحبت مهووساً في رفع تلك القبة الضخمة ، وكان هؤلاء يروجون أقاويل تفيد بأنني «غير قادر على إخراج البناء من طينه الأسود ، وقد بان العيب في البناء ، ومن غير المؤكد أن تبقى دعائمه ثابتة. والرجل مهووس

بهذه القبة ، يقضي تحتها جلّ يومه ، فهو قد انتقل من العقل والتدبر إلى وادي الجنون بعد أن غلبه الهوس» . .

في أحد الأيام كنت في الساحة التي يعمل فيها البناؤون ، وكنت أتباحث مع رئيس العمال حول كيفية بناء كل من المحراب والمنبر ، وعلى حين غرة وصل السلطان صاحب السعادة ، فألقيت عليه التحية بمنتهى الأدب ووقفت في حضرته عاقدا يدي ، فخاطبني بغضب واضح وحدة لا تخفى:

«لماذا لا تهتم بإتمام العمل في جامعي ، وتنشغل بأمور ليست بذي بال ؟ أخبرني على الفور متى سيتم الانتهاء من بناء هذا الجامع ، وإلا فأنت تعرف العاقبة» . .

وقد ألمت بي دهشة كبيرة وأنا أسمع سلطان العالم يخاطبني بهذا الأسلوب الغاضب الذي لم أسمعه قبلاً ، فتلعثمت ، ولم أتمكن سوى من قول الكلمات التالية:

«مولاي صاحب السعادة ، إن شاء الله تعالى سنتم العمل بعد شهرين»

وقد استبدت الحيرة بحاشية السلطان قدر الحيرة التي استبدت به حين سمعوا كلمة شهرين ، وتدخل أحد من حاشيته يريد حمايتي قائلاً:

«يا معمار آغا ، ألم تسمع ما قاله السلطان صاحب السعادة ؟ إنه يسألك عن الموعد النهائي لإقفال باب هذا البناء والانتهاء من العمل فيه ؟»

«مع اكتمال الشهرين ، سيكون بناء هذا الجامع أيضاً قد اكتمل» ، وبذلك لم أتراجع عن الكلمة التي جرت على لساني بادئ الأمر. فخاطبنا سلطان العالم بالقول:

«يا آغوات! اشهدوا على ما قاله رئيس المعمارين» ومن ثم التفت نحوي قائلاً «إن لم يكتمل البناء بعد شهرين ، فلنا حديث آخر» . . وغادر متجهاً نحو القصر الهمايوني.

وما أن وصل القصر الهمايوني حتى خاطب رئيس الخزينة وسائر حاشيته بالقول:

«من الواضح أنّ رئيس المعماريين قد أصابه مس من الجنون ، فهل من المعقول الانتهاء في شهرين من عمل يتطلب العمل فيه سنوات عدة ؟ يبدو أنّ الرجل خوفاً على رأسه قد فقد عقله. لذا قوموا باستدعائه أنتم أيضاً ، واسألوه وانظروا ما سيقوله حينها. فإن لم يتطابق كلامه ، فذلك يشير إلى أنّ العمل في البناء سيواجه متاعب جمة». .

وعلى إثر ذلك استُدعيت إلى القصر ، فذهبت على الفور ، حيث خاطبني رئيس الخزينة:

«متى من الممكن أن ينتهي البناء ؟»

فأجبته كما أجبت حضرة السلطان «سينتهي بعد شهرين ، وكما تعلمون فقد جعلكم مولانا شهوداً على هذا الكلام. وإن شاء الله تعالى سيكتمل البناء بعد شهرين ، ليدخل اسمي التاريخ». .

وقد عرضوا جوابي على سلطان العالم قائلين له:

«مولاي! لقد اعترته همّة عالية ، وإن شاء الله فالرجل سليم العقل كما في سابق عهده ، وهذا هو سبب اهتمامه وهمته. وفي القريب العاجل ستقيم صلاتك في جامعك الشريف». .

وعلى إثر ذلك قمت بجمع كل الحرفيين والعمال المهرة في المدينة ، ووزعت عليهم العمل ، ولم أكتف بالعمل نهاراً ، بل واصلت العمل ليلاً ولم أضيع ولو ساعة واحدة. وبعد مضي أسبوع واحد ، شرّف السلطان صاحب السعادة مرة أخرى ، وخاطبني بالقول:

«يا معمار باشي! ما زلت مصراً على قولك ؟»

«بعون من الله ، واعتباراً من التاريخ السابق وحتى اكتمال الشهرين ، وبفضل من مولانا صاحب السعادة ، سأنتهي من بناء جامعك الشريف وأغلق أبوابه».

مولاي لقد بذلت الجهد والمساعي

وزينت كل زاوية بنقش بديع

وعجلت في ببنائه باحتراف

فلن تجد لمثل جماله من صنيع

فيارب بجاه أسمائك العزيزة

وجاه رسولك خير الأنام الشفيع

أدم عزّ مولانا المبجل

واجعل النصر والظفر حليفه أبدا

ووفقني لمسعاي يا إلهي

ليكون هذا الصرح لذكرك مددا

وأخيراً اكتمل الشهران ، وبعون من الله وفضل من السلطان ، لم تبق زاوية غير منتهية البناء في الجامع ، واكتمل جامع السليمانية ، وأغلقت كل أبوابه ، ومن ثم أقبل خاقان العالم مع حاشيته وأعيان دولته ، حيث وضعتُ مفاتيح الجامع في يديه المباركتين.

وقد التفت حضرة السلطان إلى أحد أفراد حاشيته ليسأله:

«من الأجدر بفتح باب الجامع ؟»

ليرد عليه الرجل بالقول:

«مولاي! إنّ المعمار آغا علّامة جليل ، وهو الأجدر من بين الجميع بفتح أبواب الجامع». فالتفت نحوي سلطان العالم السلطان سليمان القانوني وخاطبني بالقول:

«إنّك الأولى بفتح أبواب بيت الله تعالى ، فليكن عامراً بالصدق والصفاء والدعاء».

.

وبعد أن أتم دعائه ، سلمني مفتاح الجامع من صميم قلبه.

«يا فتّاح!» قلتها وأنا أفتح الأبواب ، وقد تلقيت من السلطان ما لا يوصف من الثناء والإحسان»538.

وبعد عدة قرون ، علّق الفرنسي ألبرت غابرييل539 الذي اعتبره مؤرخو الفن بأنه «قطب الباحثين في تاريخ الفن التركي» في حوار خيالي على لسان السلطان محمد الفاتح وهو يقف أمام جامع السليمانية ، قائلاً:

«سليمان! يا ابن حفيدي! لم تكتف مثل أجدادك بأمجاد الفتوحات وعظمة الانتصارات ، بل منحت اسمك لقرن برمته. وقد دان العالم كله لمجدك وشهرتك التي استحققتها بجدارة. وتسابق أعظم الحكام من أجل التحالف معك. وقد حظيت بما لا يحظى به إلا القلائل لبنائك هذا الجامع العظيم ، في هذا الميدان الرائع ، لتهدي عاصمة الأتراك القديمة تاجاً.

وبذلك فأنت الوحيد الذي تمكن من إتمام ما قمتُ بالتخطيط له ، واكتسبتَ لقب الباني العظيم. أما أنا الذي لم أغبط في حياتي كلها حظوظ أي أحد ، فها أنا وأمام هذا الصرح الفريد أغبطك يا سليمان»540.

وبمناسبة افتتاح الكلية السليمانية أرسل الشاه طهماسب وفداً رفيعاً محملاً بالهدايا النفسية ونسخة نادرة من القرآن الكريم ، كما أرسل ابن الشاه خودابند رسالة تهنئة إلى الصدر الأعظم ، وكذلك فعلت زوجة الشاه مع السلطانة هُرَّم. كما أنّ المدارس السليمانية التي تم بناؤها قبالة مدرسة الصحن الثمانية التي بناها السلطان الفاتح ، غدت مؤسسات علمية رفيعة المستوى ، وقد أبدى السلطان اهتماما شخصياً من أجل إحضار أكثر المدرسين كفاءة وعلماً للتدريس فيها.

السلطانة هُرَّم

لا ريب أنّ العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين قد شهد أكثر الأحداث المؤلمة للسلطان القانوني ، فقد انتهت تلك الرابطة التي وصفت بأنها العشق العظيم الذي رافق ذلك القرن العظيم ، بعد أن قام بدفن زوجته التي أحبها كثيراً ؛ السلطانة هُرَّم.

فزوجة السلطان القانوني- الذي أسبغ اسمه على قرن برمته ، حتى بات يسمى «عصر سليمان»- الوحيدة ، كانت توازيه في استقطاب الاهتمام في كل ما يتعلق بها ، من صفاتها الجسدية ومناقبها الشخصية ، طراز ثيابها ، مأكلها ومشربها ، وكل ما تقدم عليه وتستحدثه. وقد انشغل كل المؤرخين والأدباء بالكتابة عنها والبحث في حياتها. أما من لم تسعفه الشروط في الحصول على معلومات عن الحرملك العثماني الذي يستمد اسمه من كلمة (الحَرَم) ، فقد لجؤوا كما في كل مرة إلى مَلَكة الخيال وشطَحات الفانتازيا والأساطير ، ليؤلفوا السيناريوهات. وإزاء الغموض الذي يلفّ الكثير من جوانب التاريخ والذي أفرز العديد من الكتابات البعيدة عن الموضوعية والتي تشوه الحقائق التي لم يلق عليها الضوء بعد ، فليس من الصعوبة تخيل ما قد نال الحرملك الذي تعتبر المعلومات الواردة عن طبيعة الحياة فيه من أندر المواضيع في التاريخ العثماني.

وكنتيجة لذلك فإن عوالم الخيال التي ألفها وتركها لنا الرحالة والروائيون وكتّاب المسرح والأفلام الأجانب منهم على وجه الخصوص ، قد خلقت سلطانة مختلفة تمام الاختلاف. [541] فأسندوا دور البطولة إلى كل واقعة قابلة للانتقاد ، وكل حادثة حاملة لمختلف التأويلات الخاطئة في عهد القانوني ، إلى السلطانة هُرَّم وابنتها السلطانة ميهريماه. كما قام كتاب التاريخ والروائيون المحليون بكل أسف ، ودون تكلفهم مشقة التدقيق والانتقاد ، بنسخ هذه الهذيانات والافتراءات في أعمالهم ، وكأنها حقائق مؤكدة ووقائع علمية مثبتة ، وصاغوا على أساسها القصص والروايات ، وبذلك ظهرت أمامنا شخصية مغايرة لهُرَّم حتى بات الوصول إلى حقيقة شخصيتها بالغ الصعوبة بل ضرب من المحال[542].

وكأحد الأمثلة على هذا النوع من القصص ، هو ادعائهم بقيام السلطانة هُرَّم بإخراج السيدة ماهي دِفران أولى محظيات القانوني من القصر ، ويرجعون السبب في ذلك إلى حادثة لا أساس لها حول قيام ماهي دِفران بضرب هُرَّم543. رغم أنّ حقيقة خروج ماهي دِفران من القصر يعود فقط إلى مرافقتها لابنها مصطفى أثناء خروجه لسنجق مانيسا544. ذلك أنّ العادة كانت تقتضي مرافقة الأمهات لأبنائهن الأمراء أثناء خروجهم لتولي حكم أحد السناجق. أما بقاء السلطانة هُرَّم في القصر فيعود إلى خروج ثلاث من أبنائها إلى ثلاث سناجق ، ولو رافقت أيا منهم فسيظهر على أنه ولي العهد ، ما سيثير النزاعات بين الأمراء.

وإن احتكمنا إلى مقولة أنّ «من عمله يُعرف الصانع» وقمنا بتقييم التاريخ انطلاقاً من مرتكز الحقيقة ، فكيف ستبدو لنا السلطانة هُرَّم ؟ وأي نوع من الزوجات والأمهات والسلطانات كانت ؟

يتفق عموم المؤرخين على أنّ السلطانة هُرَّم تنحدر من أصول روسية ، وقد أبصرت النور في أوكرانيا التي كانت في تلك الحقبة تتبع لسلطة بولونيا ، في العام ألف وخمسمائة وستة. وبسبب لون شعرها الضارب للحمرة ، فقد سميت روزا أو روسا أو روكسلانا.

وبحسب ليسلي بيبرس التي قامت ببحث علمي يحمل اسم (الحرملك الهمايوني)545 ، فمن المرجح أنها تنحدر من غربي أوكرانيا. وبالاعتماد على المرويات البولونية فاسمها ألكساندرا ليسوفسكا ، وهي ابنة راهب أوكراني (روتانيلي) تم أسرها من قبل التتار في بلدة روهاتين الواقعة على نهر دنيستر والقريبة من مدينة لفيف546. وقد اعتمد الأوربيون تسميتها روكسلانا التي تعني باللغة البولونية عذراء أوكرانيا547.

اختطفت من قبل أتراك القرم وهي في التاسعة من العمر ، حيث أمضت عدة سنوات في قصر القرم نالت خلالها التربية والتعليم. ومن ثم تم إهداؤها إلى القصر الهمايوني من قبل خان القرن ، وهناك روايات متعددة حول من أهداها للسلطان أهي والدته السلطانة حفصة ، أم عمته هانجرلي خاتون (السلطانة فاطمة خانم) أم إبراهيم

باشا548.

وبعد دخولها القصر العثماني ، تلقت أصول التربية الإسلامية والتركية ، وقد لفتت الانتباه على الفور لجاذبيتها ، ووجها الباسم ، وطباعها المرحة ، خفة دمها ، وسرعة بديهتها بالإضافة لنشاطها. وبسبب وجهها الضاحك فقد أطلق عليها في القصر لقب هُرَّم549.

ويفيد بعض الكتاب بأنها كانت عادية الجمال ، بيضاء البشرة ، متوسطة القامة ، ذات أنف أخنس وقوام نحيل ونظرات ثاقبة ، وابتسامة جميلة ، ما جعلها جذابة وفاتنة إلى حدّ كبير. وفي الحقيقة فإن جلّ هذه الصفات والملامح التي تنسب إليها ، إنما تعود إلى اللوحات الفنية التي رسمها الفنانون. ومن الواضح أنّ هذه اللوحات والبورتريهات التي تكاد لا تتشابه فيما بينها ، ما هي إلا محصلة خيال مبدعيها. لذلك فإنّ استخلاص صورة لشخصية هُرَّم بالاعتماد عليها ، لن يكون سوى محض اختلاق.

رغم أنّ الحقيقة التي لا تقبل الجدال ، أنّ الجارية التي يتم إدخالها القصر ، أو تقدم كهدية للسلطان ، يشترط فيها التحلي بسوية عالية من الجمال والصفات الخُلقية. وبحسب الأعراف المتبعة في القصر فإن مهمة اختيار جارية تتصف بالجمال ، وحسن التربية ، والذكاء ، والمهارة ، العفة والقابلية التي تتيح لها أن تغدو والدة السلطان المستقبلي ، وأن تكون قادرة على خدمة أقوى شخصية في القصر ، كانت تقع على عاتق السلطانات الأمهات. وهكذا فقد قامت السلطانة حفصة باختيار فتاة تتحلى بهذه الصفات لابنها القانوني ، والتي كانت هُرَّم.

لا يمكن التحقق على وجه الدقة من التاريخ الذي انضمت فيه هُرَّم إلى حرملك السلطان القانوني ، ولكن الاحتمال الأقوى أن الأمر حدث في أول عامين من توليه السلطنة. وبالطبع كانت أكثر النساء نفوذا في القصر في تلك الفترة هي والدة السلطان سليمان القانوني مهد العلياء السلطانة حفصة ، وتليها في المرتبة ماهي دِفران خاتون أولى زوجات السلطان القانوني والتي أنجبت له الأمير مصطفى في العام ألف وخمسمائة وخمسة عشر.

ومع إنجاب السلطانة هُرَّم للأمير محمد عام ألف وخمسمائة وعشرين أو واحد وعشرين ، زاد نفوذها في القصر ومكانتها لدى السلطان القانوني. ذلك أنّه قضى وقتاً طويلاً مع هُرَّم التي ضمها إلى حريمه بعد ماهي دِفران خاتون ، وخلا جارية أخرى تدعى غولفِم لا يوجد ما يشير إلى ارتباطه بنساء أخريات. ومن المعلوم أنّ العلاقة بين غولفِم خاتون وهُرَّم كانت علاقة ودية جدا550.

وتشير مجمل الأحداث التي وصلتنا إلى أنّ الهاسكي هُرَّم سلطان ، محظية القانوني كانت على درجة عالية من الذكاء ، ودودة ، امرأة فائقة الجمال وأمّاً بالغة العطف والحنان ، كما كانت متمسكة بدينها. وفي معرض حديث الكاتب برنارد برومأج عن حياتها ، يشير إلى قوة مشاعرها الجهادية ، حيث يقول:

«في أعظم عهود السلطنة العثمانية ، شاركت سليمان العظيم الحكم. فهذه المرأة الجميلة التي اعتبرت زوجها فاتح العالم برمته ، قد سعت لأن يعلو الهلال على الصليب حتى في أبعد بقعة يقطنها المشركون». كما شجعت على القيام بحملة ضد فرسان رودس الذين انتشر صيتهم كحماة للمسيحية واشتهروا بعدائهم للأتراك551.

أنجبت السلطانة هُرَّم التي تصغر القانوني بأحد عشر عاماً ، ستة أبناء من هذا الزواج ، وقد توفي ابنها الثالث عبد الله في سن صغيرة ، أما بقية أبنائها فهم ؛ سليم ، محمد ، جيهانغير ، بيازيد وميهريماه.

وقفت السلطانة هُرَّم المعروفة بتعلقها الشديد بعائلتها ، إلى جوار زوجها القانوني وأبنائها في كل الظروف ، وقد زارت سناجق كل من مانيسا ، قونيا ، كوتاهيا وأماسيا التي حكمها أبناؤها الأمراء ، وسعت لخلق روابط قوية بين أفراد أسرتها552.

كان الأمير محمد هو أكثر من حظي بمحبة والديه القانوني وهُرَّم ، والذي كان أكبر أمراء القانوني من زوجته هُرَّم ، ومن المرجح أنّ التغيير الذي أحدثه القانوني في ولاية السناجق العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين ، يعود لرغبته في أن يوليه العرش من بعده.

حيث نقل الأمير مصطفى من مانيسا إلى أماسيا ، وقام بتعيين محمد على ولاية مانيسا ؛ ذلك أنّ حاكم مانيسا كان مرشح السلطان لولاية العهد ، كما أنها كانت الأقرب إلى عاصمة الحكم ، وكان كل الأمراء يرغبون في حكمها ، ومن الوارد أنّ السلطانة هُرَّم قد لعبت دوراً في شأن هذا التعيين.

كما أنّ الأمير محمد كان مثل أخيه مصطفى على درجة عالية من التربية والخلق ، ولكن حكمه على سنجق مانيسا لم يدم لوقت طويل ، فبعد مضي عام واحد توفي بشكل مفاجئ في العام ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين. وكان لوفاة هذا الأمير المحبوب ووريث العرش المحتمل ، أثر صادم على عائلته التي غرقت في حداد أليم.

أيا درّة الأمراء يا سلطاني محمد

هذا الشطر الذي خلّد به القانوني موت ابنه ، يوضح الحزن العميق الذي عصف به مع موته. كما أنشأ المعمار سنان بأمر من السلطان جامعا بديع البنيان على اسمه وهو جامع شيهزاده باشي.

ويمكن القول بأنّ هذا الموت كان البداية لسنوات حزن طويلة في حياة السلطانة هُرَّم التي كانت سلطانة محبوبة جداً من قبل الشعب ، ومعروفة بحبها لأعمال الخير. وفي القرن الذي عاصرته كانت تحظى باحترام بالغ ، كما استمر الأمر في العهود التالية ، حيث كان اسمها مرادفاً دائماً للتقدير وفعل الخير والعطاء الذي عرفت به ، ومن بين مئات الكتابات التي كتبت عنها ، سنورد هذه الجمل التي تصف حقيقتها:

«كانت سيدة النساء الشريفات ، بخصال ملائكية ، رفيعة الشأن ، كاملة الأوصاف ، قدسية الذات ، درّة نادرة تفيض بالخيرات والحسنات ، سيدة عظيمة ، جليلة عالية المقام» . .

ورغم أنّ السلطانة هُرَّم قد بلغت شأواً لم تبلغه أي من زوجات السلاطين قبلها على المستوى السياسي ، لكنها تعرضت بين الفينة والأخرة لأحزان عميقة ، فإلى جانب

أبنائها الذين ماتوا في سن باكرة ، فقد كان لموت الأمير محمد حاكم مانيسا ، ومن ثم الأمير جيهانغير وقع بالغ الأسى عليها.

كما عانت من العديد من الأمراض ، وقاست أوجاعاً شديدة ، وقد قضت آخر شتاء لها إلى جوار القانوني ، سلطانها الذي أحبته حباً جمّاً في إدرنة. ومع اشتداد وطأة المرض عليها ، عادت إلى إسطنبول حيث أقامت في قصر إسكي سراي الذي كان يضم مستشفى خاصاً. ولم تتمكن من النجاة من مرض القولنج الذي أصابها ، فتوفيت في عمر مبكر (الثانية والخمسين) ، وذلك في العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين553.

وقد حُمل نعشها على أكتاف الوزراء حتى ساحة جامع بيازيد ، وأقيمت على روحها صلاة الجنازة بإمامة شيخ الإسلام أبو السعود أفندي ، والذي قام بدفنها أيضاً. وقد تأثّر لموتها كل أهالي إسطنبول.

لقد قُدّر لسلطان العالم السلطان سليمان ما لم يقدر سوى للقلائل في العالم ، حيث عاش عمرا مديدا وحياة طغت عليها علاقة حب لم تخمد أوارها مع زوجته ، كانا على الدوم خير عون لبعضهما ، وقد التزم بإخلاصه لحبها بعد وفاتها كما في حياتها ، حيث لم يرتبط بامرأة أخرى بعد وفاة زوجته المحبوبة ، التي أراد لجثمانها أن يبقى قريبا منه ، حيث أمر بدفنها إلى جوار القبر الذي أعده لنفسه إلى جوار جامع السليمانية ، وعين الحراس وحفظة القرآن على قبرها ، فكانت سور القرآن الكريم تُتلى على روح هذه السلطانة المحبة للخيرات على مدار أربع وعشرين ساعة متواصلة لقرون طويلة دون انقطاع.

وبحسب الوثائق الموجودة في أرشيف رئاسة الوزراء ، فقد وصل عدد الحراس وحافظي القرآن الذين تناوبوا على العمل في قبرها إلى مائة وثمانية وثلاثين موظفاً. وكان هؤلاء يتلقون أجراً عالياً يصل إلى ثلاثمائة وخمسين أكجة في اليوم ، ما يوضح المحبة الكبيرة التي كان القانوني يكنها لزوجته السلطانة هُرَّم.

في الحقيقة لقد ربطت علاقة حب قوية بين القانوني وهُرَّم ، ولكن هذه المشاعر ،

لم تمنع أياً منهما من أداء كل الواجبات المناطة على عاتقه بأفضل صورة ممكنة. فخلال الثماني وثلاثين سنة التي عاشاها سوية ، قضى القانوني نصفها على ظهر حصانه ، ولم يتوان عن واجبه في الجهاد. ولم يهمل شؤون دولته على الإطلاق.

وبدورها فإنّ السلطانة هُرَّم قد أضفت لمسة أنثوية على إسطنبول كما على الكثير من البلدات والمدن ، من خلال تزيينها بالأبنية العمرانية والفعاليات الخيرية. وقد لجأ الاثنان إلى التعبير عن أشواقهما وحبهما العظيم من خلال تبادل الرسائل والقصائد.

ففي إحدى الرسائل التي بعثت بها هُرَّم إلى السلطان ، نجدها تخاطب مولاها بالأبيات التالية:

ياريح الصبا مرّي على مولاي برفق

والثمي خده كلثم شدو البلبل للشوق

وأخبريه بأن القلب بات للأسى مهدا

وأنّ الروح لا تحيا إلا بلهيب العشق

وبالمقابل فقد ردّ القانوني على أشواق زوجته من خلال الشعر ، في محاولة لتخفيف هذه الحسرة ولو قليلاً:

تصلني رسائلك من إسطنبول توقا

إلى بغداد فتزيدني أرقاً وشوقا

وقد حال قلبي بلبلاً يشدو لهيفا

حتى طلوع الفجر وجداً وخفقا

وفي رسالة أخرى من رسائل السلطانة هُرَّم إلى السلطان القانوني الذي أطال غيابه

عنها ، نجدها تخاطبه بالقول «سلطاني يا نجم سعادتي ، مولاي ، سلطاني أنا ، سلطاني الذي أفتديه ، نور عينيّ ، أملي في العالمين وقطعة من روحي ، ونور عيني ، وبهجة فؤادي ، يا وجه يوسف» . ليرد عليها بعبارات تجدد حبهما في كل لحظة «يا إسطنبولي ، وبغدادي ، يا بدخشاني ، وخراساني ، ويا مصري سلطانة قلبي ، يا قمري المتلألئ ، ربيعي ، فرحتي ، وغاية أيامي ، وردتي الضاحكة ، منبع سعادتي ، ورفيقة روحي»554.

ولم يجد لسان العشق ترجماناً للغته

ولكن ما كان موقف السلطانة هُرَّم التي حازت كل هذه المناقب الجميلة من مقتل الأمير مصطفى ؟

في الحقيقة ومع الأخذ بعين الاعتبار للقوانين والأعراف الخاصة بتولي العرش في السلطنة العثمانية555 ، فمن هي المرأة التي لن ترغب في رؤية ابنها على سدة الحكم ؟ وبالتالي فإنّ رغبة السلطانة هُرَّم في تولي واحد من أبنائها لعرش السلطنة هو من أكثر الأمور الطبيعية. فمن يحاول انتقاد هُرَّم لرغبتها في تولي أحد أبنائها العرش ، هل كان يظن أنّ ماهي دِفران خاتون لا ترغب في رؤية ابنها مصطفى يتولى العرش يا ترى ؟

وبالعودة إلى حادثة قتل الأمير مصطفى ، فمن المحال أن يكون القانوني قد تأثر بكلامها ، وأقدم على قتل ابنه بناء على رغبتها. ذلك أنّ تبعة هذه الحادثة تقع بالدرجة الأولى على عاتق رجال الدولة الذين قاموا بتحريض الأمير في سبيل تولي العرش ، كما أنّ الحقيقة التي لا مراء فيها أنّ من أقدم على بعض الفعاليات بتأثير من تأليبهم أو أنّ هذا ما أشيع حوله ؛ هو الأمير مصطفى. أما رستم باشا الذي من الواضح أنه لم يكن من مؤيدي الأمير مصطفى بأي شكل ، فقيامه باستغلال هذه الأحداث في محاولة للتخلص من الأمير ، يضعه في موضع المسبب الثاني لهذه الواقعة.

ومن جهة أخرى فإنّ المطلعين على الآثار الرائعة التي تركتها السلطانة هُرَّم لشعبها التركي والذين يقدرونها حقّ قدرها ، يدركون حقيقة محبتها وتقديرها لهذا الشعب.

ذلك أنها ومن خلال هذه الفعاليات قد تفوقت على كل السلطانات اللواتي أتين من بعدها ، وبلغن ما بلغته من مجد.

ورغم أنّ السلطانة هُرَّم لم تقم الصلاة في كل تلك الجوامع ، ولم تدرس في تلك المدارس ، ولم تنم في نزل المسافرين ، ولم تشرب من مياه السُبُل التي أنشأتها ، ولم تتعالج في دار الشفاء ، ولكنها تركت كل ذلك ميراثاً لدولتها وشعبها وأبنائها. .

ما تركته من أعمال

أحد الأعراف الجميلة في العائلة العثمانية ، كان العناية بكل الحاجيات الخاصة التي يتركها المتوفون من هذه العائلة حتى من توفي منهم في سن صغيرة. ولكن السيدات والفتيات الصغيرات كن مستثنيات من هذه العادة التي تغيرت مع وفاة السلطانة هُرَّم. فقد تم الاحتفاظ بمقتنيات المرحومة في القصر وفي مدفنها الخاص ، والتي تضم ألفعة بديعة الصنعة ، وعصابات للرأس ومجوهراتها وأغراضها الشخصية. والتي تعرض حالياً في متحف قصر توب كابي ومتحف الآثار التركية الإسلامية.

كانت هُرَّم تتبوأ قائمة السلطانات العثمانيات اللواتي أولين الأعمال الخيرية اهتماما كبيرا ، فقد بذلت الكثير من الجهود لخدمة الناس في أرجاء السلطنة المترامية الأطراف ، والممتدة على قارات العالم القديم الثلاث. وقد أفرد كل من صولاك زاده وإبراهيم بيجفي في كتابيهما قسماً خاصاً لأعمال السلطانة هُرَّم بعد ذكر الأعمال التي تركها السلطان القانوني556.

كلية (مجمع) الهاسكي:

يضم هذا المجمع جامعاً ، مدرسة ، مكتبة صبية ، عمارة خيرية ودار شفاء (مشفى). وهو أول أعمال المعمار سنان بعد تعيينه رئيس المعماريين ، واعتباراً من القرن التاسع عشر سميت منطقة أفرات بازي في إسطنبول والتي أقيمت فيها الكلية بمنطقة هاسكي. ويعتبر إبراهيم أفندي البيجفي بأنّ بناء الكلية في هذا الموقع هو لفتة رقيقة من السلطان القانوني اتجاه زوجته المحبوبة.

أول العناصر التي تم بناؤها في هذا المجمع هو الجامع ، تلاه بعد عام المدرسة ومكتبة الصبيان ، أما العمارة ودار الشفاء فقد بنيا بعد مضي اثني عشر عاماً. وهذا يشير إلى أنّ الكلية لم تظهر كفكرة مجمع متكامل في البدء ، بل تغير تصميمها ، وأضيفت إليها

الأبنية في حقب زمنية مختلفة. أما وقف الكلية الموجود في المكتبة السليمانية فقد تم بناؤه في العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين.

يقع الجامع على أحد طرفي شارع هاسكي ، بينما المدرسة ، ومكتبة الصبية ، ودار الشفاء والعمارة فتقع على الطرف المقابل.

الجامع: تم بناء هذا الجامع مربع الشكل وحيد القبة وفق طراز كلاسيكي في العام ألف وخمسمائة وثمانية وثلاثين. وكانت له منارة واحدة ، وقد تم توسيعه لاحقاً لضيق مساحته أمام جموع المصلين ، وأضيفت إليه قبة وعمودان في عهد السلطان أحمد الأول العام ألف وستمائة واثني عشر. ولا تزال أبوابه مشرعة حتى يومنا الحالي أمام المصلين.

المدرسة: تقع قبالة الجامع ، وقد بينت العام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين ، وهي بناء كلاسيكي الطابع. يفضي بابها الرئيسي المطل على الشارع إلى رواق يطل على باحة مغلقة من بقية جهاتها الثلاث. وتتموضع الدرس خانة في منتصف الرواق المقابل للباب ، وعلى كل من جانبيها الاثنين تقع ست غرف مكونة من صفين ثلاثيين متقابلين ، كما تقع عشر غرف مكونة من صفين خماسيين على كل جانب من جانبي الباحة ، وكلها غرف مقببة ويوجد في كل منها موقد للنار. وقد جاء في سجلات الوقف التي تتحدث عن أهمية التربية والتعليم ، أنه وقف مخصص لرجال العلم وطلبته. وكان المدرسون يحصلون على خمسين أكجة في اليوم ، وللطلاب ممن بلغوا السادسة عشرة أكجتان في اليوم ، أما المعيد فيحصل على خمسة أكجات. وقد غدت الغرف حالياً غرفاً للنوم ، والدرس خانة مسجداً.

مكتبة الصبية: تقع إلى شرق المدرسة ، وهي عبارة عن بناء مربع مؤلف من كتلتين. القسم الأول منها عبارة عن درس خانة مفتوحة تحيط بها الأعمدة من كلا الجانبين ، والقسم الثاني هو درس خانة مغلقة. أما صحن البناء والذي يتوسطه حوض ماء ، فمن المحتمل أنه صمم كباحة للعب. ولأن اللوحة الكتابية التي تتصدر المكتبة ظلت فارغة ، فلا نعلم على وجه التحديد تاريخ بنائها ، ولكن تماثل أنماط ورود النيلوفر المستخدمة في تزيين المدرسة والمكتبة ، يشير إلى أنّهما قد بُنيتا في الفترة ذاتها.

وكانت مكتبة الصبية موقوفة على الفتية المسلمين ، حيث كانت التعليم الديني أحد الشروط المدرجة في برنامجها التدريسي.

وإلى جوار الدرس خانة المغلقة توجد حظيرة (مقبرة) صغيرة بالغة العناية ، ومن شواهد القبور المتوزعة في أرجائها ، نكتشف أنها في معظمها تعود إلى الهيئة المشرفة على البناء بالإضافة إلى العاملين في الكلية مع أفراد أسرهم.

العمارة: يقود الباب الثالث على شارع هاسكي إلى مدخل العمارة ، وتشير لوحتها الكتابية إلى تاريخ بنائها وهو العام ألف وخمسمائة وخمسين. يحيط بصحن العمارة الداخلي من جهة الشمال رواق ثلاثي القناطر ، ومن جهتي الشرق والغرب رواقان تؤطر كل منهما خمس قناطر ، وقد غطيت هذه الأروقة بالقباب المستندة إلى أعمدة متوّجة. وفي الجزء الشمالي من الباحة يتموضع المطبخ التي تغطيه قبتان كبيرتان وأربع قباب صغيرة ، وإلى جواره تقع الغرف مستطيلة الشكل.

وقد تحول القسم المخصص لإعداد الطعام وتناوله في العمارة إلى مكتبة حاليا.

دار الشفاء: تعتبر دار الشفاء نموذجاً متفرداً من العمارة العثمانية الأصيلة لا نجد لها نظيراً ، وبحسب الكتابة المدونة على مدخل هاسكي «دار الشفاء» التي تعتبر من أروع الآثار العمرانية التي بناها معمار سنان ، فقد انتهى بناؤها العام ألف وخمسمائة وخمسين. وتتصدر دار الشفاء هذه المشافي التي تم بناؤها حتى عصرنا الحالي من حيث التهوية الممتازة والرحابة. فالمدخل الرئيسي يفضي بنا إلى صحن مثمن يطل عليه بناء المُعاينة بقناطره العالية ، وبعد قسم العيادات الخارجية ، يبدأ القسم الداخلي المكون من الغرف المقببة الخاصة بالأطباء والمرضى.

وقد بنى المعمار سنان بالإضافة إلى القسم الرئيسي ، غرفتين منفصلتين لصنع الأدوية والعلاجات. وكان يعمل في خدمة هذا البناء سبعة أطباء ، اثنان من الصيادلة ، تسعة وعشرون موظفا ومستخدماً. وإلى جانب المعاينة وقوفا ، كان الاستلقاء للمعاينة

الطبية وتلقي العلاج طريقة متبعة أيضاً هنا.

وقد وضعت السلطانة هُرَّم شروطاً تخص الأطباء الذين سيعملون في دار الشفاء الخاص بوقفها ، لا يمكن إزاءها سوى إبداء الإعجاب. فمثلا يتوجب على الجميع بمن فيهم رئيس الأطباء وبقية الموظفين مخاطبة المرضى بأسلوب لطيف ، والرد على كل أسئلتهم برحابة صدر ، وهو ما دوّن في سجلات الوقف.

كما نصت هذه الشروط على منح رواتب عالية لكل العاملين في المشفى ، بالإضافة لعدم أخذ أجرة المعاينة وثمن الأدوية من المرضى الفقراء.

واعتباراً من تاريخ العشرين من كانون الثاني العام ألف وتسعمائة وستة وسبعين وحتى الوقت الراهن ، تحول البناء إلى مركز تعليم هاسكي التابع لوزارة الشؤون الدينية ، وداخل أبنيتها يعمل المفتي والدعاة ويتلقون تعليمهم ، إلى جانب تدريس أصول التلاوة. كما أنّ غرف مدرسة الكلية تستعمل كمهاجع ، والدرس خانة المغلقة تحولت إلى مسجد ، والعمارة إلى مطبخ ، ومكتبة الصبية إلى قاعة اجتماعات ، بينما تحولت دار الشفاء إلى مبنى التعليم والإدارة557.

بقية آثارها:

جامع الأمير جيهانغير (شيهزاده جامي): بُني على التلة الكبيرة المطلة على منطقة توبخانة.

في بغداد: بناء قلعة حصينة إلى جوار قبر الإمام الأعظم ، بالإضافة إلى جامع وعمارة خيرية بديعة البناء ، وضريح عال ومشفى للأمراض العقلية.

وأيضاً في بغداد إعادة بناء قبة عالية فوق قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وترميم جامعه ، بالإضافة إلى تجديد العمارة والكثير من المباني الخيرية التي خصصت لها الأوقاف الكافية لرعايتها.

في قونيا: جامع مرتفع ذو منارتين إلى جوار ضريح مولانا جلال الدين الرومي ، ومسجد جميل البناء ، وبناء عمارة خيرية وغرف للدراويش والعديد من الأبنية المماثلة.

في الشام: جامع عالي البناء ، مدرسة والكثير من العمارات الخيرية الأخرى.

في فيودوسيا وإزنيق: كانت الكنيستان الكبريان في كل منهما واللتان تحولتا إلى جامعين قد نالهما الخراب مع مرور الزمن ، فقامت بتجديدهما وأوقفت عليهما الأوقاف الخيرية اللازمة.

بالإضافة إلى الكثير من المباني الخيرية والصدقات التي خصت بهما كلاً من مكة والمدينة المنورة ، حتى غدت المورد الأساسي لكل من عاش في تلك الأرجاء ، ورغم أنّ هذه الصدقات كانت تقدم في السابق أيضاً ، ولكنها أصبحت مضاعفة وباتت توزع في انضباط كبير ويشرف عليها الكتبة ، لينال كل شخص الحصة المخصصة له دون أي نقص.

إلى جانب صدقة المياه الجارية ؛ وهذه المياه كان مصدرها جبل عرفة ، وكانت هذه القنوات قد شقت بأمر من زبيدة زوجة هارون الرشيد لتصل إلى المدينة ، ولكنها رُدمت وتدمرت مع مرور الزمن ، وعادت مشكلة ندرة المياه من جديد ، حتى أنّ قربة ماء يمكن حملها بإصبع واحد كانت تباع في يوم عرفة بقطعة ذهبية ، فأمرت السلطانة بإعادة حفر وتوسيع هذه القنوات لتتضاعف كمية المياه الجارية فيها وتلبي احتياجات المدينة والحجاج من المياه.

في مكة: بنت أربع مدارس كبيرة لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، وخصصت لكل منها خمسة عشر طالباً ومساعد مدرس ، وكانت تصلهم أجرتهم المخصصة في الوقت المحدد دون أي نقصان.

كان المنزل الذي أنجبت فيه أم المؤمنين السيدة خديجة ، ابنتها السيدة فاطمة وبقية أبنائها ، قد تحول إلى مسجد فيما بعد. ولكنه تعرض للخراب بمرور الوقت ، فقامت بإعادة ترميمه وبنت فوقه قبة كبيرة ، حيث كان الدراويش والفقراء يجتمعون فيه كل

صبيحة جمعة حتى صلاة الظهر ، وكل ليلة ثلاثاء حتى الفجر ، وهم يسبّحون بذكر الله.

كما قامت ببناء عمارتين غنيتين في كل من مكة والمدينة ، يجتمع فيهما فقراء المدينتين كل يوم ليحصلوا على الطعام والشراب.

بالإضافة لإنشاء العديد من سبل المياه في إدرنة ، والتي تسيل منها مياه نقية كمياه الكوثر ، ليتنعّم بها الفقراء وساكنو المدينة ويلبوا احتياجاتهم.

كما أمرت ببناء جامع وعمارة بديعة وخانٍ كبير في بلدة مصطفى باشا كوبروسو558 ، لتنضم إلى قائمة أعمال هاسكي سلطان الخيرية.

وأنشأت مدرسة في منطقة كارييه في إسطنبول ، بالإضافة إلى حمام السلطانة هُرَّم الذي يقع بين آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد ، الذي يعتبر إحدى التحف المعمارية559.

وأخيرا فإن العمارة الخيرية الرائعة التي قامت ببنائها في القدس560 (تكية خاسكي سلطان) ، وتعليماتها الواردة في سجلات الوقف ، يسلط ما يكفي من الضوء على الجوانب الإنسانية والدينية والوجدانية في شخصيتها.

«وقد ورد في الشروط التي تم وضعها ، على أنّ جموع المقيمين في حجرات الوقف يحصل الواحد منهم يومياً في كل وجبة على مغرفة طعام (حساء) ورغيف ، وفي ليالي الجمعة يضاف إلى وجباتهم صحن من اليخنة أيضاً. أما إمام المسجد الشريف وكاتب الوقف وكل العاملين في العمارة ، فيحصلون في كل وجبة على مغرفة طعام ورغيفين ، وفي ليالي الجمعة يحصلون بدورهم على صحن يخنة. كما جاء في شروط العمارة المذكورة أنّ كل وجبة طعام عليها أن تطعم أربعمائة شخص من الفقراء والمحتاجين والمساكين ، يحصل كل واحد منهم على رغيف ، وكل اثنين على صحن حساء ، ويمنحون وجبة يخنة أيضاً في ليالي الجمعة. ونصت على أنّ كل من يقوم- خلا العاملين في الوقف- عن طريق الشفاعة والوساطة بإخراج الطعام والأرزاق خارج الوقف دون وجه حق ، فهو حرام عليه»561.

فليت من استفادوا من أوقاف السلطانة هُرَّم التي تركتها ، قرؤوا قبل ذلك نصوص أوقافها ، واستوعبوا ما جاء فيها.

العلاقات مع خانات الأوزبك

بالتزامن مع وصول موفدي الشاه طهماسب إلى إسطنبول ، كانت رسالة حاكم دولة الأوزبك الحاكمة لبخارى وسمرقند وسائر بلاد ما وراء النهر ، قد وصلت إلى السلطان القانوني. ورغم أنّ العلاقات مع هذه الدولة التركية-إسلامية التي كانت في حالة عداء مستمر مع الدولة الصفوية ، كانت علاقة واهنة ، لكنها كانت على الدوام في إطار الصداقة والأخوة.

ففي حملة العراقين تعاون الحاكم عبيد الله خان مع السلطان العثماني وأقاما حلفاً مشتركاً ضد العدو ، حيث وسّع حدود بلاده حتى خراسان ، وتمكن من السيطرة على مدينتي بسطام ودامغان562. وفي رسالة همايونية غير مؤرخة إلى خان الأوزبك ، يتضح أنّ علاقات الصداقة بين الطرفين كانت في غاية المتانة على عهد عبد العزيز خان بن عبيد الله خان.

كما أنّ علاقة السلطان كانت قوية مع خلفه عبد اللطيف خان (1540-1552) ، فالرسالة التي بعثها إليه بتاريخ الواحد والثلاثين من أيار العام ألف وخمسمائة وخمسين ، تعتبر توثيقاً لهذه العلاقات.

وفي الشتاء الذي قضاه السلطان القانوني في حلب أثناء حملة تبريز ، استقبل أحد مبعوثي عبد اللطيف خان ، والذي أوضح للسلطان أنه قام بزيارة الحجاز ، كما شدد على ضرورة عقد تحالف بين الطرفين ضد إيران ، من أجل تحقيق النصر. وقد أرسل السلطان إلى أمير بخارى حينها عبد العزيز خان ، قوة عسكرية مكونة من ثلاثمائة إنكشاري بالإضافة إلى فرقة مدفعية ، كمساعدة حربية.

تواصلت أواصر هذه الصداقة مع نوروز بهادير أحمد خان حفيد أبو الخير ، والمعروف أيضاً ببراق خان ، والذي تولى الحكم بعد عبد اللطيف خان ، حيث أكدّ في الرسالة التي بعثها مع رسول يدعى كوتلوك فولادي وصول القوة العسكرية التي أرسلت في

عهد سلفه ، كما عبّر فيها عن امتنانه للسلطان.

وقد أعلم براق خان عن طريق مبعوثه نظام الدين أحمد شاويش ، السلطانَ بفتح بخارى ، كما طلب منه المساعدة ضد الإيرانيين.

وفي رسالة الردّ الهمايونية التي بعث بها القانوني في أيار العام ألف وخمسمائة وسبعة وخمسين ، أوضح بأنه عقد صلحاً مع الإيرانيين ، ولكنه بالمقابل لن يرضى على الإطلاق عن قيام الإيرانيين بالاعتداء على مملكة براق خان ، وطلب منه إعلامه على الفور في حال وقع اعتداء من هذا النوع.

كما أنّ تحالف الدولتين الإسلاميتين السنيتين العثمانية والأوزبكية ضد الإيرانيين قد تواصل فيما بعد ، وقد أرسلت السلطنة في أكثر من مناسبة مساعدات عسكرية إلى الأوزبك563.

كانت الاتفاقية الموقعة في أماسيا مع بوسبيك ورفاقه ، قد وضعت حداً للمناوشات الحدودية. بينما كانت التجاوزات مستمرة بين كل من الجانب النمساوي من قبل القائد الكرواتي البارون أونغناد من جهة ، وبين الجانب العثماني من قبل تويغون باشا ، وهاديم علي باشا وأمير أمراء بودين وبقية ولاة السناجق ، سواء على شكل مناوشات فردية أو معارك مشتركة.

وعلى إثر قيام النمساويين بمهاجمة القلاع العثمانية الحدودية ، قام أمير أمراء بودين هاديم علي باشا بمحاصرة قلعة سيكتوار التي تحتل أهمية بالغة لدى النمساويين والتي كانت مركز تجمع عسكري بسبب موقعها الاستراتيجي ، وذلك في العام ألف وخمسمائة وستة وخمسين. وبعد أن نفذ العديد من الهجمات المدمرة على أطرافها وعمليات السلب ، قام بالانسحاب.

ورداً على ذلك قام بالافيجيني أحد القادة النمساويين بالاستيلاء على بعض الحصون الصغيرة. ومن جهته قام والي سنجق البوسنة مالكوج أوغلو علي بيك بشن هجمات مضادة على مدينة بوسانسكا كروبا والقلاع المجاورة لها ، حيث تمكن من السيطرة على المنطقة الواقعة بين نهري الأونا وكولبا وقلعة كوستانيكا564. ومع استمرار هذا النوع من الحوادث ، فقد شنت قوة كبيرة من المغاوير العثمانيين في العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين هجوماً على موتلينغ في منطقة كارنيولا565 وعادت بغنائم وفيرة. كما تمكن والي سنجق سيكشفهيرفار حمزة بيك من السيطرة على قلعة تاتا.

ولا يمكن القول بأنّ القانوني قد أولى هذه الحوادث أهمية كبيرة ، فقد أوضح هامر أنّ رسائل السلطان الثلاث العائدة لتلك الحقبة ، والتي اطلع عليها في الأرشيف النمساوي ، لم تأتِ على ذكر تلك الحوادث الحدودية ، بل إنها تتضمن معلومات أخرى. وفي المقابل كان الإمبراطور يواصل إرسال مبعوثيه إلى القانوني من أجل حلّ هذه المسائل الخلافية ،

وفي الوقت ذاته كان يصر على مطالبته بالتنازل له عن حكم ترانسلفانيا.

ومقابل ذلك وفي حزيران من العام ألف وخمسمائة وستة وخمسين وبعد عودة بوسبيك من أماسيا ، قام السلطان القانوني بإرسال وفد رفيع المستوى يحمل معه رسالة همايونية إلى فيينا ، يطالب فيها بالتنازل له عن سيكتوار. كما أنّ مبعوثيّ النمسا أ. فيرانتيوس وف. زاي حملا معهما في طريق العودة مذكّرة تتضمن المطالب ذاتها. وقد كررت الرسالة الهمايونية المبعوثة في نيسان العام ألف وخمسمائة وسبعة وخمسين هذا المطلب.

ومن جهته فقد دعا مجلس إقليم ترانسلفانيا في العام ألف وخمسمائة وستة وخمسين ، وبهدف إنهاء حالة الفوضى والاضطرابات التي تعمّ المنطقة ، كلاً من الملكة وابنها- اللذين كانا قد هربا إلى بولونيا سابقا- للعودة إلى ترانسلفانيا واستلام سدة الحكم مجدداً. وبأمر من السلطان قبل واليا الأفلاق والبغدان الدعوة ، وقاما بمرافقة الملكة إيزابيلا التي أطاعت أوامر السلطان مع ابنها يانوش سيجسموند ، من بولونيا لإعادتها إلى ترانسلفانيا ، ليواصلا حكم المنطقة بالتبعية لإدارة السلطان.

وفي هذه الأثناء وصل مبعوث إيزابيلا إلى إسطنبول يطالب بترك حكم كل من ليبوفا وتيميشوارا لإدارتها ، كما كان يشجعهم على شنّ حرب جديدة على النمسا. ولكن تم رفضهم مطالبهم حول ردّ القلاع المذكورة إلى ترانسلفانيا بشكل حاسم.

ومن جهة أخرى فإن بوسبيك الذي توجه أصدقاؤه نحو فيينا ، ظل هو منتظراً في إسطنبول ، وبناء على التعليمات التي تلقاها من فيينا ، أوضح للديوان الهمايوني بأن النمسا غير عازمة على التخلي عن سيكتوار. ولكنه تمكن من التوصل إلى عقد هدنة جديدة مدتها سبعة أشهر ، تم التوقيع عليها في إدرنة العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين. حيث أعلم فرديناند كل قادته في المجر باللالتزام بهذه الهدنة ، وفي العام ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين ومع انتهاء صلاحية الهدنة ، عادت المباحثات بين الطرفين من جديد.

في الثامن من حزيران عام ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين ، تم قبول بوسبيك

بشكل رسمي من قبل السلطان في أوسكودار. وقد أوضح في هذا اللقاء رغبتهم في عقد اتفاقية صلح بين الطرفين دون تحديد شكل المعاهدة وشروطها ، وأنّ الإمبراطور سيوقع على هذه الاتفاقية في خطوة تؤكد إخلاصه التام. كما أضاف بأنّه (الإمبراطور) سيتوصل إلى اتفاق مع إيزابيلا حول المناطق الحدودية المتنازع عليها ، وسيتنازل عن كل مطامحه المتعلقة بتلك المنطقة.

وبسبب اعتداءات فرديناند على ترانسلفانيا وفعاليته فيها ، جدد السلطان مطالبه بالتخلي له عن قلعة سيكتوار. وإزاء رفض هذا المطلب تم وضع بوبسيك تحت الإقامة الجبرية في دار السفراء الواقع بالقرب من منطقة تشِمبرلي تاش. وفي هذه الأثناء استقبل السلطان سفراء فرنسا ، البندقية وإسبانيا ، كما بعث برسالة إلى حاكم روسيا ، وقد خاطبه لأول مرة بلقب القيصر ، وقد تطرق فيها إلى العلاقات الودية بين الدولتين الروسية والعثمانية ، وطالب بضرورة بتطوير العلاقات التجارية بين الطرفين.

حادثة الأمير بيازيد

بعد وفاة الأميرين مصطفى وجيهانغير بشكل متعاقب ، لم يبق لدى السلطان سليمان القانوني سوى اثنين من أبنائه الذكور هما ؛ الأمير سليم الذي ولد العام ألف وخمسمائة وأربعة وعشرين ، ويحكم سنجق مانيسا ، وشقيقه الأصغر الأمير بيازيد الذي ولد العام ألف وخمسمائة وستة وعشرين ، ويحكم إمارة قونيا. وعلى عكس طباع الأمير سليم المتواضعة والهادئة ، كان الأمير بيازيد بالغ الجسارة متقد الحيوية ، ما جعله محبوباً من قبل حاشيته ورجال الدولة وتمسكوا به أكثر من أخيه. ورغم تردد الروايات حول تعلّق السلطانة هُرَّم ببيازيد وتمسكها به ، لكن لا توجد وثائق تؤيد هذه الفرضية. ذلك أنّ السلطانة وطوال حياتها كانت تعامل جميع أبنائها بعطف بالغ وتكن لهم جميعاً المحبة دون تفريق.

وبسبب الكفاءة التي أبداها الأمير بيازيد أثناء حادثة مصطفى المحتال ، فقد تم نقله إلى سنجق كوتاهيا ، ما ولدّ لديه انطباعاً بأنه أصبح ولي عهد والده. [566] فأخذ يتحرك بحرية أكثر وينخرط في فعاليات من شأنها توطيد طريق السلطة أمامه.

فعلى سبيل المثال حين توجه قطب الدين المكي مبعوث شريف مكة إلى إسطنبول في العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين ، وأثناء استقباله في مدينة كوتاهيا ، أوضح له الأمير بيازيد بأنه يريد إحداث بعض التغييرات على الصرة الهمايونية[567] التي كانت ترسل إلى الحرمين الشريفين كل عام ، فيما لو قدّر له الجلوس على العرش.

وفي الحقيقة كانت الغالبية تعتبره المرشح الأفضل للعرش بسبب قوة شخصيته ، ثقافته وكفاءاته العالية ، وهنا لابد من الإشارة إلى الدور التحريضي الذي لعبه بعض من السيباهية الذين كانوا من مؤيدي الأمير مصطفى سابقاً وانضموا إليه فيما بعد ، بالإضافة إلى بعض رجال الدولة مثل اللالا مصطفى من المحرضين والمشجعين له من أجل الإقدام على التحرك ، ذلك أنّ سنجقه كان أبعد من سنجق الأمير سليم عن مركز السلطنة.

ويمكن اعتبار السلطانة هُرَّم الرادع الوحيد لاصطدام هذين الأميرين ، ولكن وفاتها العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين أفسحت المجال لصعود كل الخلافات إلى السطح. كما أنّ مواقف مؤيدي كلا الأميرين زادت من اتساع الهوة بين الشقيقين. ورغم ذلك فالحقيقة التي لا مراء فيها أنّ الأمير سليم كان يتبع موقفاً أكثر هدوءاً واعتدالاً ويتجنب أي تصرف من شأنه أن يفسح المجال لنشوء صراع بينهما. وكان يكتفي بإرسال التقارير إلى والده لإطلاعه على كل تحركات أخيه التي قد تتسبب في وقوع نزاعات بينهما والتدابير التي يتخذها هو بدوره.

وأخيراً أقدم السلطان سليمان القانوني الذي كان يتابع هذا الخلاف بين ابنيه بقلق بالغ يزيد من وطأته استمرار وصول شكاوى سليم ، بتغيير سناجق كل منهما للحيلولة دون نشوب صراع بين الشقيقين. فنقل سليم من مانيسا إلى قونيا ، وبيازيد من كوتاهيا إلى أماسيا. ومنح كل منهما زيادة قدرها ثلاثمائة ألف أكجة. كما قام بتعيين مراد بن سليم والياً على سنجق آكشهير ، وأورهان بن بيازيد والياًعلى سنجق جوروم568.

ومقابل إطاعة الأمير سليم الفورية للأوامر وانتقاله من مانيسا إلى سنجقه الجديد ، اعتبر بيازيد تعيينه في ولاية بعيدة عن إسطنبول إهانة لشخصه ، ولم يرغب في التوجه إلى أماسيا. ومن أجل إقناع والده بوجهة نظره هذه ، أوضح بأنه أنفق أموالاً طائلة على تعمير مدينة كوتاهيا ، وأنه بحاجة للمزيد من الأموال من أجل انتقاله. ولكن السلطان الذي لم يوافق على ذرائعه ، أمره بترك المدينة على وجه السرعة ، وبأنه سيرسل إليه المال ما إن تصله أخبار تحركه من كوتاهيا.

ورغم تذرعه بالكثير من الحجج والأعذار لاحقاً ، فقد اضطر في النهاية إلى مغادرة كوتاهيا. ولكنه كان يتباطأ في رحلته ويقضي وقتاً اكثر مما يجب في محطات الاستراحة على الطريق ، وفي هذه الأثناء كان يلتحق به طوال الطريق العديد من الأشخاص ، لتزداد قوته مع مرور الوقت. ومقابل هذا الوضع شعر القانوني الذي كان قلقاً بالأساس من تحركات بيازيد ، بضرورة إرسال شخص يستطيع إلزامه بأوامر والده وتهدئته ، وإقناع بالتوجه إلى

أماسيا دون مزيد من التلكؤ. ولكي يظهر حياديته في التصرف مع ولديه ، فقد قرر إرسال شخص آخر إلى الأمير سليم أيضاً.

وبذلك فقد أرسل الوزير الرابع بيرتيف باشا إلى بيازيد ، والوزير الثالث سوكولو محمد باشا إلى سليم. وقد أوضح بيرتيف باشا الذي قابل الأمير بالقرب من أنقرة ، بأنّ السلطان يحبه كما يحب أخاه سليم دون تفريق ، وأنه أقدم على هذه التغييرات من أجل حل النزاع القائم بين الطرفين ، حيث نجح إلى حد ما في تهدئة بيازيد. ورغم وصول الأمير إلى أماسيا في الواحد والعشرين من كانون الأول العام ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين فقد استمرت المنافسة بين الشقيقين.

وتنص بعض المصادر على روايات تفيد بأن اللالا مصطفى الذي كان يرافق الأمير بيازيد قد لعب دوراً مهماً في تأجيج هذا الصراع ، وأنه في الحقيقة كان من مناصري الأمير سليم وهذا ما دفعه إلى القيام ببعض المكائد لإظهار بيازيد بمظهر المتمرد العاصي ، كما كان يقوم بتحريضه في الوقت نفسه. 569 ورغم أنّ الصدر الأعظم رستم باشا قد أدرك حقيقة هذه المكائد ، فقد قرر مراقبة الأحداث في صمت وتنفيذ كل أوامر السلطان ، وذلك توجساً مما أصابه سابقاً نتيجة دوره في مقتل الأمير مصطفى ، وما جرّه على نفسه من نقمة حينها570.

وفي المحصلة فقد تمكن الأمير بيازيد من جمع قوة عسكرية بلغ عددها عشرين ألف جندي مكونين في معظمهم من الكثير من اللصوص وقطاع الطرق الذين عينهم في قوات الكابى كولو بالإضافة إلى العديد من جنود السكبان571 وحاملي البنادق. ومقابل ذلك فقد اتخذ الأمير سليم بدوره احتياطاته وبدأ بالتحضيرات العسكرية. ولكن على خلاف الأمير بيازيد الذي كان يتحرك من تلقاء نفسه ، فقد كان سليم يتصرف وفق أوامر السلطان ويقوم بكل الاستعدادات بمساعدة منه وبناء على تعليماته.

ورغم ذلك فقد كان السلطان يدرك بأن سليم عاجز عن التصدي لبيازيد بمفرده. لذلك فقد أمره بعدم الاعتماد على أفراد مرتزقة مثل بيازيد ، بل ضمّ أفراد يمتلكون مهارات

قتالية ، يجيدون امتطاء الخيل ، بالإضافة إلى استخدام الأسلحة ، وتعيينهم كجنود بأجر يومي. ومن أجل تلبية هذه المصاريف فقد أنعم عليه بمنحة مالية قدرها ستمائة ألف أكجة.

ورغم كل هذا الدعم فقد واجه سليم صعوبة في حشد قوات عسكرية ، وبناء عليه فقد أمر السلطان أميري الأمراء القريبين من قونيا بالاستعداد مع قواتهم والانضمام إلى قوات الأمير سليم. فتوجه أمير أمراء الأناضول جنابي أحمد باشا مع قواته إلى أفيون كارا حيصار ، وأمير أمراء ذو القادر علي باشا مع قواته إلى قيصري ، بينما سيتحرك كل من فرهاد باشا أمير أمراء قرمان ووالي أضنا رمضان أوغلو بيري باشا ، بناء على توجيهات الأمير سليم. بالإضافة إلى المزيد من الإداريين الذي وصلهم فرمان السلطان بهذا الخصوص ، وبذلك فقد حوصر الأمير بيازيد في أماسيا داخل طوق محكم.

وللتخلص من هذه الكماشة ومع قيام الأمير بيازيد بمغادرة المدينة ، وجمع قواته منطلقاً صوب أنقرة ، قرر القانوني بأنه حان الوقت للتحرك ضد بيازيد. فأرسل كلاً من سوكولو محمد باشا وأمير أمراء روميلي إلى قونيا ، كما أمر الأمير سليم بالإعداد لمعركته الدفاعية إلى جوار قونيا.

كانت مغادرة الأمير بيازيد لسنجقه وتحركه على رأس قواته ، إيذاناً علنياً بالعصيان. ورغم أنّ السلطان القانوني وبسبب الحزن الذي أصابه نتيجة واقعة الأمير مصطفى ، قد حاول لوقت طويل الحيلولة دون وقوع هذا النزاع ، ولكنه لم يوفق في مسعاه. واضطر لاتخاذ أصعب قرار له كأب ، حين قام بمراجعة شيخ الإسلام أبو السعود أفندي للمرة الثانية بخصوص ابن آخر من أبنائه ، وقد توجه إليه بالسؤال:

«إن خرج واحد من أبناء سلطان عادلٍ عن طاعته ، وقام بحشد الجنود من حوله ، وباشر بالقتال على رأس قواته للاستيلاء على البلدات والقلاع ، ولم يستمع إلى النصائح على الإطلاق ، فهل من الجائز شرعاً قتله وتفريق قواته ؟»

وكان ردّ شيخ الإسلام كالتالي:

«الجواب: إنه حلال. وهو مثبت بحسب ما جاء في نص القرآن الكريم. وهو حكم شرعي ، وقد أجمع الصحابة الكرام على هذا الرأي. فالسعي لدفع الفتنة والفساد واجب على من يستطيع بالقتال ، فإن لم يستطع فبالدعاء والكلام الحق»572.

وابتداء من هذه المرحلة رغب القانوني في متابعة الأحداث عن كثب ، لذا أقام خيمته في أوسكوادر في حزيران العام ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. وقبل مضي وقت طويل وقعت معركة حامية الوطيس في قونيا بين قوات الأمير بيازيد ، وقوات الأمير سليم الذي تسانده قوات السلطان ، كانت نتيجتها هزيمة قوات الأمير بيازيد وفراره من ساحة المعركة ، حيث تمكن من الوصول إلى أماسيا برفقة أبنائه مع فرقة صغيرة من قواته.

وقد قام بإرسال مفتي أماسيا محي الدين الجرجاني إلى إسطنبول ليعبر للسلطان عن ندمه ، ويطلب منه العفو والسماح على ما أقدم عليه. كما أرفق موفده برسالة جاء فيها «لقد قمت بكل ما قمت به ، بتحريض من لالا مصطفى باشا. فهو من دفع بي إلى هذا الطريق». ولكن من المرجح أنّ هذه الرسائل قد تم الاستيلاء عليها من قبل رجال اللالا مصطفى ولم تصل إلى يديّ القانوني573. أما السلطان بدوره فقد بات من الواضح أنه يرغب في تطبيق الفتوى الشرعية على ابنه العاصي الذي تدل الوقائع على عدم مطابقة أقواله لأفعاله ، وأنه لا يستحق الرحمة بموجب ما يبيحه الشرع الشريف.

وبناء عليه فقد أمر الأمير سليم وقواته بإلقاء القبض على الأمير بيازيد ، فتحرك كل من سوكولو محمد باشا وأمير أمراء روميلي مصطفى باشا والأمير سليم نحو أماسيا ، وتحسباً لاحتمال هربه خارج البلاد فقد أرسل السلطان إلى أمرائه الحدوديين رسائل متعاقبة ، يأمرهم فيها بمنع الأمير بيازيد من الهرب صوب إيران.

وبينما كان بيازيد ينتظر قرار العفو بدأ يدرك أنّ الأوضاع تنقلب عليه بشكل بالغ الخطورة ، وأنه غير قادر على المكوث في أماسيا أكثر من ذلك ، لذلك اصطحب أبناءه الأربعة معه وانطلق نحو إيران في السابع من تموز العام ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. ولم يرافقه سوى قوة عسكرية تدين له بالولاء والإخلاص التام. وقد أدركه متعقبوه في موقع

حدودي يدعى سعد جوكورو ، ووقعت بين الطرفين معركة شديدة الوطأة ، ولكن بيازيد استطاع أن يلحق بهم الهزيمة وأن يجتاز الحدود ونجح في الدخول إلى الأراضي الإيرانية.

استقبله حاكم يريفان نظام الدين شاه كولو خان استقبالاً فخماً ، وبعد أن أبلغ الشاه طهماسب بالوضع ، قام بإرسال الأمير وحاشيته إلى تبريز بناء على الأوامر التي تلقاها منه. حيث تم استقبال الملتجئين وفق مراسم احتفالية مهيبة من قبل الشاه.

وفي الرسالتين اللتين بعث بهما القانوني إلى الشاه طهماسب موضحاً حقيقة عصيان ابنه ومجريات معركة قونيا ، كان يطالبه وبناء على علاقات الصداقة بين الطرفين بإعادته وتسليمه ، وإلا فستضطر القوات العثمانية المكلفة بإلقاء القبض على الأمير المتمرد ، دخولَ الأراضي الإيرانية. وكانت خشية السلطان الحقيقة هي قيام الشاه بتقديم مساعدة فعلية إلى الأمير ، وتحسباً لهذه الاحتمالات فقد أمر قوات جيشه بالإقامة في الثكنات العسكرية على طول الحدود.

ومن جهته كان سليم أيضاً يبعث برسائل تراوح لهجتها بين الرجاء والتهديد من أجل الغاية نفسها إلى الشاه طهماسب ، ولكن أولى رسائل الشاه إلى القانوني كانت توضح رغبة بيازيد في تشفعه لدى والده ، ومن ثم تواصلت المراسلات بين السلطان وإيران وكانت هذه الشفاعة في البداية سبيلاً لتسكين حدة القانوني وغضبه ، وإذكاء مشاعر الأبوة لديه مجدداً.

كما أنّ الأمير بيازيد بدوره كان يواصل بعث رسائله إلى والده يرجوه فيها العفو عنه. وفي إحدى هذه الرسائل يخاطب الأمير بيازيد الذي كان يتكنّى بلقب شاهي في أشعاره ، والده بأبيات غاية في الرقة والإحساس:

أيا سليمان سلطان العالم ووالدي

وروح الروح بل وأغلى منها يا والدي

كيف لك أن تضحي ببيازيد يا والدي

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

بجاه الأنبياء وبجاه آدم عليهم السلام

بجاه عيسى وموسى ومريم عليهم السلام

بجاه أشرف الخلق وخير الأنام

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

وكأنني مجنون باتت الجبال ملاذي

تركت المال والملك وأنا بعيد عنك

أذرف دموع الشوق والحسرة من هذا الفراق

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

من له أن يخبرك بحالي يا سلطاني الكريم

فقد بت بعيدا عن أخوتي وحالي كحالي اليتيم

وما بقلبي ذرة لعصيانك والتمرد عليك

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

ألا تعلم أنني البريء أيها السلطان العظيم ؟

فكيف لك أن تسفك دمي وأنا لا ذنب لي ؟

ألن نجتمع في ديار الحق معاً يا مولاي ؟

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

فبجاه الله تعالى الذي أنعم عليك بعرش العالم

لا تقتلني وتجعل الأعداء يشمتون بك يا مولاي

لا تبعدني عن أبنائي نور عيني وفؤادي

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

فلتمسك يدي كما كنت تفعل في السابق

ولتعفُ عما مضى فما من عبد لا يخطئ

وأعفُ عن ذنب عبدك بيازيد وارحمه

فأنا البريء والله يعلم يا صاحب السعادة والدي

أعلن التوبة يا بني العزيز

ولم يكن يليق بالسلطان سليمان القانوني بوصفه سلطاناً إلا الردّ بالمثل ، حيث ردّ جواباً منظوماً مشحون بعاطفة كبيرة وأسلوب جميل على ابنه:

أيا بني الذي رفع راية العصيان والتمرد

أيا بني الذي لم يضع طوق الطاعة في عنقه أبداً

كيف لي أن أفرط فيك يا بني بيازيد

لا تقل لي إنك بريء بل أعلن التوبة

بجاه أرواح الأنبياء والأولياء الأكارم

بجاه نوح وإبراهيم وموسى وابن مريم

بجاه خاتم الأنبياء وفخر الكائنات والعباد

لا تقل لي إنك بريء بل أعلن التوبة

الأبوّة سنة الله في هذا العالم يا بني

ومن يعصِ قول «لا تقل أفٍّ لهما» يظل يتيماً

والله يدري بمن يعصاه ومن يطيعه

لا تقل لي إنك بريء بل أعلن التوبة

ألا تعلم أنّ الرحمة والشفقة زينة الإيمان ؟

ألا تخشى من سفك دماء المسلمين ؟

ألا تريد أن تكون من التائبين حين يحين الأجل ؟

لا تقل لي إنك بريء بل أعلن التوبة

فقد منّ علي الحق تعالى بأن أكون راعياً لعباده

وأنا أريد أن أهزم مع خرافي ذئاب العدو

حاشا لله أن أقتلك دون ذنب أو خطيئة

لا تقل لي إنك بريء بل أعلن التوبة

لقد وافقت أن أمسك بيديك الغارقتين في الدماء

فإن أعلنت التوبة فسنعفوا عنك

بيازيد سأعفو عن ذنبك إن اتبعت السبيل القويم

لا تقل لي إنك بريء بل أعلن التوبة574.

وبالمقابل فإنّ تواجد الأمير بيازيد في إيران قد زاد من فرص الشاه طهماسب في الحصول على منافع من الدولة العثمانية ، حتى تحولت المراسلات بين الحاكمين إلى نوع من المساومة. ولكن سواء بسبب بعض الأحداث التي ارتكبها أفراد من حاشية الأمير المتواجد في منطقة قزوين من جهة ، أو القلق الناتج عن رواج الأقاويل حول رغبة الأمير في السيطرة على عرش إيران وما ولّده من شكوك من جهة أخرى ، فقد تخلى الشاه طهماسب عن دعمه وبات يميل لفكرة تسليمه إلى موفدي السلطان575.

وفي النهاية وصلت رسالة القانوني إلى طهماسب والتي تحمل الموافقة على دفع مبلغ مالي ضخم جداً مقابل تسليمه الأمير بيازيد إلى رجال سليم. حيث أعلن السلطان أنه سيقدم له تسعمائة ألف ذهبية مقابل تسليم بيازيد وأبنائه ، وأنّ سليم أيضاً سيدفع لها ثلاثمائة ألف ذهبية ، فيما لو قام بإحضار الأمراء إلى أرضروم من قبل رجال معتمدين ،

وهناك سيدفع له المبلغ المتفق عليه. وبسبب حل مسألة النقود من جهة ، والتوقيع على معاهدة تؤكد على استمرار علاقات الصداقة مع الإيرانيين من جهة أخرى ، فقد توجه وفد حاشد إلى قزوين لاستلام الأمير وأبنائه من الشاه طهماسب ، وتم تنفيذ حكم الإعدام بحقهم في مكان التسليم على الفور وذلك في الثالث والعشرين من تموز العام ألف وخمسمائة واثنين وستين576.

كان الأمير بيازيد يشبه والده في العديد من طباعه ، فهو يحب القراءة ، كريم ، فاضل الأخلاق ، شاعر ، ذكي ، متواضع ، يتحلى بالجرأة والشجاعة ، وهذا ما جعل حاشيته تتعلق به وتكن له محبة كبيرة ، كما كان يكتب الأشعار متخذا لقب شاهي كما أسلفنا سابقا. وأثناء فترة إقامته في كوتاهيا اجتمع حوله العلماء والشعراء ، الذين اعتادوا عقد مجالسهم بحضوره على الدوام. وفي ديوانه المكون من ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين بيتا ، نجد قصائد باللغة الفارسية أيضاً. 577

ويشير فيها إلى الصراع الذي خاضه في سبيل السلطة ، وطموحه الجامح الذي منعه من الاستماع إلى نصائح والده. كما أنّ هذه الأبيات التي كتبها بعد الهزيمة التي لحقت به وفراره إلى إيران ملتجئاً ، توضح أنه شخص من أهل التوكل والإيمان.

أطاحت الآمال والمطامح بقلبي الذي

بات زاهداً عن مفاتن الدنيا عفيفا

يلوذ بالصبر حتى حلول الأجل وقد

أحالت المحن ربيعه قبل الأوان خريفا

بعد وفاة بربروس خير الدين باشا في العام ألف وخمسمائة وستة وأربعين ، استمرت السيطرة العثمانية على البحر المتوسط. وبعد استلام سوكلو محمد باشا منصب قائد البحرية لفترة قصيرة ، انتقل هذا المنصب إلى سنان باشا شقيق رستم باشا.

وكان خليفة بربروس وأمير أمراء الجزائر ابنه حسن باشا ، ومن ثم تم تعيين صالح ريّس مكانه وهو أحد البحارة الذين تولى بربروس رعايتهم.

أما تورغوت ريّس المتحدر من سنجق مينتيشة578 ، فقد ذاعت شهرته في الآفاق بسبب شجاعته بينما لا يزال بربروس على قيد الحياة. ورغم أنه وقع في الأسر في إحدى الفترات ، لكنه نجا بعد تدخل بربروس وتهديده لبحارة الإمبراطور ، ومع سيطرته على قلعة كاستلامار (Castellamar) في خليج نابولي فقد تمكن من الحصول على غنائم وفيرة. ومن ثم تم استدعاؤه من قبل قبطانى دريا سنان باشا إلى إسطنبول ، حيث منح سنجق إيتوليا أكارنانيا (كارلي إيلي)579 ، كما خصصت رواتب لباقي رجاله وحصلوا على العديد من الامتيازات.

ومن ثم قام تورغوت بالسيطرة على قلعة المهدية في تونس ، وأبدى شجاعة ومقاومة عظيمة أمام جيش شارلكان الذي ضرب الحصار على هذه القلعة في العام ألف وخمسمائة وخمسين. وفي إحدى المرات قام بإطلاق نيران مدافعه على إحدى سفن البندقية التي صادفها ، لأنها لم تنزل أشرعتها توقيرا له ولم تدفع له المال. ما دفع السفير الذي كانت بلاده في حالة سلام مع السلطنة إلى تقديم شكوى لرستم باشا ، فقام القانوني على إثر ذلك باستدعائه إلى إسطنبول.

ولكن بسب الخلافات الدائمة بين تورغوت ريّس وشقيق الصدر الأعظم رستم باشا ، فقد خشي الريّس التوجه إلى إسطنبول تحسباً لتدابير اتخذت ضده. واستمر في

مزاولة نشاطه على سواحل المغرب لما يقارب السنتين مستقلا بنفسه. وحين تقرر فتح طرابلس الغرب (ليبيا)، فقد أرسل إليه السلطان- رغم استيائه من عدم تلبية دعوته سابقاً- مع أمر الاستدعاء مصحفا وسيفاً ذي مقبض ذهبي.

وقد سرّ تورغوت ريّس سروراً عظيماً من هذه الدعوة، فانضم إلى أسطول قبطانى دريا سنان باشا وتمكنوا من فتح طرابلس الغرب في العام ألف وخمسمائة وواحد وخمسين. ورغم الوعد القاطع الذي تلقاه من السلطان القانوني بمنحه حكم طرابلس، فقد قام سنان باشا بعد فتحها، بمنح الحكم فيها لشخص آخر، ما أثار استاء الريّس تورغوت. واصطحب معه بقية بحارته وأراد الانفصال عن قوات السلطان ليعود إلى سواحل المغرب، ولكنه تراجع عن الفكرة بإصرار من سنان باشا ووافق على العودة معه إلى إسطنبول.

وخلال السنوات اللاحقة تمكن تورغوت ريّس من تحقيق العديد من الفتوحات والانتصارات في البحر المتوسط. فقد توالت هجماته على سواحل نابولي وصقيلة، كما قام بحصار قلعة باستيا في كورسيكا580، وقام بالتضييق على السواحل الألبانية ونجح في معاقبتها. وحين عاد إلى إسطنبول بانتصارات وغنائم تفوق كل التوقعات، أراد السلطان أن يكافئ هذا القائد البحري العظيم بسبب المجد والمهابة اللذين أسبغهما على أسطول بلاده، بمنحه منصب أمير أمراء الجزائر.

ورغم أنّ رستم باشا حال دون تحقيق هذه المنحة متذرعاً بأنّ الخدمات التي سيقدمها تورغوت ريّس للسلطنة وهو حرّ من أي التزام سيعود عليها بالنفع أكثر، فقد مثل تورغوت ريّس أمام القانوني ورجاه أن يمنحه حكم ولاية طرابلس، ولم يكن من السلطان سوى تلبية رغبة هذا البحار الشجاع الذي يكنّ له تقديراً بالغا، وبذلك أصبحت طرابلس تحت تصرف الريّس حتى وفاته.

وبعد وفاة سنان باشا، تولى بيالي باشا منصب قائد الأسطول وذلك في العام ألف وخمسمائة وأربعة وخمسين، وقد استمر تورغوت ريّس في التعاون معه خلال الفعاليات والفتوحات في البحر المتوسط. وكانت مهمتهم هذه المرة تقديم المساعدة للأسطول

الفرنسي وذلك بعد الجهود الحثيثة التي بذلها أرامون581 في هذا الشأن ، والتي أسفرت عن إصدار السلطان لفرمان موجه لقائد الأسطول ينص على الاستعانة بقوات تورغوت ريّس والاستفادة من تجربته وخبراته ، والانضمام سوية إلى الأسطول الفرنسي. 582

وقد كان امتنان الملك الفرنسي من قرار السلطان ومساعدته كبيراً ، حتى أنه خاطبه في رسالة الشكر التي بعث بها في الثالث من تموز العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين بالقول:

«أيها الحاكم بالغ العظمة ، عالي الشأن ، والمنتصر دوما! يا سلطان المسلمين العظيم! يا صديقنا العزيز والمحترم جداً!»

وبعد الشكر الحار الذي أبداه للسلطان ، فقد أبلغه بأنّ الأسطول العثماني ما إن يبلغ سواحل بروزة ، سيجد الأسطول الفرنسي في انتظاره ، وهناك سيجتمعون مع الأميرالات الفرنسيين للاتفاق حول الخطة التي سيواجهون بها عدوهم المشترك (الإمبراطور) وما إلى ذلك من بقية التفاصيل.

وبالفعل فقد توجه بيالي باشا على رأس أسطوله إلى صقلية ، وتمكن من حصار وفتح بعض القلاع على سواحل المتوسط ، وفي هذه الأثناء كان أندريا دوريا راسياً على سواحل نابولي مع أسطوله المكون من خمس وستين سفينة ، ولكنه ما إن علم باقتراب الأسطول العثماني ، حتى ابتعد عن المنطقة. ومع ذلك وكما حصل سابقاً في عهد بربروس ، لم يحدث تعاون فعلي مع الأسطول الفرنسي ، ما دفع الملك الفرنسي إلى بعث رسالة جديدة للسلطان القانوني في العام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين ، وإزاء فشل محاولته هذه ، أرسل إليه يوضح أعذاره ويرجوه ألا يلومه.

وفي هذه الأثناء كانت الجزائر التي يتولى حكمها صالح باشا تشهد بعض الفعاليات والمستجدات ، وقد تطرقت الرسائل المرسلة إلى ملك فرنسا إلى هذه الأحداث. والتي بدأت مع قيام أحد زعماء القبائل المحلية المتحالف مع الإسبان بحصار قلعة جزيرة القميرة583 ،

ليسرع صالح باشا إلى هناك ويتمكن من هزيمة الإسبان وطردهم. كما أنّ الأخبار الواردة حول عقد الملك الفرنسي هدنة مع الإمبراطور في منطقة فاسيليس584 لم تقع موقعاً حسناً لدى حليفه القانوني. حيث اعترض على هذه الاتفاقية الموقعة من طرف واحد والتي لم يحضرها ممثل عنه. وقد بادر هنري الثاني على الفور بالتوضيح للسلطان عن طريق سفيره دي لافين ، بأنه وافق على توقيع هذه الهدنة من أجل تسهيل تنازل الإمبراطور عن العرش. وفي الواقع ما كان لهذه الاتفاقية أن تطبق في ظل ظروف مغايرة.

وقد كانت هذه الهدنة من جهة ، ومطالبة صالح باشا بإرسال أسطول لمساعدته من جهة أخرى ، السبب في إرسال السلطان الأسطولَ بقيادة بيالي باشا إلى سواحل المغرب بشكل متعاقب خلال عدة سنوات ، وقد أبلغَ ملك فرنسا بهذه التفاصيل في إحدى رسائله التي بعث بها إليه.

وفي الفترة الممتدة بين الأعوام ألف وخمسمائة وستة وخمسين وثمانية وخمسين ، قام بيالي باشا بالسيطرة على وهران وبنزرت المحصنتين ، كما شن هجوماً مدمراً على جزيرة مايوركا ، وعاد إلى إسطنبول دون أن يقابل الأسطول الإسباني. وفي العام ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين قام بحملة الأدرياتيكي585.

كانت الانتصارات المتوالية التي حققها بيالي باشا في البحر المتوسط ، والضربات الموجعة التي وجهها للقواعد الإسبانية في كل عام ، سبباً في تفاقم خشية هؤلاء. ما دفع الملك الإسباني فيليب الثاني للإعلان عن تعبئة عامة من أجل الإعداد لحملة صليبية ، وأقحم الفاتيكان أيضاً في الحملة ، حتى نجح في عقد تحالف معادٍ للدولة العثمانية يضم كلاً من ؛ إسبانيا والفاتيكان ، فرسان مالطا ، نابولي ، جنوة وفلورنسا586. حيث قرر المتحالفون أن يقوموا في البداية بفتح طرابلس الغرب التي يتولى حكمها تورغوت ريّس.

أما بيالي باشا ومع حلول الربيع بدأ بالتحرك على رأس أسطوله في سواحل المتوسط وبحر إيجة ، للحيلولة دون هرب الأمير بيازيد بحراً ، بعد إعلانه التمرد وهزيمته في معركة قونيا ، وعلى إثر تلقيه أخباراً تفيد بتوجه الأمير الفار نحو الشرق ، أبحر الباشا نحو سواحل المورا ، وتمكن من السيطرة على أسطول صغير للعدو صادفه بالقرب من سواحل مودون587. وحصل على معلومات من طاقهما- الذي كان ينوي الانضمام إلى القوات الصليبية- حول آخر تحركات العدو ، فعلم أنّ قراصنة مالطا على وجه الخصوص يشعرون بقلق عظيم ، وقد انخرطوا في جهود حثيثة من أجل إلحاق الهزيمة بالأتراك ، كما أعلمه قائد الأسطول الأسير بأنّ كل الدول المسيحية قد استجابت لهذه الدعوة ، وبدأت الاستعداد من أجل تشكيل أسطول صليبي ضخم.

وقد استغل هؤلاء خلافات الأشراف العرب مع تورغوت ريّس ، فقاموا بالتواصل مع قسم منهم ، وكان أول أهدافهم إنهاء سيطرة الأتراك على طرابلس الغرب.

وعلى الفور أرسل بيالي باشا تقريراً بهذه الأخبار إلى إسطنبول ، فجاءته الأوامر بشن هجوم على أسطول العدو إن اقترب من تلك الأرجاء. كما تم تجهيز عشر سفن كاردغة إضافية وأرسلت إليه ، وبذلك وصل عدد السفن التي تتحرك تحت إمرته إلى ثمانٍ وتسعين سفينة.

ومن هناك توجه الباشا إلى سواحل فلوره ، وأخذ في مراقبة تحركات الأسطول الصليبي الذي كان يستعد للتوجه إلى جزيرة جربة وطرابلس ، وقد تسبب وصول الأسطول العثماني إلى المنطقة ، في إثارة قلق العدو ، ما دفعهم إلى تأجيل تحركاتهم والانسحاب. وعلى إثر ذلك ومع انقضاء موسم الحملات ، وقدوم فصل الشتاء ، عاد الأسطول العثماني بدوره إلى إسطنبول.

وبالمقابل لم يتفرق الأسطول الصليبي ، ولم تعد فرقه البحرية إلى بلدانها ، فقد رسوا في إحدى قواعدهم البحرية القريبة من طرابلس الغرب لقضاء الشتاء ، مقررين الانطلاق مجدداً في شهر شباط.

كانت معركة بروزة لا تزال ماثلة في ذاكرتهم ، لذا كانوا يتحركون وسط حذر وقلق شديدين ، حتى لا يفضي بهم التصادم مع القوات العثمانية فوق مياه المتوسط إلى فاجعة جديدة. وفي حال تمكنوا من إلحاق الهزيمة بتورغوت ريّس في جربة والقضاء على قواته ، سينجحون في التخلص من خصم قوي ، كما وسيغدو طريق تونس وطرابلس الغرب مفتوحاً أمامهم. وفي حال تمكنوا من الحصول على تأييد العرب ، فستغدو إمكانية استرداد الأتراك لهذه المناطق منهم ضرباً من المحال- كما كانوا يخططون. وبالتالي سيتمكنون من التصدي بشكل أقوى للهجمات السنوية التي كان الأسطول التركي يشنها على سواحلهم.

كان الصليبيون يفكرون وفق استراتيجية عسكرية صحيحة ، ففي حال السيطرة على جربة الواقعة بين كل من تونس وطرابلس ، سيغدو بمقدورهم التحكم بصورة أفضل على كلا البلدين ، وسيكون هدفهم الثاني هو طرابلس الغرب الخاضعة لحكم تورغوت ريّس. وقد كانوا حريصين على تطبيق خططهم وفق سرية بالغة.

انطلق الأسطول الصليبي مع بداية شباط من سواحل صقلية ، متجهاً نحو سواحل جربة المحاذية لخليج قابس (سرت الصغير) القريب من طرابلس الغرب. وكانت قواته تضم ألف جندي تركي ، وبضعة آلاف من الجنود العرب المتطوعين ، بينما كان تورغوت ريّس على رأس القوات الأساسية يتحصن في طرابلس ، بعد أنّ تحققت تواقعاته في

أنّ القوات الصليبية تخطط لشن حملة عليه. وفي السابع من آذار العام ألف وخمسمائة وستين بدأ الحلف الصليبي إنزال قواته الحاشدة على شاطئ الجزيرة ، ولكن المدافعين الذين أبدوا مقاومة ضارية لمدة خمسة أيام متتالية ، أدركوا أنهم غير قادرين على التصدي لهذه الجموع العسكرية الضخمة ، فانسحبوا في الليلة الخامسة من الجزيرة ، ونجحوا في الوصول إلى طرابلس والانضمام إلى تورغوت ريّس.

وبذلك تمكن الصليبيون من السيطرة على القلعة في الثاني عشر من آذار فبادروا بتدميرها على الفور ، والشروع في بناء حصن منيع مكانها ، ليغدو أقوى القواعد العسكرية خلال حملاتهم على سواحل شمال أفريقيا. وقبل التوجه إلى طرابلس الغرب ، أرادوا التحقق من تحركات الأسطول العثماني ووضع الخطط بناء على التطورات المستجدة ، وكانوا يعتبرون أنفسهم في موقع أكثر تفوقاً بعد أن كسبوا الجولة الأولى ، ورغم ذلك فمن الواضح أنهم كانوا يخشون هجوم الأسطول العثماني عليهم أثناء توجههم نحو طرابلس588.

وعلى إثر المعلومات التي اطلع عليها تورغوت ريّس من السفينة الفرنسية التي استولى عليها ، قام بإرسال أولوج علي ريّس إلى إسطنبول على وجه السرعة لإبلاغهم بتحركات الأسطول الصليبي.

وقد أحدثت هذه الأخبار لدى وصولها إلى إسطنبول أسفاً عميقا ، فأصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى بيالي باشا بتجهيز الأسطول المكون من مائتي سفينة حربية بكامل العدة والعتاد حتى حلول الربيع. وفي الردّ الذي أرسله إلى تورغوت ريّس ، أوضح له بأنّ الأسطول يتم استعداداته ، وسينطلق مع حلول الربيع ، كما أبلغه بأنه أرسل أوامره إلى الشيوخ والزعماء العرب في المنطقة لتقديم العون له في حال تعرض لهجوم العدو قبل وصول الإمدادات إليه.

وهذا ما كان بالفعل ، فقد أسرع السلطان القانوني بإرسال الهدايا والرسائل إلى كل الشيوخ المتنفذين والمرابطين في شمال أفريقيا ، وقد اختار لتنفيذ هذه الوظيفة بالغة الأهمية سعيد ريّس الذي ولد في تلك الأنحاء ويتقن التحدث بالعربية ، فصعد مع الجنود

الموضوعين تحت إمرته إلى السفينة التي أرسلها تورغوت باشا وفتح أشرعتها صوب طرابلس.

وقد أكدّ السلطان القانوني في رسائله إلى الشيوخ والمرابطين العرب أنّ التحالف مع أعداء الدين والقتال إلى جوارهم يعد أكبر المساوئ التي سيلحقونها بالدين الإسلامي ، وخاطبهم بالكلمات التالية:

«أنتم رجال حققتم فتوحات عظيمة ، كما أنّ أجدادكم وأسلافكم من خيرة العلماء والصالحين الذين تلقى دعواتهم القبول. أتيتم لدرء الفتنة والعداوة ، ورضيتم في سبيل الجهاد لوحدة بلاد الإسلام بقربة ماء وحفنة زاد ، أنتم الحامدون الشاكرون ، المؤتمنون على علم أبي الدرداء ، المجاهدون الذي يفترشون حصيرة في قيظ الصيف وقسوة الشتاء. والمؤمنون بوصايا الأنبياء والملتزمون بسيرهم منذ الأزل. وقد سألت عنكم رجالي وأصدقائي ممن انشغلوا في دياركم بتعمير البلاد والذود عن دين الحق ، وعلمت أنّ أهالي جربة على وجه الخصوص لم يحاربونا على الإطلاق. وكانت تصلنا منهم على الدوام رسائل ودية تعبر عن الولاء.

فيا عباد الله المختارين ، لو أنكم أطلعتموني حال نشوب خلاف بينكم وبين جنودي ، بسبب تحالفكم مع الأعداء ، أما كنت سأحلّ الخلاف بينكم ؟ ذلك أنّ خشية الله تعالى يوم الحساب ستدفعني للنطق بالحقيقة وسأقول له: لقد بعثت إليهم بالخلع وقمت بإسداء النصح لهم ، ولكنهم اختاروا العدو ، ولم يثقوا بكلماتي. فأين ذهبت همتكم في سبيل الله سبحانه وتعالى ، وكيف لك أن تتركوا شريعة الرسول الكريم وسننه ، وتضعوا يدكم في يد أعداء الدين والله ؟ فما يليق بمثلكم هو العودة إلى أوامر جناب الحق ، وسنة رسوله الشريف وشرعه ، وأحكام علماء الدين وشيوخه ، والوقوف إلى جانب سلطان المسلمين المهيب ، صاحب القوة والعظمة». .

حين وصل سعيد ريّس إلى مدينة تاجوراء[589] القريبة من طرابلس كان الأسطول المسيحي قد بلغ رأس مليح ، فيما كان تورغوت باشا يقيم في جزيرة جربة ، وكان وضعه في غاية الحرج بسبب ملاحقته من قبل بعض خصومه من زعماء العرب ، وكان يبذل قصارى

جهده من أجل عبور الجسر والانتقال إلى طرابلس بأسرع وقت ممكن. وحين علم بوصول سعيد ريّس محملاً بالهدايا والرسائل المبعوثة إلى أعيان المنطقة ، خمّن على الفور نوايا السلطان العثماني ، وأدرك وجوب تحسين علاقاته مع العرب والتقرّب منهم.

وقد حاول سعيد ريّس ومرافقوه بما حملوه من أخبار أن يقنعوا الأعيان العرب بطيب الكلام وحسن المعاملة ، حتى تمكنوا من جمعهم والاجتماع بهم ، وقدموا لهم الخلع التي أرسلها السلطان ووزعوا عليهم الهدايا ، وتجاوزوا بذلك العداء. أما شيوخهم المحنكون ، وبعض من أمرائهم العقلاء فقد تأثروا كثيراً وهم يستمعون للأوامر الواردة من الديوان الهمايوني ، وأعلنوا قائلين:

«لقد أحسن السلطان سليمان القانوني الغازي القول. ولا يجوز لنا أن نبدّل الفناء بالخلود ، ولا الدنيا بالآخرة ، ولا أن نؤثر مفاتن الدنيا على الدين القويم. فلنرجع كلنا عن هذا العمل المشين». وأعلن كل منهم قائلاً «لقد أعلنت التوبة والعودة للحق» كما أبدوا اعتذارهم واستغفروا الله على ذنوبهم.

وقد كان لهذه الكلمات وقع بالغ الأثر على المرابطين والشيوخ المتواجدين معهم ، فأعلنوا بدورهم:

«طالما أنّ سلطان الأوان وخليفة العالم قد استند لآيات الله الكريمة ، وأحاديث رسوله العظيم وشرعه ، راغباً في صداقتنا ودعواتنا نحن العباد العاجزين ، فنحن من اليوم وصاعداً رعاياه المطيعون لوصايا قلباً وقالباً ، نحن أصدقاؤه والعباد المؤتمرون بأمره. ولم نكن نعلم قبلاً أنّ جناب السلطان صاحب السعادة ، كان يهتم بأحوال عباد هذه البلاد ويسأل عن أوضاعهم ، وها قد اطلعنا الآن على أوامره السنية ، وأدركنا حقيقة موقفه ، فمن اليوم نحن حلفاء تورغوت باشا ، لا نحيد عن كل ما يأمرنا به». .

ولم يتأخروا عن إبلاغ الإسبان بحقيقة قرارهم ، وتغير موقفهم ، حيث أعلنوا لهم:

«من الآن فصاعداً لا تنتظروا منا أي عون ، فذلك يتنافى مع مبادئ ديننا. وكل ما

جرى سابقاً هو أنّ بعضاً من الجهلة والطامعين قد ضلوا جادة الصواب وحادوا عن الحق». .

فنحن المطيعون لحكم السلطان بن السلطان

عباده ورعاياه الذين نفتدي بالروح ابن عثمان

ومن جهته فإنّ بيالي باشا الذي أمضى فصل الشتاء في إتمام التحضيرات ، انطلق مبحراً في الرابع من نيسان العام ألف وخمسمائة وستين ، بعد المراسم الرسمية التي أقيمت في بشيكتاش أمام ضريح بربروس خير الدين باشا.

حين بلغ الباشا جزر أوينوسيس590 ، وصلت فرقاطة من قبل تورغوت باشا ، لتخبرهم بأنّ الأسطول الصليبي على وشك شنّ الهجوم على مدينة طرابلس. ومن أجل الاطلاع على أحوال العدو قام بيالي باشا بإرسال أولوج علي ريّس إلى سواحل البندقية.

وقد صادف أولوج علي ريّس أثناء مهمته سفينة ضخمة من سفن العدو ، ونجح في السيطرة عليها بعد صراع شديد وقع بين الطرفين ، وأسر خمسين من جنود العدو الذين كانوا على متنها ، كما غنم ثلاثة مدافع برونزية تطلق نيران قوية ، بالإضافة إلى ثلاثة وأربعين مدفعاً طلقاتها أشدّ من الصواعق.

عاد أولوج علي ريّس إلى بيالي باشا مع السفينة التي غنمها ، فاستقبلوه وسط فرحة عارمة ، واعتبروا الأمر بشارة خير ، فتوجه الكل بالحمد لله تعالى. فيما أرسلت السفينة التي تمت السيطرة عليها إلى إسطنبول.

ومن هناك انطلق الأسطول العثماني صوب خليج كورون ، ليلتحق بهم حاكم سنجق جزيرة ميديللي (لسبوس)591 مصلح الدين مصطفى بيك مع أسطوله ، حيث تبادل الطرفان أثناء عملية الانضمام التحية عبر طلقات المدافع ، وارتفعت البيارق الملونة ، ودقت الطبول والنقارات ، وعلّت أصوات الحمد والتكبير ، وقدمت العروض والاحتفالات.

وحين وصلوا أمام قلعة مودون ، انضم إليهم هناك كورد أوغلو أحمد بيك والي سنجق رودس مع سفنه. وأثناء اللقاء علت مجدداً أصوات التكبيرات والتوحيد حتى طغت على أصوات طلقات المدافع ، وأمضى المجاهدون أيامهم وسط سرور وحماس عظيمين.

وبعد قضاء عدة أيام في الجزيرة ، حيث أجريت إصلاحات طفيفة على السفن ، واستكملت النواقص من المؤونة والعتاد. قام بيالي باشا بإرسال كورد أوغلو أحمد بيك إلى ميناء أنافيرين (Anaverin) ، فيما توجه في الأول من أيار العام ألف وخمسمائة وستين

على رأس أسطوله الأساسي إلى جزيرة مالطا.

وعلى الفور أنزل قواته على شواطئ جزيرة مالطا الصغرى (جوزو)592 ، وخلال وقت قصير تمكنوا من اغتنام الكثير من الأموال والأسرى ، وقد أعلمهم هؤلاء الأسرى بأنّ الأسطول الصليبي لا يزال منتظراً في قلعة جربة ، فأرسل بيالي باشا إلى تورغوت ريّس يخبره بالتوجه إلى سواحل جربة لملاقاته ، كما سار هو أيضاً نحو العدو دون إضاعة المزيد من الوقت.

وبعد إبحار استمر ليومين وليلتين في عباب البحر ، وصل إلى جزيرة قرقنة القريبة من جربة ورسا بسفنه فيها ، وفي اليوم التالي أخذت السفن تستعد لبدء المعركة.

وما أن تحرك الأسطول العثماني حتى انتقلت الأخبار من مالطا إلى جربة ، لتعلم أسطول التحالف بأنّ بيالي باشا يسير نحوهم.

وعلى إثر هذه الأخبار قام الأسطول الصليبي أيضاً باتخاذ استعداداته دون تأخير ، وفتح أشرعته ليبحر مبتعدا عن سواحل جربة حوالى ثمانية أميال ، للنجاة من هجوم مفاجئ.

كانت تلك الليلة تحمل قيمة استثنائية بالنسبة للجنود العثمانيين ، فقد كانت ليلة البراءة (ليلة النصف من شعبان) ، وقد قاموا بإحيائها على متن سفنهم حتى ساعات الصباح في التسبيح والتهليل وترديد الأذكار.

ومع حلول الصباح كانت أعظم قوتين بحريتين في العالم تقفان متواجهتين. ضم الأسطول العثماني إلى جانب بيالي باشا القبطانى دريا المحنك الذي يمخر عباب البحار منذ أربعة أعوام دون هوادة ، مجموعة من أفضل القباطنة والبحارين الذين ترعرعوا ونشؤوا على يد بربروس وأخوته ، وكانت تجمعهم روابط وثيقة وتفاهم عميق ، يرومون تحقيق هدف واحد ؛ وهو محو العدو بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وقد نظم بيالي باشا سفنه وقواته البحرية على شكل هلال ، واتخذ موقعه في المركز ، على الميسرة كان كورد أوغلو مصلح الدين مصطفى بيك والي سنجق ميديللي وقواته ، وكان مصطفى بيك قد تولى سابقاً قيادة أسطول القانوني أثناء فتح جزيرة رودس قبل تسعة وثلاثين عاماً ، أما على الميمنة فقد كان شقيق مصطفى بيك ووالي سنجق رودس كورد أوغلو أحمد بيك يترأس قواته ، أما سيدي علي ريّس الذي قاده ميسرة القوات البحرية أثناء معركة بروزة ، فكان يقود الأسطول الاحتياطي ، إلى جانب العديد من قادة الأسطول مثل ؛ أولوج علي ريّس ، غضنفر ريّس ، ديلي جعفر ريّس وعلي بيرتك ريّس وسواهم من البحارة المحنكين.

أما الأسطول الصليبي المتشكل نتيجة جهود حثيثة بذلها الملك الإسباني فيليب الثاني لإنزال ضربة قاصمة بالتفوق العثماني البحري ، والذي شارك فيه إلى جانب الفاتيكان كل من جنوة ، فلورنسا ، مالطا ، صقلية ونابولي ، فكان مكوناً من مائتي سفينة تحت قيادة جيان أندريا دوريا ، وهو ابن أخي القائد البحري الشهير أندريا دوريا الذي اشتبك مع بربروس في معركة بروزة ، أما عمه أندريا دوريا الذي كان قد بلغ من العمر أربعة وتسعين

عاماً ، فقد كان يقيم في جنوة منتظراً وصول أخبار انتصار ابن أخيه ، ولكنه ومع تلقي أخبار الهزيمة رقد على فراش الموت.

ومن ضمن قادة الأسطول الصليبي المشهورين ، قائد أسطول الفاتيكان المير بلامينو أورسيني ، قائد القوات المالطية جويلامو ، قائد أسطول جنوة جيغالا ، قائد أسطول صقلية دونجوان دي كاردونا ، قائد أسطول نابولي دون برانجي دو ريكينس. وكان عدد قواتهم على متن السفن ثلاثين ألف جندي. وقد اتخذ الأسطول الصليبي وضعية الحرب البحرية المفتوحة.

وفي سبيل رفع معنويات جنوده ، فقد لجأ بيالي باشا إلى كل السبل ، حيث خطب فيهم ليزيد من حماستهم:

«اليوم هو اليوم الموعود ، وما الحياة إلا ليوم كهذا اليوم ، وإن كان القصد هو كسب مرضاة الله سبحانه وتعالى ، فها هي الفرصة أمامنا. كما أنّ همة السلطان معنا في هذا السبيل. فليكن جناب الحق العلي في عوننا»[593].

[393←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 169-170. لطفي باشا ، ص 296.

[394←]

هي مدينة تقع في أقصى غرب بلغاريا ، وعاصمة مقاطعة كيوستينديل. وتَقع المدينة في الجزء الجنوبي من وادي كيوستينديل ، قرب الحدود مع صربيا ومقدونيا. (المترجم).

[395←]

جلال زاده (طبقات الممالك) ، ص 346. (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 170-171. لطفي باشا ، ص 296-297. صولاك زاده ، ص 504.

[396←]

-كابان شاهين (سياسة القانوني الغربية) ، ص 164.

[397←]

فرق المشاة الخفيفة من الجيش العثماني ، كانت تتقدم الجيش في المعارك عادة ، والكلمة مستمدة من العربية وتشير إلى الرجل العازب الذي كانت عزوبيته شرط انضمامه لهذه الفرقة ، وكانت معظم المهام الموكلة لهم هي تشكيل قوات حماية القلاع. . (المترجم).

[398←]

-تحفة الكبار ، ص 86. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 507.

[399←]

جنود العلوفة (فرسان ومشاة) كانوا ممن يتلقون راتباً مخصصاً (علوفة) كل ثلاثة أشهر ، ويشكلون إحدى فرق الكابي كولو ، ومهمتهم الأساسية هي حراسة خزينة الدولة-فرقة الغرباء (غُربا بلوكلري) وتتشكل من الفتية القادمين من الأناضول ومصر وأفريقيا وغلمان الدوشيرمة الذين نالوا حظاً من التعليم. ومهمتهم الأساسية الحفاظ على السنجق الشريف وأعلام السلطان. (المترجم).

[400←]

نوع من كلاب الرعي الضخمة ، كان السلاطين العثمانيون يستخدمونهم في الصيد. (المترجم).

[401←]

- -فرقة من الجند المشاة يقال بأنّ معظمهم كانوا عُسراً من حملة السيوف والرماة ، يتم اختيارهم من بين فرق الإنكشارية ، وكانوا أقرب الفرق المحيطة بالسلطان. (المترجم).

[402←]

-هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد الخامس ، ص 1491-1492.

[403←]

جلال زاده (طبقات الممالك) ص 354-356. (تاريخ بيجفي) ص 179. لطفي باشا ، ص 297. صولاك زاده ، 504.

[404←]

هي خامس أكبر مدينة في المجر تقع على سفوح جبال ميتشيك ، في جنوب غرب البلاد. وقد كانت سنجقا عثمانيا. ومنها ينحدر المؤرخ العثماني الشهير إبراهيم بيجفي (بيتشوي) (المترجم).

[405←]

جلال زاده (طبقات الممالك) ص 357-358. (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 180-181. لطفي باشا ، ص 297. صولاك زاده ، ص 504.

[406←]

لطفي باشا ، ص 298. جلال زاده (طبقات الممالك) ص 363-364. صولاك زاده ، ص 504-505. (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 181-182.

[407←]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ، ص 364.

[408←]

-بالتركية Ciğerdelen

بلدة في جنوب سلوفاكيا بالقرب من حدودها مع المجر.
(المترجم).

[409←]

-هي بلدة في شمال غربي المجر ، في مقاطعة كوماروم-إستركوم. (المترجم).

[410←]

-صولاك زاده ، ص 505. (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 185-186. لطفي باشا ، ص 298.

[411←]

-لطفي باشا ، ص 298-299. جلال زاده (طبقات الممالك) ص 366-371.
صولاك زاده ، ص 505-506. (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 185-187.

[412←]

-كابان شاهين (سياسة القانوني الغربية) ص 172-173.

[413←]

-هي مدينة تقع في جنوب فرنسا ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بين مارسيليا وجنوى ، في إقليم ألب كوت دازور (المترجم).

[414←]

بالتركية (mavna) سفينة مسطحة القاع تم تصميمها لنقل البضائع الثقيلة. (المترجم).

[415←]

-يورغا (القانوني وعصره) ص 211.

[416←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 381.

[417←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 382. ف.كورد أوغلو (معارك الأتراك البحرية) إسطنبول 1932 ، المجلد الثاني ، ص 349-350.

[418←]

-يورغا (القانوني وعصره) ص 212.

[419←]

-تحفة الكبار ، ص 98. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، 382. م.إيسِن-أ.ف.بيلكان (السلاطين الشعراء) أنقرة 1997 ، ص 127.

[420←]

-م.إيسِن-أ.ف.بيلكان (السلاطين الشعراء) أنقرة 1997 ، ص 127.

[421←]

-عائشة أوزاكباش (السلطانة هُرَّم) مجلة TD, العدد 36 (العدد الخاص بذكرى فكرت إشلتان) ، إسطنبول 2000 ، ص 363.

[422←]

-المعمار سنان أو كوجا سنان أي سنان العظيم (1489-1588) كان أشهر معماري عثماني عاش في أوج العصر الذهبي للعمارة العثمانية وكان رئيس المعماريين وأشهرهم خلال حكم السلاطين الأربعة: سليم الأول وسليمان الأول وسليم الثاني ومراد الثالث. يقول هـ.كلوك العالم الألماني وأستاذ تاريخ العمارة في جامعة فيينا إن سنان يتفوق فنيا علي مايكل أنجلو صاحب أكبر اسم فني في الحضارة الأوروبية. (المترجم).

[423←]

-أو صبيان مكتبسي: تتولى مهمة التعليم والتربية الأولى للأطفال ، كانت تقام داخل مجمعات ، وفي جوار المساجد أو مبان مستقلة يتولى تشييدها بوجه عام رجال الدولة والسلاطين. (المترجم).

[424←]

-سعدي بيرام (الأمير محمد بن السلطان سليمان القانوني ، كلية الأمير

ووقفه ، ومكانته في الفن التركي) المؤتمر التركي الدولي الثاني عشر للتاريخ ، أنقرة 12-17 أيلول ، 1994. مطبعة مجمع التاريخ التركي ، أنقرة 2000 ، ص 1017-1039.

[425⟵]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ، ص 375.

[426⟵]

نوغراد: بالعثمانية نوفيغراد: قرية تقع في مقاطعة نوغراد في المجر-هاتفان: بلدة في مقاطعة هفش التي تقع في شمال المجر-جوكا أو Csókakő قرية تقع في مقاطعة فيير المجرية-سيمونتورنيا: بالتركية Şementurna
بلدة تتبع مقاطعة تولنا بالمجر-أوفيديوبول:
بالعثمانية (Velika)
مدينة تقع في مقاطعة أوديسا في أوكرانيا
(المترجم).

[427⟵]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 494.

[428⟵]

-هي مدينة ألمانية تقع في ولاية بافاريا ، عاصمة منطقة شوابيا الإدارية.
(المترجم).

[429←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 127-130.

[430←]

-سكسارد: بالتركية (Sikçay) مدينة تقع في مقاطعة تولنا المجرية-فسبرم: مقاطعة إدارية في المجر ،.فسبرم هو اسم المدينة العاصمة للمقاطعة أيضا. (المترجم).

[431←]

-إ.متين كونت (من السنجق للإيالة) إسطنبول 1975 ، ص 134-135.

[432←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 124.

[433←]

-لطفي باشا ، ص 300.

[434←]

-بلدة تتبع محافظة تكيرداغ التركية الواقعة شمال غرب البلاد. (المترجم).

[435←]

-تشير المصادر إلى أنّ خسروف باشا انقطع عن الطعام والشراب حزناً بعد الحادثة ، وتوفي بعد مضي سبعة عشر يوماً ، انظروا (لطفي باشا) ص 300.

[436←]

ليست الرومانية نسبة لدولة رومانية ، بل البيزنطية لغة البيزنط من سكان إسطنبول الذين أطلق عليهم لقب الروم. (المترجم).

[437←]

-كتاب رحلات القبطان باشا ، ص 93-94.

[438←]

-كتاب رحلات القبطان باشا ، ص 31-58.

[439←]

-كتاب رحلات القبطان باشا ، ص 140-152-220

[440←]

- -. كتاب رحلات القبطان باشا ، ص 101.

[441←]

-أو شيروان هي المنطقة التاريخية شرقي القوقاز ، عرفت بهذا الاسم في

العصور الإسلامية القديمة والحديثة ، هي منطقة واسعة في أذربيجان ، تقع على ساحل بحر قزوين ، ما بين باكو جنوبا ودربند شمالا ، كانت تضم العاصمة باكو ومدن لكز ، شماخي ، شابران ، كلستان. اليوم هذه المنطقة هي الجزء المتقدم صناعيا وزراعيا من أذربيجان ، تمتد بين الشواطئ الغربية لبحر قوزين حتى نهر كورا. (المترجم).

[442←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 191-193. صولاك زاده ، ص 507-508. روضة الأبرار ، ص 430. لطفي باشا ، ص 301.

[443←]

سيد غازي: بلدة صغيرة تقع جنوبي مدينة إسكي شهير-آكشهير: بلدة تقع في محافظة قونيا التركية. (المترجم).

[444←]

-سلمان (جميل الجواهر) ص 41-43.

[445←]

-أو آلشكرد بلدة تقع جنوب غرب محافظة آغري التركية غالبية سكانها من الكورد-خوي أو هوي مدينة تقع في محافظة غرب آذربيجان ، في إيران. تقع بين مدينتي ماكو وأرومية. سكانها من الكورد. (المترجم).

[446←]

-بلدة في محافظة شرق أذربيجان في إيران. (المترجم).

[447←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 198. نيشانجي محمد باشا (تاريخ النيشانجي) المطبعة العامرة 1290 ، ص 240-243.

[448←]

-باسينلار: بلدة تتبع لمحافظة إرزينجان التركية -قارص: عاصمة محافظة قارص في منطقة شرق الأناضول في تركيا -تيرجان: مدينة تتبع محافظة إرزينجان التركية. (المترجم).

[449←]

-صولاك زاده ، ص 510-511.

[450←]

-لطفي باشا ، ص 305.

[451←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 199-200. صولاك زاده ، ص 512.

[452←]

-الأردلانيون كانوا أصحاب الإمارة الكوردية التي عرفت بالإمارة الأردلانية

(1867- 1169) والتي كانت تهيمن على المنطقة التي يقطنها كورد إيران وكورد العراق في الوقت الحاضر وكانت عاصمتهم مدينة سنندج أو ما يسمى سنه عند الكورد علما إن شهرزور في كوردستان العراق كانت العاصمة القديمة للإمارة ولا تزال قبائل الأردلان تعيش في نفس المنطقة من كوردستان العراق. (المترجم).

[453←]

-جبال بركانية خامدة تقع في منطقة ديار بكر وسط جنوب شرقي الأناضول في تركيا. (المترجم).

[454←]

-منطقة تتبع محافظة أرضروم في تركيا. (المترجم).

[455←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 202-203. لطفي باشا ، ص 305-306. صولاك زاده ، ص 513-514. تاريخ النيشانجي ، ص 244.

[456←]

-نهر أوروبي يمر في أوكرانيا ، رومانيا ، هنغاريا ، سلوفاكيا وصربيا حيث يصب في نهر الدانوب قرب بلغراد. (المترجم).

[457←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 136-137.

[458←]

-سولنك: عاصمة مقاطعة ياس نادكون سولنك التي تقع وسط المجر-إغير: بالتركية İğri:
عاصمة مقاطعة هفش التي تقع شمال المجر على ضفة نهر تيسا. (المترجم).

[459←]

-فيدين: مدينة بلغارية تقع على ضفاف نهر الدانوب في شمال غرب بلغاريا بالقرب من الحدود الرومانية الصربية. (المترجم).

[460←]

-إقليم تاريخي يقع اليوم جنوب شرق رومانيا ، وشمال شرق بلغاريا. (المترجم).

[461←]

-هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد السادس ، ص 1654-1657.

[462←]

-(Titel) هي بلدة في مقاطعة
فويفودينا في صربيا. (المترجم).

[463←]

-باتش: هي بلدة في باتشكا الجنوبية في فويفودينا في جمهورية صربيا-
زرنيانين: بالتركية (Beçkerek) مدينة في فويفودينا في جمهورية صربيا-سيناد: بالعثمانية (Çanad) هي بلدة تقع في مقاطعة بانات في رومانيا على حدودها مع المجر. (المترجم).

[464←]

هي مدينة في منطقة بانات في غرب رومانيا ، وهي عاصمة محافظة تيميش ، تعد تيميشوارا واحدة من أكبر المدن في البلاد. (المترجم).

[465←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 203-204. يورغا (القانوني وعصره) ص 153-155. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد السادس ، ص 1658-1659.

[466←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 140. يورغا (القانوني وعصره) ص 160-161.

[467←]

-مدينة تقع في مقاطعة نوغراد شمال شرق المجر. (المترجم).

[468←]

-يورغا (القانوني وعصره) ص 160.

[469←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 140.

[470←]

-هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد السادس ، ص 1674-1675.

[471←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 212.

[472←]

من أجل معلومات اوسع حول هذا الموضوع انظروا: غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 141-143.

[473←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 213-214.

[474←]

-أحد سناجق الدولة العثمانية وكانت تعرف بالقلعة السلطانية أيضاً ، ومدينة بيغا حالياً تتبع محافظة جاناق قلعة التركية. (المترجم).

[475←]

-بولفادين بلدة تتبع لمحافظة كارا حيصار أفيون التركية ، وتعد واحدة من أقدم المواقع التاريخية المأهولة في الأناضول. (المترجم).

[476←]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ص 436. (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 215. لطفي باشا ، ص 310-311. تاريخ النيشانجي ، ص 245.

[477←]

-شرف الدين توران (مصطفى جلبي) ، المجلد 31 ، إسطنبول 2006 ، ص 290.

[478←]

-توران (مصطفى جلبي) ص 290-291.

[479←]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ص 437-438.

[480←]

-نقلها عن مجموعة المنشآت (كتب ولي الدين أفندي ، الرقم: 2735) أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) ص 402.

[481←]

-سلمان (جميل الجواهر) ص 44.

[482←]

-كان من عادة السلاطين العثمانيين اتخاذ جلاديهم من بين الصمّ ، الذين كانوا يؤدون مختلف المهمات الأخرى في القصر ، وبخاصة تلك الحساسة منها كالمراسلات. (المترجم).

[483←]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ص 436. تاريخ النيشانجي ، ص 245-246.
أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 402-403.
غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 144-145.

[484←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 215.

[485←]

-محمد شاويش أوغلو (مراثي الأمير مصطفى) مجلة TED العدد 12 ، إسطنبول 1982 ، ص 654-655.

[486←]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ص 436-437.

[487←]

-(مراثي الأمير مصطفى) ص 641-686.

[488←]

-(مراثي الأمير مصطفى) ص 654-657.

[489←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 216.

[490←]

-(مراثي الأمير مصطفى) ص 658-661.

[491←]

-(مراثي الأمير مصطفى) ص 666.

[492←]

-(مراثي الأمير مصطفى) 669-672.

[493←]

-توركواتو تاسو (1544-1595) كاتب وشاعر إيطالي أهم أعماله هي ملحمة «تحرير أورشليم 1575. (المترجم).

[494←]

-توران (مصطفى جلبي) ص 291.

[495←]

-فايرفاكس داوني (السلطان سليمان القانوني) ترجمة: إ. بهيج كورويورك ، إسطنبول 1975 ، ص 239-259. رينزو سيرتولي ساليس (سليمان العظيم) ترجمة: شرف الدين توران ، أنقرة 1963 ، ص 211-226. هـ. ديرنشوام (مذكرات رحلة في إسطنبول والأناضول) ترجمة: يشار أونين ، أنقرة 1992 ، ص 126-186. يوسف نيازي (الأمراء المظلومون أم السلطانة هُرَّم: دراما تاريخية ، المشهد الرابع) دار السعادة ، 1325 ، ص 1-72. ميت أند (تركيا في المشهد الإيطالي ، إيطاليا في المشهد التركي) إسطنبول 1989 ، ص 69-79-80.

[496←]

يعلّق جلال زاده أحد مؤرخي تلك الحقبة على الحادثة بالقول «في الحقيقة ما من أحد مطلع على الحادثة أو يعلم حقائقها ، ولكن الجميع يعتمد على القيل والقال من أجل تفسيرها» ويورد بأنه ما من دليل واضح على علاقة رستم باشا بالأمر ، انظروا: (طبقات الممالك) ص 437.

[497←]

-جلال زاده ، (طبقات الممالك) ص 437.

[498←]

-أو نَخجَوان إقليم بأذربيجان ، هو منفصل جغرافياً عن باقي أذربيجان ، ويتطلب الوصول إليه المرور إما عبر أذربيجان الغربية التي هي مقاطعة إيرانية أو عبر أرمينيا. ، عاصمته هي مدينة ناخيتشيفان. (المترجم).

[499←]

-أحد أبواب قصر توب كابي ، والذي يشكل المعبر من باحة القصر الثانية إلى باحته الثالثة.

[500←]

-لطفي باشا ، ص 311. جلال زاده (طبقات الممالك) ص 439.

[501←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 218-219.

[502←]

-نهر مراد: أو الفرات الشرقي هو المصدر الرئيسي لنهر الفرات ومصدره قرب جبل أرارات شمال بحيرة وان ، يتدفق في شرق تركيا على طول 722 كم في منطقة جبلية-بينكُل: أو Çapakçur هي إحدى محافظات تركيا تقع في منطقة شرق الأناضول عاصمتها مدينة بينكل ، وجل سكانها من الزازا أحد فروع الشعب الكوردي. (المترجم).

[503←]

-قره باغ: إقليم جبلي في جنوب القوقاز استقل هذا الإقليم وأصبح يكون جمهورية مرتفعات قره باغ. (المترجم).

[504←]

-أرابجاي: بلدة تابعة لمحافظة كارس التركية -نهر أراس: نهر يمر في كل من تركيا ، أرمينيا ، أذربيجان وإيران ، ويعتبر من أكبر أنهار القوزقاز. (المترجم).

[505←]

-على الأغلب يشير الكاتب إلى جبال زاغروس في منطقة لورستان إحدى محافظات إيران. (المترجم).

[506←]

-من أجل مجريات الحملة انظروا (تاريخ بيجفي) الأول 219-232. صولاك زاده ، ص 525-532.

[507←]

-قلعة تاريخية تقع في محافظة أغري التركية شرق الأناضول. (المترجم).

[508←]

-العمادية: بالكوردية ناميدي هي مدينة ومركز قضاء تابعة إداريا لمحافظة دهوك في إقليم كردستان العراق-مراغة: مدينة تقع شمال غرب إيران-

سهند: مدينة إيرانية تتبع محافظة أذربيجان الشرقية. (المترجم).

[509←]

-ويعني جسر الراعي ، جسر قديم يعود بناؤه للقرن الثالث عشر ، بني على نهر أراس ، في منطقة أرضروم التركية. (المترجم).

[510←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 226-227.

[511←]

-من أجل مزيد حول الاتفاقية انظروا (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 228-241. صولاك زاده ، ص 531.

[512←]

-دولة إقطاعية تتارية مسلمة ظهرت بعد انهيار القبيلة الذهبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في المنطقة المتاخمة لمصب نهر الفولغا ، حيث تقع الآن مدينة أستراخان المعاصرة. خاناتها كانوا من نسل توقا تيمور ، الابن الثالث عشر لجوجي خان حفيد جنكيز خان. (المترجم).

[513←]

-أو سيركاسيا وهي عبارة عن منطقة تقع في شمال وغرب القفقاس وتضم الشعوب الشركسية من فرع الأديجة ، وهي منطقة تاريخية كانت تشمل

النصف الجنوبي لمنطقة كراسنودار ، بالإضافة إلى غالبية منطقة ستافروبول وجمهورية الأديجيه الشركسية ، أقليم الشابسوغ على البحر الأسود ، جمهورية قرشاي-شيركسيك ، وجمهورية قباردينو وبلقاريا ، وجميعها تقع حالياً في الفيدرالية الروسية. ولا يوجد سوى نسبة 10% فقط من الشراكسة في موطنهم التاريخي ، والباقي موزعون في أكثر من 50 دولة. (المترجم).

[514←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 424-425.

[515←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 249. غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 152.

[516←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 152. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 433.

[517←]

جلال زاده (طبقات الممالك) ص 498-499. يخطأ البيجفي في كتابه (تاريخ بيجفي) ص 242 ، حين يورد بأنّ الأمير سليم هو من تدخل بدل الأمير بيازيد ، ذلك أنّ سليم كان يرافق والده في تلك الأثناء في حملة ناخيتشيفان. من أجل مزيد من التفاصيل حول الموضوع انظروا: بورغا

(القانوني وعصره) ص 247. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد الخامس ، ص 1692-1693. غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 152-153.

[518←]

-فريدون إمجن (كارا أحمد باشا) مجلة DİA المجلد 24 ، إسطنبول 2001 ، ص 357. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، 551.

[519←]

جلال زاده (طبقات الممالك) ص 500-501. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد الخامس ، ص 1694-1696. غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 153-154.

[520←]

-تشير المصادر إلى أنّ أحمد باشا كان من مناصري الأمير مصطفى وقد عيّن بعد مقتله وعزل رستم باشا ، لتخفيف من التوتر. (المترجم).

[521←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 243.

[522←]

-ساليس (القانوني العظيم) ص 220 ، 224-225 ، 238-239. داوني (السلطان سليمان القانوني) ص 257-259. جاغتاي أولوجاي (رسائل من الحرملك) المجلد الأول ، إسطنبول 1956 ، ص 86-88.

[523←]

-ميناء المخاء من أقدم الموانئ على مستوى شبه الجزيرة العربية وكان السوق الرئيسية لتصدير القهوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. وقد أخذت قهوة الموكا والموكاتشينو الاسم من هذا الميناء. (المترجم).

[524←]

-جنكيز أورهونلو (قيادة البحرية في الهند وبيري ريّس) مجلة Belleten ، المجلد 34 ، العدد 134 ، أنقرة 1970 ، ص 234-236.

[525←]

-باب اليمن هو معلم تاريخي وسياحي عمره أكثر من ألف عام ، حيث يعد المدخل الأساسي لمدينة صنعاء القديمة من الجهة الجنوبية ، والوحيد المتبقي بكامله من بين أربعة أبواب أخرى عرفت في السابق كمداخل للمدينة. (المترجم).

[526←]

-جواد أولكيكول-عائشة هاندة جان (حياة بيري ريّس ، أعماله ومختارات من حياته البحرية) إسطنبول 2007 ، ص 40-42.

[527←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 397-398.

[528←]

-أو بوشير عاصمة محافظة بوشهر في جنوب إيران على الساحل الشرقي للخليج العربي ، تبعد عن مدينة الأحواز مسافة 434 كم إلى الجنوب. (المترجم).

[529←]

-بلوشستان: هو أحد أقاليم باكستان الأربعة ، وهو أكبر أقاليمها من حيث المساحة. عاصمة الإقليم كويته وتعد أكبر مدنه -جوادر أو گوادر هي مدينة ميناء تطل على بحر العرب ، تقع على الساحل الجنوبي الغربي من بلوشستان ، باكستان. (المترجم).

[530←]

-مدينة هندية تقع غرب ولاية غوجارات في مقاطعة سورات وهي العاصمة الاقتصادية للولاية وهي ثامن أكبر مدينة بالهند. (المترجم).

[531←]

-زابلستان: منطقة تاريخية تقع في الوقت الحالي في المنطقة الحدودية بين إيران وأفغانستان-بدخشان: منطقة تاريخية تضم أجزاء من شمال شرق أفغانستان وجنوب شرق طاجكستان ، يعود الاسم إلى ولاية بدخشان

التي هي واحدة من ولايات أفغانستان. (المترجم).

[532←]

-(حياة بيري ريّس) ص 54-56. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 398-400.

[533←]

-مجموعة متفرقة من المكلفين بأداء مختلف الخدمات في القصر ، وكان هؤلاء الذين يتم اختيارهم من أبناء الأمراء والولاة والوزراء والدفترداري وسواهم ، يترقون في مناصبهم حتى الوزارة. (المترجم).

[534←]

-من أجل بناء الجامع وخصائصه انظروا: أيوبي (مناقب السلطان سليمان ، رسالة السلطان نامه) إعداد محمد أكوش ، أنقرة 1991 ، ص 146-152.

[535←]

وتعني الحجر الأحمر وهو من الرخام السماقي ، حيث كانت إعادة استخدام الأعمدة البيزنطية دارجة في البناء منذ العهد الأموي. (المترجم).

[536←]

-أو أجمي أوغلانلار أوجاغي (فرقة الفتيان العجم) وكانت تضم الفتية الذين يتم تدريبهم في المدرسة الداخلية للقصر (الإندرون) لتزويد قوات

الكابي كولو بالمشاة. (المترجم).

[537←]

-الحرفيون العاملون في الزخرفة بواسطة الصدف والزجاج والمعادن. (المترجم).

[538←]

-نقلا عن (تذكرة البنيان) لساي مصطفى جلبي ، م. إلياس سوباشي (الدهاء الذي يُنطق الحجارة) أنقرة 1996 ، ص 75-79.

[539←]

-ألبرت غابرييل (1883-1972) مهندس معماري وعالم آثار فرنسي ، متخصص في تاريخ الأناضول. (المترجم).

[540←]

-ألبرت غابرييل الفنان والمعماري والمرمم الذي جاء إلى إسطنبول عام 1926 ومكث لسنوات طويلة في تركيا ، وقدم محاضرات في جامعة إسطنبول في علم الآثار والفن. كما قام بدراسة الآثار العثمانية في إسطنبول والأناضول ، وأسس المعهد الفرنسي للآثار وشغل منصب مدير هذه المؤسسة ، ومن أجل حديثه المذكور مع السلطان الفاتح انظروا: (لقاء غابرييل مع الفاتح) ترجمة: مبجل بايرام ولي ، جريدة الترجمان ، 29 أيار 1955.

[541←]

من أجل مزيد من هذه الأعمال والمقالات انظروا: داوني (سليمان العظيم) ص 95-121. فيوريكا ستيرسيا (السلطانة هُرَّم محظية السلطان سليمان القانوني) ترجمة: سليم محمد ، إسطنبول 1972 ، ساليس (سليمان العظيم) ص 87-122. أ.رفيق ألتنأي (سلطنة النساء) إسطنبول ، 1332هـ.، المجمع اللغوي التركي (v.d 45). هـ.ي. شيخ سوار أوغلو ، المجموعة التاريخية المصورة (السلطانة هُرَّم والسلطان سليمان) أيار 1950 ، ص 176-179. طلعت هاصرجي أوغلو (السلطانة هُرَّم إحدى النساء اللواتي حكمن من داخل القصر العثماني) المجموعة التاريخية المصورة ، السلسة الحديثة المجلد السابع (1956) ص 15-19. تورهان تان (السلطانة هُرَّم) إسطنبول 1937. إسكندر بالا (الموت في بابل والعشق في إسطنبول) إسطنبول 2003 ، ص 117-124.

[542←]

-ينتقد خيري تاشكران الذي قام ببحث مفصل حول كلية هاسكي التي هي من أعمال السلطانة هُرَّم الخيرية ، التحيز الذي يبديه الكتاب الغربيون في دراسة هذا الموضوع بشدة ، وقيام الكتاب الأتراك بتقليدهم حتى أنّ البعض منهم تفوق على زملائه الغربيين في تشويه صورتها ، ويوضح بأنه وعلى العكس من نصوح المطرقجي الكتابات ، فقد كانت السلطانة هُرَّم تمتاز بشخصية مغايرة ، ولكنها تليق بالفعل لتكون سيدة القصر العثماني ، انظروا: (كتاب الهاسكي ؛ كلية هاسكي في إسطنبول ، الجامع ، المدرسة ، العمارة ، مكتبة الصبية ، دار الشفاء ومشفى الهاسكي الجديد) إسطنبول 1972 ، ص 12-14.

[543←]

-داوني (السلطان سليمان القانوني) ص 116-119. أ.رفيق (سلطنة النساء) ص 50-51. ساليس (سليمان العظيم) ص 90-91. كما يشير كل من أ. كلوت وليسلي بييرس بأن هذه المقولات تعتمد على تقارير سفراء البندقية كمصدر لها ، انظروا: (سليمان العظيم) ص 69. (الحرملك الهمايوني ، السلطة والنساء في الإمبراطورية العثمانية) ترجمة: عائشة بيركتاي ، إسطنبول 1996 ، ص 78-79.

[544←]

-بييرس (الحرملك الهمايوني) ص 81.

[545←]

-ليسلي ب.بييرس (الحرملك الهمايوني ، السلطة والنساء في الإمبراطورية العثمانية) ، ترجمة عائشة بيركتاي ، إسطنبول 1993. (المترجم).

[546←]

-أو لفوف: عاصمة لفيف أوبلاست ومدينة رئيسة غرب أوكرانيا ، تعتبر مركزا ثقافيا واقتصاديا هاما للبلاد ولأوروبا الشرقية. (المترجم).

[547←]

-بييرس (الحرملك الهمايوني) ص 77.

[548←]

-أوزاكباش (السلطانة هُرَّم) ص 348-353.

[549←]

-بييرس (الحرملك الهمايوني) ص 77-78. أوزاكباش (السلطانة هُرَّم) ص 354-355.

[550←]

-م. جاغتاي أولوجاي (نساء السلاطين وبناتهم) أنقرة 1985 ، ص 37.

[551←]

-تاشكران (كتاب الهاسكي) ص 26.

[552←]

-بييرس (الحرملك الهمايوني) ص 80-81.

[553←]

-قطب الدين مكي (الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية) مكتبة بيازيد الوطنية ، ولي الدين أفندي ، الرقم 2440 ، ص 130-138.

[554←]

-إرهان أفيونجو (سليمان العظيم ، السلطان سليمان القانوني والسلطانة هُرَّم) إسطنبول 2011 ، ص 120 ، 167-176.

[555←]

-يشير الكاتب هنا إلى قانون قتل الأشقاء الذي يجيز للسلطان العثماني الذي سيعتلي العرش قتل بقية أشقائه وأخوته الذكور وأبنائهم ، منعاً للشقاق وانقسام الدولة بحسب ما أقرّه السلطان محمد الفاتح. (المترجم).

[556←]

(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 298-300. تاريخ صولاك زاده ، ص 587.

[557←]

-لمزيد من المعلومات انظروا: تاشكران (كتاب الهاسكي) صفحات مختلفة.

[558←]

-تسمى حالياً سويلنجراد تقع جنوب بلغاريا ، بنى فيها معمار سنان جسراً لا يزال قائما حتى اليوم بأمر من جوبان مصطفى باشا. (المترجم).

[559←]

-لمزيد من الاطلاع حول أعمال السلطانة هُرَّم انظروا: بييرس (الحرملك الهمايوني) ص 266-273 ، 289 ، 370. إبراهيم بازان (أمهات

السلاطين ، السلطانات الأمهات وأعمالهن) إسطنبول 2007 ، ص
66-67 جيهاد بالطجي (السلطانة هُرَّم) مجلة DİA, ،
المجلد 18 ، إسطنبول 1998 ، ص 499-
500.

[560←]

-من أجل هذه العمارة انظروا: إيمي سينجر (الأعمال الخيرية في الدولة العثمانية ، عمارة السلطانة هاسكي في القدس) ترجمة: ديلك سنديل ، إسطنبول 2004 ، ص 1-16.

[561←]

-(الأعمال الخيرية في الدولة العثمانية) ص 1.

[562←]

-مدينتان إيرانيتان تقعان في محافظة سمنان. (المترجم).

[563←]

-من أجل المزيد انظروا: إ.ح حقي أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثالث ، أنقرة 1977 ، ص 252-254.

[564←]

-مدينة تقع في الجزء الشمالي الغربي من البوسنة والهرسك على ضفاف نهر

الأونا-كوستانيكا: (Kostanicza) بلدة تقع في شمال البوسنة والهرسك. (المترجم).

[565←]

-كانت دوقية كارنيولا أرض التاج في الإمبراطورية النمساوية المجرية حتى عام 1918. وتعتبر كارنيولا (فويفودينا كريانسكا باللغة السلوفانية) المنبع التقليدي للغة والثقافة السلوفانية. (المترجم).

[566←]

-جلال زاده (طبقات الممالك) ص 489-499. بينما تورد المصادر اهتمام الأمير بيازيد بالموضوع وتمتدحه ، فإن بعض المؤرخين يدعون بأنه كان مقصراً في (تاريخ بيجفي) الأمر ولكن بشفاعة من السلطانة هُرَّم تم تعيينه والياً على سنجق كوتاهيا وذلك دون الاستناد إلى أي مصدر موثوق. انظروا: شرف الدين توران (واقعة الأمير بيازيد بن القانوني) أنقرة 1961 ، ص 49.

[567←]

-أو الصرة العثمانية مصطلح كان يطلق على الأموال والهدايا التي ترسلها الدولة العثمانية كمخصصات سنوية للحرمين الشريفين. (المترجم).

[568←]

-توران (واقعة الأمير بيازيد) ص 49-50.

[569←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 272-273.

[570←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 406-407.

[571←]

-هي قوات محلية مأجورة مجهزة بالأسلحة النارية. (المترجم).

[572←]

-من أجل المزيد انظروا: توران (واقعة الأمير بيازيد) ص 201-203.

[573←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 277.

[574←]

-في الحقيقة من المهم النظر إلى هذه الأبيات على أنها لا توضح فقط شعور الأبوة لدى السلطان القانوني ، بل أيضاً المصاعب والعذابات التي تحملها في سبيل بقاء الدولة والدين والشعب ، والبدل الذي أجبره التاريخ على دفعه في هذا السبيل ، انظروا: أحمد شيمشيرغيل (قتل الأشقاء) مجلة التاريخ والفكر ، الأعداد 2000-07 ، تموز 20000 ، ص 16-25.

[575←]

-من أجل الاطلاع على أوضاع الأمير في إيران والمراسلات المتبادلة بين الطرفين انظروا: (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 279-288.

[576←]

-من أجل المزيد حول حادثة الأمير بيازيد انظروا: أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 405-408. غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 163-173. توران (واقعة الأمير بيازيد) صفحات مختلفة. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد السادس ، ص 1713-1727.

[577←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 405. شرف الدين توران (الأمير بيازيد) مجلة DİA, ، المجلد الخامس ، إسطنبول 1992 ، ص 230-231.

[578←]

-بلدة تابعة لمحافظة موغلا في جنوب غرب تركيا ، والممتدة على ساحل إيجة التركي. (المترجم).

[579←]

-بالتركية Karlıili إحدى مقاطعات اليونان التي تقع غربي البلاد.

(المترجم).

[580←]

-باستيا بلدة تقع في كورسيكا والتي هي جزيرة فرنسية في البحر المتوسط ، تقع غرب إيطاليا ، وشمال جزيرة «سردانيا» ، وجنوب شرق فرنسا. (المترجم).

[581←]

-على الأغلب يشير المؤلف إلى جابرييل دي أرامون السفير الفرنسي حينها. (المترجم).

[582←]

-تحفة الكبار ، ص 103-105.

[583←]

-أو جزيرة باديس جزيرة إسبانية تقع على ساحل البحر المتوسط لشمال المغرب ، تابعة لإسبانيا منذ عام 1564. (المترجم).

[584←]

-(Vaucelles)
بلدة في إقليم كالفادوس الذي يقع في منطقة باس نورماندي الفرنسي. (المترجم).

[585←]

-تحفة الكبار ، ص 106-107.

[586←]

-إرطغرول أونالب (النصر البحري في معركة جربة عام 1560 ، وفتح قلعة جربة) مجلة OTAM ، العدد 12 ، ص 176-177. محمد بن محمد (نخبة التواريخ) إسطنبول 1276 ، ص 91.

[587←]

-مدينة تاريخية صغيرة تقع في مقاطعة ميسينا في شبه جزيرة المورا (بيلوبونيز) في اليونان. (المترجم).

[588←]

-عبد القادر أوزجان (جربة) مجلة DİA المجلد السابع ، إسطنبول 1993 ، ص 392.

[589←]

-هي مدينة ساحلية تقع شمال غرب ليبيا ، تبعد 11 كيلومتراً شرق العاصمة الليبية طرابلس وبهذا تعتبر بوابة طرابلس الشرقية. (المترجم).

[590←]

-تسمى بالتركية (Koyun adaları) عبارة عن مجموعة من تسع جزر تقع في

شمال بحر إيجة بالقرب من جزيرة خيوس ، قبالة السواحل التركية. (المترجم).

[591←]

-هي ثالث أكبر جزيرة يونانية وتقع في شمال بحر إيجة. (المترجم).

[592←]

-وتسمى أيضاً غودش أو غوزو ، هي ثاني أكبر جزر الأرخبيل الثلاثة التي تكون جمهورية مالطا. (المترجم).

[593←]

-ندائي (فتح نامه قلعة جربة) المكتبة الإنكليزية في لندن ، الرقم 23984 ، ص 30.

[594←]

-ندائي (فتح نامه قلعة جربة) ص 33-37.

[595←]

-زكريا زاده (فرح معركة جربة) إعداد: أورهان شايك غوكياي ، إسطنبول 1980 ، ص 56-57.

[596←]

-(فرح معركة جربة) ص 59-60.

[597←]

-(فرح معركة جربة) ص 76.

[598←]

-(فتح نامه قلعة جربة) ص 42-44.

[599←]

-نوع من المدافع العثمانية المختصة بحصار القلاع وتكتب بالتركية كما تلفظ بالعربية darbezen. (المترجم).

[600←]

-(فرح معركة جربة) ص 102-112. (فتح نامه قلعة جربة) ص 49-52.
أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 387-388.

[601←]

-(فتح نامه قلعة جربة) ص 8-10.

[602←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 17.

[603←]

-تعني الصهر باللغة التركية.

[604←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 17.

[605←]

-حافظ حسين الإيوان سراي (حديقة الجوامع) نشر: إحسان إرزي ، إسطنبول 1987 ، المجلد الأول ، ص 155. وانظروا أيضاً: (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 17.

[606←]

-كتاب يعود للقرن السابع عشر مؤلفه مجهول الهوية ، يتحدث عن الاضطرابات العسكرية الاقتصادية التي بدأت أولى بوادرها بالظهور في عهد القانوني ، ولكنها تفاقمت بصورة واضحة في عهد مراد الثالث. (المترجم).

[607←]

-حتى هامر الذي يتهمه بالارتشاء ، فهو يتحدث مطولاً عن الازدهار المالي الذي تحقق بفضله في الدولة. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد السادس ، ص 1728-1729.

[608←]

-من أجل المزيد حول ضريبتي الجائزة والبيشكيش المشرعتين في الدولة العثمانية انظروا: مظفر دوغان (ضريبة المقام في الإمبراطورية العثمانية ؛ الجائزة) مجلة TKİD العدد السابع ، إسطنبول 2002 ، ص 35-74.

[609←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 18.

[610←]

-من أجل معارضي الباشا انظروا: (تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 18. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد الخامس ، ص 1729-1730.

[611←]

-مدينة تركية في مقاطعة سكاريا تبعد عن إسطنبول حوالى 130كم ، تشتهر بطبيعتها الخلابة وكونها أحد مراكز الاستجمام. (المترجم).

[612←]

-مدينة تاريخية في محافظة قرمان التركية. (المترجم).

[613←]

-أفيونجو (سليمان العظيم) ص 117-118.

[614←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 550.

[615←]

-كان يحيى تاشلجه لي قد عانى من غدر رستم باشا ، والقصيدة التي تشي بفرحته لموت رستم باشا توضح العداوة اللامتناهية التي كان يكنها للباشا ، وإشارة إلى ضرورة تأويل كلماته بالشكل الصحيح. انظروا: أحمد أتيلا شنتورك (مختارات من الشعر العثماني) إسطنبول 1999 ، ص 392-415.

[616←]

-ولي وعلامة (1494-1562) في طوسيه التابعة لمحافظة قسطموني وتوفي في إيغريدير التابعة لمحافظة إسبارطة.

[617←]

-غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 186-187. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 388-389.

[618←]

-كارا مرسل: سفينة مجذافية وشراعية كانت تستخدم عادة لأغراض حماية

السواحل وتعمل في البحار الداخلية. (المترجم).

[619←]

-تحفة الكبار ، ص 118.

[620←]

-قلعة تقع على ساحل مدينة فاليتا عاصمة جمهورية مالطا الحالية. (المترجم).

[621←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 289.

[622←]

-(تاريخ بيجفي) المجلد الأول ، ص 289. تحفة الكبار ، ص 118.

[623←]

-تحفة الكبار ، ص 116.

[624←]

-بالإنجليزية Point Dragut

[625←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 390.

[626←]

مصطفى أفندي السلانيكي (تاريخ السلانيكي) المجلد الأول ، إعداد: محمد إيبشيرلي ، إسطنبول 1989 ، ص 7.

[627←]

-كل يوك يساوي مائة ألف أكجة.

[628←]

-(الدهاء الذي يُنطق الحجارة) ص 71-73.

[629←]

-من أجل معلومات موسعة حول العمل على قنوات كيرك جيشمه في إسطنبول انظروا: أيوبي (مناقب السلطان سليمان) ص 156.

[630←]

-منطقة توكاي تعتبر من أجمل مناطق المجر تقع على بعد 150 ميلاً شرق العاصمة بودابست. (المترجم).

[631←]

-حالياً هي مقاطعة سابولتش -ساتمار -بيريغ ، تقع شمال شرق المجر على

الحدود مع كل من سلوفاكيا ، أوكرانيا ورومانيا. (المترجم).

[632←]

جيور: بالتركية Yanıkkale تعد أهم مدن المجر تقع في الشمال الغربي من البلاد ، وهي عاصمة مقاطعة ديور موشون سوبرون -كوماروم: هي مدينة انقسمت بين المجر على الضفة الجنوبية لنهر الدانوب في مقاطعة كوماروم -إسترغوم المجرية وبين سلوفاكيا من جهة أخرى. (المترجم).

[633←]

-كابان شاهين (سياسة القانوني الغربية) ص 187-189.

[634←]

-أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 40.

[635←]

-صولاك زاده ، ص 571.

[636←]

-عطائي (ذيل الشقائق) ص 97.

[637←]

-تاريخ السيلانيكي ، المجلد الأول ، ص 16. صولاك زاده ، ص 572.

[638←]

-مدينة تقع في مقاطعة بكيش المجرية شرقي البلاد. (المترجم).

[639←]

-تاريخ السيلانيكي ، المجلد الأول ، ص 22. صولاك زاده ، ص 572.

[640←]

-قرية مجرية تقع في مقاطعة بورسو -آبائوي -زمبلن شمال شرق البلاد.
(المترجم).

[641←]

-تاريخ السيلانيكي ، المجلد الأول ، ص 30.

[642←]

-تم الكشف عن الموقع في العام 2015 بعد جهود مشتركة بين علماء الآثار
الأتراك والمجريين. (المترجم).

[643←]

-(Babócsa) وبالتركية (Babofça)
قرية في المجر تقع في مقاطعة شومود التي تقع جنوب غرب البلاد.
(المترجم).

[644←]

-من أجل الاطلاع على التدابير التي اتخذها سوكلو محمد باشا انظروا: تاريخ السيلانيكي ، المجلد الأول ، ص 36-39.

[645←]

جيولا: بالتركية (Güle) بالهنغارية Gyula مدينة تقع في مقاطعة بكيش في المجر الشرقية على الحدود مع رومانيا -لوغوج: مدينة غربي رومانيا ضمن محافظة تيميش على ضفاف نهر تيميش. (المترجم).

[646←]

-ناجيكانيزسا: هي مدينة متوسطة الحجم في مقاطعة زالا جنوب غرب المجر وهي معروفة أيضا فى المجرية باسم كانيزسا-بيرزينسى: (Berzence) قرية مجرية تقع في مقاطعة شومود التي تقع جنوب غرب البلاد. (المترجم).

[647←]

-تاريخ السيلانيكي ، المجلد الأول ، ص 47-48. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 417-418.

[648←]

-محمد نور دوغان (باقي) إسطنبول 1998 ، ص 62-63.

[649←]

-هي مدينة صربية تقع في مقاطعة فويفودينا شمال البلاد. (المترجم).

[650←]

-باقي ، ص 64-65.

[651←]

-وتسمى حالياً شبين قره حيصار: هي بلدة تقع في محافظة غيرسون في شمال تركيا المطلة على البحر الأسود. (المترجم)..

[652←]

-مدينة شمال غرب تركيا وتقع داخل تراقيا الشرقية تحت إدارة محافظة تكيرداغ. (المترجم).

[653←]

-الشعر التركي (العثماني) منذ دخولهم الإسلام وحتى عهد التنظيمات (1860) شعر مقفى موزون يتخذ من الشعرين العربي والفارسي نموذجاً ، ويستخدم الكثير من كلمات هاتين اللغتين. (المترجم).

[654←]

-بعد وفاة مصطفى بن ماهي دفران ، أقامت في بورصة التي ظلت فيها حتى وفاتها العام 1581. وقد قدم لها السلطان سليم الثاني الكثير من

المساعدات واستملكها العديد من الممتلكات ، وقد بنت ماهي دفران من أجل دفن ابنها مقبرة سميت بمقبرة مصطفى الجديدة. وقد أوقفت المنزل التي تسكنه بالإضافة إلى طاحونتين مائة ألف درهم فضي على القبر. كما قامت بتعيين قارئ ، كاتب وناظر من أجل ذبح الأضاحي والصدقات وتوزيعها على روح الفقراء صدقة على روح ابنها ، وصناعة العاشوراء (نوع من الحلوى) وتلاوة القرآن الكريم ، كما أنّ ماهي دفران خاتون أيضاً دفنت في مقبرة ابنها الأمير مصطفى.

[655←]

بحسب ما هو وارد في المصادر فإن غولفم خاتون كانت سيدة محبة لأعمال الخير والمساعدة ، فقد أنشأت العديد من سبل المياه في إسطنبول ومناطق مختلفة من الأناضول ، وجلبت المياه إلى العديد من القرى. وتوجد في أوسكودار كلية جميلة تعود إليها تضم جامعاً ، مكتبة ، عمارة ونزل مسافرين. انظروا: تحسين أوزجان (ندوة في أوسكودار ؛ سيدة قصر في أوسكودار ، غولفم خاتون وأوقافها) إسطنبول 2007 ، ص 218-223. تولاي سيزغين (ندوة في أوسكودار ؛ مدافن السيدات في أوسكودار) إسطنبول 2003 ، ص 141. وقد توفيت العام 1562 ، ودفنت في حديقة جامعها في أوسكودار. وقد كتب على شاهدة قبرها (صاحبة الخيرات السيدة الشهيدة غولفم خاتون) وقد أورد أحمد رفيق قصة حول كلمة الشهيدة المكتوبة على شاهدة القبر (انظروا: سلطنة النساء ، المجلد الأول ، ص 89-90) ولكن جاغتاي أولوجاي الذي نوه إلى الأخطاء التي ارتكبها أحمد رفيق سواء في تاريخ الموت أو في بقية المواضيع ، يبدو مصدقاً لقصة قتلها (نساء السلاطين وبناتهم ، ص 37). رغم وجود مجموعة مختلفة من الأسباب لإسباغ صفة الشهيدة على

إحدى النساء المسلمات منها ؛ أن تكون شديدة التقوى وتموت غرقاً في الماء ، أو تموت حرقاً ، أو أن تموت-تحت بناء منهار أو في انهيار ثلجي ، أو من لدغة عقرب ، أو جراء إصابتها بالطاعون أو مرض مستعص ، أو من تموت ليلة الجمعة أو أثناء الولادة.. لذلك يجب توخي الحذر في تبني قصة مختلقة دون وجود أي مصادر تؤكد صحتها.

[656←]

-أو سلطنة مغول الهند ، هي إمبراطورية إسلامية أسسها ظهير الدين بابر ، واستمرت قائمة حوالى 300 سنة ، من العام 1526حتى 1858 ، حكمتها سلالة مغولية وجاغاطاية -تركية وامتد حكمهم على أجزاء كبيرة من شبه القارة الهندية. (المترجم).

[657←]

-عبد الله آيدمير (أبو السعود أفندي) أنقرة 1989 ، ص 13-14.

[658←]

-هي عادة متبعة في الثقافة الكوردية والتركية ونظيراتها ، تتضمن مطالبة الشخص للآخرين بمسامحته إن قصر في حقوقهم ، وأن يجعلوا تعبهم عليه حلالاً لدى الشروع أو الانتهاء من عمل أو سفر.. كما أنّ الإمام في صلاة الجنازة على روح الميت يطالب الحاضرين بأن يعلنوا حلال تعبهم عليه. (المترجم).

[659←]

الملازمة نظام في التعليم التركي العثماني ، يعني المرحلة التي تمر بين إنهاء الطالب دراسته وحصوله على إجازة من المدرسة ، وبين تعيينه الفعلي في العمل. وتأتي التسمية من ملازمة الطلبة في هذه الفترة لمجالس العلم. (المترجم).

[660←]

-قاعة تستخدم للذكر والصلاة والرقص الصوفي الدائري لدى المولوية. (المترجم).

[661←]

لمدة سيد غازي هي بلدة صغيرة تتبع محافظة إسكي شهير التركية ، وأما سيد بطال غازي فهو عبد الله البطال (توفي عام 704م) مجاهد مسلم ظهر في الحروب الإسلامية البيزنطية في بدايات القرن الثامن الميلادي ، شارك في عدة حملات قادتها الدولة الأموية ضد الإمبراطورية البيزنطية ،والحقائق التاريخية حول سيرته نادرة ، لكنها نمت بعد وفاته وأصبح أسطورة شعبية ، وأصبح شخصية شهيرة بارزة في الملاحم الأدبية التركية والعربية كبطال غازي. (المترجم).

[662←]

-إحدى الدرجات الإثنتي عشرة التي نظم السلطان سليمان التعليم وفقها ، والصوفته تعني المتحرق للعلم. (المترجم).

[663←]

-جلال زاده مصطفى جلبي (طبقات الممالك ودرجات المسالك) والتي اختصرها آيهان يلماز تحت عنوان (القرن العظيم ، تاريخ القانوني) إسطنبول 2011 ، ص 359-365.

[664←]

-فريدون إمجن (البنيان الحقوقي في الدولة العالمية) مجلة التاريخ والحضارة ، العدد 14 ، إسطنبول 1995 ، ص 42-45. غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني) ص 199-202.

[665←]

-هي عاصمة جمهورية تتارستان وأحد أكبر المدن الروسية, تقع عند التقاء نهري الفولجا وقازانكا في روسيا الأوروبية. (المترجم).

[666←]

-تلة مرجان هي التلة التي تبدأ خلف منطقة إمينونو في إسطنبول حتى جامع السليمانية -شارع الوفاء أحد أحياء منطقة الفاتح في إسطنبول. (المترجم).

[667←]

-كمال كوركجو أوغلو (الخط الهمايوني الذي أرسله القانوني إلى بالي بيك) كلية اللغة والتاريخ والجغرافية ، المجلد الثامن ، ص

.231-227

[668←]

-من أجل الجانب الأدبي لدى السلطان سليمان القانوني انظروا: جوشكون آك (ديوان محبي) أنقرة 1987. أميل جلبي أوغلو (الأدب التركي في عهد السلطان سليمان القانوني) إسطنبول 1994.

[669←]

-هي أن يأخذ الشاعر بيتاً لسواه, فيجعل صدره بعد ثلاثة أشطر ملائمة له في الوزن والقافية (أي يجعله عجُز بيت ثانٍ), ثم يأتي بعجز ذلك البيت بعد البيتين فيحصل على خمسة أشطر ومن هنا جاءت التسمية ب. (التخميس). (المترجم).

[670←]

-في إشارة إلى الصحابي سلمان الفارسي الذي أعلى النبي من شأنه. (المترجم).

[671←]

-محمد آك كايا (نظرة سلطان العالم إلى العالم) مجلة التاريخ والحضارة ، العدد 14 ، إسطنبول 1995 ، ص 49-51.

[672←]

-آك كايا (سلطان العالم) ص 51-52.

[673←]

-الشعر المثنوي أو المزدوج هو نوع من الشعر تتساوى فيه قوافي كل بيت ، على عكس الشعر التقليدي الذي تتساوي فيه قوافي القصيدة بأكملها. ، وقد استخدم في اللغات الفارسية والعربية والتركية والكردية والأردية. (المترجم).

[674←]

-مصطفى عالي (1541-1600) أحد رجال الدولة الإداريين والفنيين ، تجاوزت مؤلفاته الستين حول مواضيع الشعر والتاريخ والتصوف والحياة الاجتماعية ، كتابه (كنه الأخبار) يسرد تاريخ الخليقة منذ البداية مروراً بالدولة العثمانية حتى العام 1597 وضع فيه تراجم عن العلماء والوزراء والمشايخ والشعراء. (المترجم).

[675←]

-هو خلطة من الأعشاب العلاجية لا يزال ينتج منذ حوالى 500 عام بنفس الطريقة ، ويضم أنواعاً مختلفة من البهارات مثل القرفة ، والفلفل الأسود ، والقرنفل ، والحبة السوداء ، وبذر الخردل ، واليانسون ، وقشر الليمون واللبان الشجري. (المترجم).

[676←]

-آلة من صنف الأسطرلاب وسواها ، هي ربع من دائرة مصنوعة من

الخشب أو المعدن مثقوبة في منتصفها ، تسمى بالربع المقنطر أو الربع المقطوع ، وتستخدم إلى جانب معرفة الأبراج ، في حسابات الفلك وعلم المثلثات ، ومعرفة الأعماق وخلافها. (المترجم).

[677←]

-الموقت خانة هي أماكن مخصصة يعمل فيها الموقتون لمعرفة أوقات اليوم والصلاة من خلال حسابات وآلات فلكية ورياضية. (المترجم).

[678←]

-ويعرف بالقوشجي أيضاً (توفي عام 1474) هو فلكي رياضي وفقيه حنفي ، أصله من سمرقند ، عُيِّن القوشجي كأول مدير في المرصد في سمرقند. وبدعوة من السلطان محمد الفاتح وصل القوشجي إلى إسطنبول ، وأصبح مُدرسًا في مدرسة أيا صوفيا. من أشهر ابتكاراته رسم القمر لأول مرة في التاريخ ، وقياس خطوط الطول والعرض لإسطنبول ، واختراع العديد من الساعات الشمسية. ترك علي القوشجي عدة آثار هامة في مجال علم الفلك والرياضيات. (المترجم).

[679←]

-علم البنكامات علم تتبين منه كيفية إيجاد الآلات المقدرة للزمان ، ومنفعته معرفة أوقات العبادات واستخراج الطوالع من الكواكب وأجزاء فلك البروج. (المترجم).

[680←]

-هو تقي الدين محمد بن معروف الشامي (دمشق 1526-1585) كان مصنفاً عسكرياً عثمانياً وهو واحد من المسلمين العرب الذين أحاطوا بكل العلوم: كان عالماً ،فلكياً ومنجماً ، مهندساً ومخترعاً ، وصانع ساعات الحائط والساعات اليدوية ، رياضياً وفيزيائياً ، خبيراً زراعياً وجنائنياً ، طبيباً وصيدلياً ، حاكماً مسلماً وحافظاً لمواقيت الصلاة في المسجد ، فيلسوفاً مسلماً وصاحب علم الكلام ، ومعلم مدرسة. كان مؤلفاً لأكثر من 90 كتاباً في شتى المواضيع المختلفة ، والتي تشمل: علم الفلك ، التنجيم ، صناعة الساعات ، الهندسة ، الرياضيات ، الميكانيكا ، البصريات ، الفلسفة الطبيعية.. حظي بتقدير واسع بسبب سمعته التي عاصرت علماء عصره في الدولة العثمانية كأعظم العلماء ، له العديد من الاختراعات العلمية المهمة جدا. (المترجم).

[681←]

-هو أحمد سهيل أنور (1898-1986) كاتب وطبيب تركي ، ولد في إسطنبول وفي العام 1954 نال لقب البروفيسور ، ألف ما يقارب ألفي كتاب ومقال ومادة موسوعية وصحفية حول تاريخ الفن والثقافة وكثير من العلوم وفي مقدمتها الطب. (المترجم).

[682←]

-في علم الفلك وعلم الفلك الكروي هي كرة تخيلها الإنسان بنصف قطر لا متناهٍ ومتحدة المركز مع الأرض ويدوران حول نفس المحور.

(المترجم).

[683←]

نقسم العلوم العربية إلى اثني عشر قسماً من بينها علم قوانين الكتابة أو علم الخط. (المترجم).

[684←]

-أحمد شيمشيرغيل (الحركة الفكرية والعلمية في عهد القانوني) مجلة التاريخ والحضارة ، العدد 14 ، إسطنبول 1995 ، ص 53-58.

Table of Contents

القانوني سلطان العالم

القانوني سلطان العالم

تقديم

مقدمة

القسم الأول القوة العالمية

الجلوس والجنازة

الطريق المتجه صوب القانون

جان بردي الغزالي

أولى حملات القانوني

فتح بلغراد

الاتفاقيات

صوب رودس

المواجهات العنيفة

العثمانيون في رودس

صدارة إبراهيم باشا

تمرد أحمد باشا

وقد سُلّت سيوفنا من الأغماد

إلى ملك فرنسا فرانشيسكو.

حملة المجر

معركة موهاج

حركات التمرد في الأناضول (1526-1528)

المُلّا قابض

مسائل المجر

لن نبلغ ما بلغه الفاتح

أمام فيينا

حفلة الختان (1530)

في عباب المياه الهندية

حملة ألمانيا (1532)

شارلكان

أنت خير الدين بيك والي الجزائر

لقد وصل عبدكم خير الدين

أمير أمراء الجزائر

الاتفاقية العثمانية - النمساوية (1533)

لنقد السيباهية صوب الشرق

بغداد تحت سيطرة العثمانيين

إعدام الدفتردار إسكندر جلبي

استمرار حملة العراقين

أولى حملات بربروس مع الأسطول

التحالف مع فرنسا

إبراهيم باشا

القرب من السلطان تلظٍّ بالنيران

القسم الثاني سليمان العظيم

حملة أفلونيا (فلوره)285

لن أبادل واحداً من مجاهديّ بألفٍ من هذه القلعة

مواصلة التحركات

حملة البغدان (1538)

الأسطول العثماني في بروزة (1538)

بدأ البحر بالغليان

النصر الكبير

حملة الهند (1538)

مراسم الاحتفال والصلح مع البندقية

موت زابوليا والاضطرابات في المجر

حملة العام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين

عليك أن تطلبها من خير الدين باشا

سيفقد رأسه أيضاً

الحرب الكبرى أمام أسوار بودين

سليمان العظيم

سلسلة من الفتوحات

فتح إزترغوم (1543)

فتح سيكشفهيرفار (إيستوني بلغراد)

حملة بربروس على نيس (1543)413

يا درّة الأمراء يا سلطاني محمد

أحداث متفرقة

مات رئيّس البحر

حملة تبريز (1548)

أحداث ترانسلفانيا (إردال) (1549-1552)

تحركات الشاه طهماسب (1552)

الأمير مصطفى

أنين الشعراء

حملة ناخيتشيفان (1553- 1555)498.

اتفاقية أماسيا

حوادث مختلفة

الصراع مع البرتغال في المحيط الهندي

افتتاح الكلية السليمانية

السلطانة هُرَّم

ما تركته من أعمال

العلاقات مع خانات الأوزبك

أحداث المجر وترانسلفانيا (1556- 1559)

حادثة الأمير بيازيد

والدي يا صاحب السعادة!

أعلن التوبة يا بني العزيز

التحركات البحرية (1550-1560)

القوة الصليبية الكبرى

على طريق جربة

ما الحياة إلا ليوم كهذا اليوم

النصر البحري العظيم

أمام حصن جربة

العزيمة الأقوى

الفتح

فليصن الله السلطان من الزلل

موت رستم باشا

حصار مالطا (1562)

مياه كيرك جيشمة (الأربعين عيناً)

القسم الثالث خسروف الآفاق/سلطان الآفاق

حملة سيكتوار

السلطان سليمان يأمركم

بنيران القهر احترقت يا رب

وفاته

أشرقت الشمس! ألن يستيقظ السلطان ؟

على نية المرحوم

شخصيته

القرن التركي

الجيش يعمي عيون الأعداء

أخي الآخروي

رعاية حقوق العباد

فعالياته العمرانية

الكلية السليمانية

قانون نامه السلطان سليمان

حقوق النمل

نشكو القانوني إلى القانون

كنا نظن سلطاننا مستيقظاً

سليمان ! لقد أنقذت نفسك. .

كانت المناصب تسلم لأهلها

ما مصير أبناء عثمان ؟

لا أبالي !

مُحبّي

السلطنة التي يتحدثون عنها

تخميسة قصيدة السلطان سليمان خان

ما أنت بباقٍ ولا أنا بباق

نظرة القانوني إلى الدنيا

الذنب وزر على كاهل العبد

الفعاليات العلمية والفنية في عهده

المؤسسات الطبية وأشهر الأطباء

الرياضيون والموقّتون

علماء الفلك

الجغرافية وعلوم الملاحة

العلوم الدينية والكتابة683

المؤرخون

الأدباء

هذا ما تعنيه الإنسانية

أحمد شيمشيرغيل

Notes